THE BOOK OF GIFTS

كتاب الهدايا

كريج هاجينسون

ترجمة: رولا عادل رشوان

مكتبة ياسمين

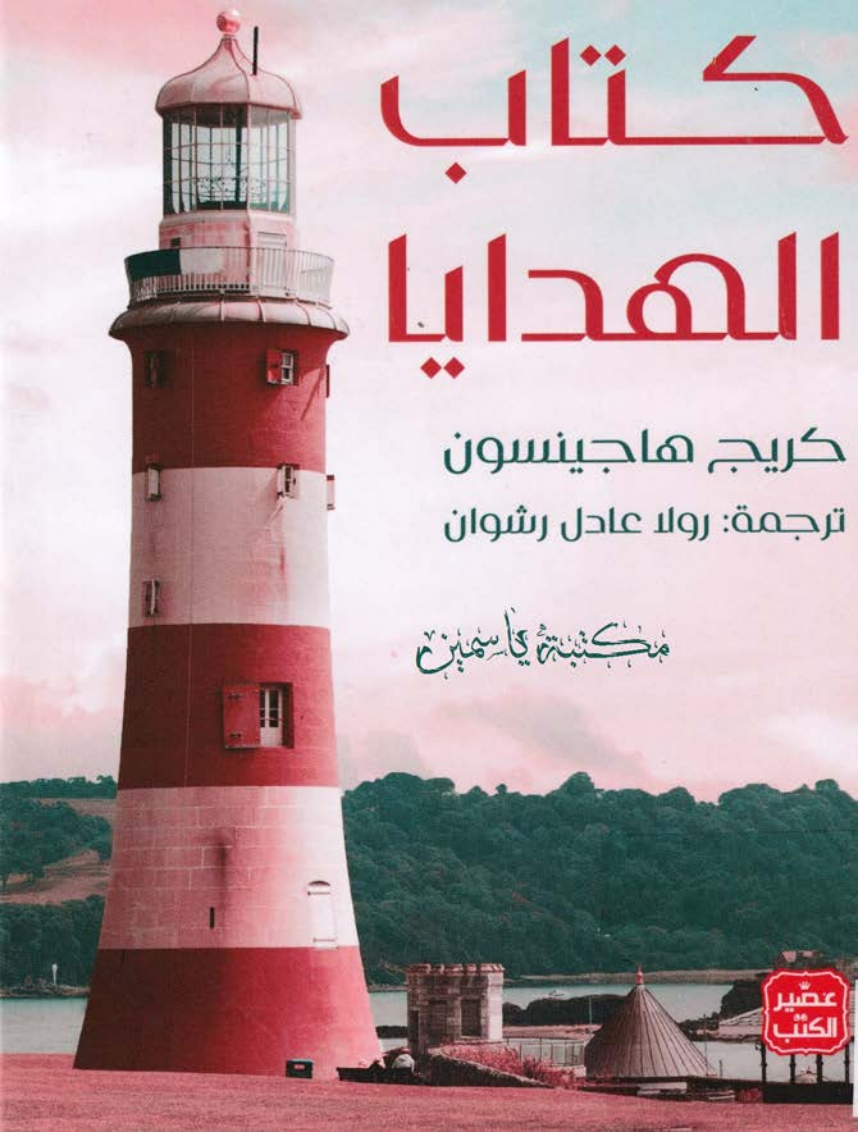

عصير الكتب

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

كتاب الهدايا

ما ثمنُ منح هدية؟ وما ثمنُ الحصول على واحدة؟
في سن الحادية عشرة، يفضل "جوليان فلينت" أن يبقى آمنًا، غير مرئي داخل مثلث حياة البالغين المعقّد الذي شيّده حوله أمه وخالته وزوجها، وذلك حتى تقرر أمّه "إيما" النحّاتة الشهيرة، اصطحابه في رحلة عائلية إلى فندق بجوار البحر، يلتقي "جوليان" هناك "كلير" وأسرتها، حينها يبدأ كلُّ ما يعلمه عن الحياة في التغيّر - يتبع ذاك التحوّل سلسلةٌ من الأحداث تغيّر مصيرَ كل الأبطال.

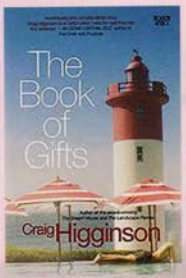

تصميم الغلاف: محمود هشام
9789776902787
عصير الكتب
www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb
منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

كتاب الهدايا

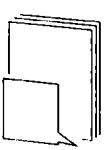

منحة الترجمة
Translation Grant

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

كان والدها بشخصه مسؤولًا ولو جزئيًا عن
الخطر الحالي الواقع على ابنته؛ فهو مَن سَلَّمها إلى هذا الرجل
الغريب
لمصلحة علاقته العاطفية.

- سيجموند فرويد، حالة دورا، 1905

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل الأول

زوجان جديدان من نظارات السباحة

جوليان - آمهالانجا روكس

أهدته خالته زوجين جديدين من نظارات السباحة ذلك الصيف. يجلس جوليان على حافة مسبح الفندق بينما يعلو صوت اصطدام مياه البحر بالصخور من تحته، ويضع النظارات على عينيه، تلك التي تمنح العالم في عينيه ظلالًا زرقاء. بينما ينزلق إلى الماء، يتحول الضوء من أعلاه وأسفله خالقًا أبعادًا جديدة. تقف المنارة على الجانب الآخر من الدرابزين، مطلية كقطعة حلوى، تتلاعب الأضواء حولها فتبدو كبرج من اللونين الأزرق والأرجواني، مثل صورة مأخوذة من إحدى القصص الخيالية. بينما يطفو السباحون الآخرون من حوله وأطرافهم الشاحبة عمياء تتعثَّر، يبقى هو تحت الماء. بفضل نظاراته هو الآن المخلوق الوحيد الذي يتمتع بقدرة البصر. تظهر أمه في المسبح لاستدعائه لتناول طعام الغداء. يخرج من الماء كما لو كان في خضم حلم. يخلع النظارات بلُطفٍ من ينزع عن جسده ضمادة.

تشعر عيناه بقلة الخبرة والقدرة على مواجهة العالم فوق المياه، تجفلان وتلمعان. كل شيء من حولهما مخطط باللونين الأحمر والأبيض؛ مناشف الفندق، وكراسي التشمس، وصف المظلات، وقماشها الذي يمنح ظِلًّا لأرض الشرفة، وحتى الماصَّات في مشروبات الضيوف، هؤلاء الذين تفوح منهم رائحة زيت جوز الهند وهم يشربون الشمبانيا مانحين أجسادهم الشمس.

t.me/yasmeenbook

اقتبست جميع الأشياء في الفندق خطوطها من ألوان المنارة، كل شيء باستثناء الأزرق الباهت لحمام السباحة والسماء، وحافة البحر الذي يقطعه الزورق السريع مُخَلِّفًا وراءه خطًّا أبيض ناصعًا قريبًا من سفينة شحن على بُعد. يرقد جوليان بجوار ساقَي أمه، وتتدلى النظارة حول رقبته بلا هدف، ملفوفًا في منشفة كضحية حادث قريب. في حقيقة الأمر ينطبق عليه هذا الوصف بالفعل، على الأقل على حد تعبير خالته جين. قبل بضعة أشهر، هجر أبو جوليان أمه من أجل امرأة أصغر منها سِنًّا. فيما مضى كان جوليان متأرجحًا بين قطبين: أمه وأبيه. لم يتبق له الآن سوى أمه، التي تقف بمفردها تمامًا في أرض غريبة، مثل تلك المنارة الموجودة على الصخور، تائهة وسط ضباب كثيف. ولكن الحقيقة أن جوليان نادرًا ما احتار بين أمه وأبيه. كانت خالته جين هي من وقفت دائمًا نقيضًا ضد أمه. بحسب ما تحكي جينيفر، كانت ولادة جوليان طويلة وصعبة، ولكن أمه رفضت كل مسكنات الألم. منحت جينيفر إيما كتابًا ادَّعى مؤلفه أنه إذا استرخت الأم وتنفست بشكل صحيح في أثناء المخاض ستشعر بالكاد بألم الولادة.

سألت إيما في وقت لاحق: «بالكاد كشعور اقتلاع قلبك بملعقة حادة مثلًا؟»

كانت جينيفر هناك، لم تفارق المكان طوال تسع ساعات من المخاض، وهي التي حُرِمَت القدرة على إنجاب أطفال. أرادت الطفل بقدر ما أرادته إيما. عندما فُصِلَ الطفل عن أمه، كان أشبه بكتلة حمراء داكنة ذات شعرٍ أسود فاحم بأذنين رَخيَّتين مثل أُذُنَيْ جرو صغير. بعد أن أنهت الممرضات قياس وزنه وطوله ولَفَفَنه في قماطه، كانت جينيفر هي من تسلَّمت الطفل وحملته لتنظر إليه من قرب، وأخبرته أنها ستحميه حتى آخر العمر. لم تكن صور جوليان الأولى في المستشفى تجمعه بأمه وأبيه، ولكن بأمه وخالته. وصل جوليان إلى العالم بعد عشرة أيام من ميعاده المتوقع، وقالت خالته جين إن والده كان بعيدًا في ذاك اليوم في رحلة عمل طويلة. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي ترافق الخالة جينيفر وزوجها جوليان وأمه في عطلة، كان الرجلان –أبوه وزوج خالته– بعيدين عن الصورة وأقل تركيزًا من المرأتين. يتمتع جوليان بميزة كونه الطفل الوحيد داخل غابة البالغين الحضارية تلك؛ الأمر الذي يمنحه كل الاهتمام الذي قد يطلبه، بالإضافة إلى وقت للعزلة وقتما

t.me/yasmeenbook

احتاج إليها. أحب جوليان أيضًا هذه اللحظات التي يقضيها وحيدًا مع أمه، حيث كانت أقدامهما المبللة تصفع الطريق الأسمنتي باتجاه غرفتهما، محاطًا بالهالة الخضراء للأشجار المتمايلة فوقهما. اعتبر جوليان أن أمه هي منزله، بينما خالته هي بيت عطلاته. يمكن أن يملَّ خالته، ولكن ليس أمه. أمه باقية أبدًا كالبحر، بينما تشبه خالته مسبح الفندق، حيث يمكنه التظاهر بأنه شخص آخر.

منذ وصولهم قبل يومين، شجعت إيما جوليان على السباحة في ما يحب أن يسميه «البحر الحقيقي». ولكنه يظل مجرد فتى من جوهانسبرج، مدينة بلا نهر لائق، ناهيك بالبحر. لا تزال فكرة البحر الحقيقي تخيفه. هناك أسماك قرش بالطبع، ولكن ما يخشاه أكثر هو التفكير في التيَّار الذي سيجرُّه بعيدًا عن الشاطئ والمنارة، مسحوبًا ببطء إلى أسفل في خضم الماء. ماذا سيفعل إنْ قادته الأمواج إلى هناك؟ كيف سيعرف اتجاه العودة إلى الشاطئ؟ هل سيكون قويًّا وصبورًا بما يكفي ليبقى هادئًا حتى تتذكره أمه وتأتي لإنقاذه؟

تقول أمه بينما يدخلان إلى غرفتهما الباردة: «الخالة جين وأندرو ينتظراننا بالفعل. بعد الغداء، سيرغب أندرو في مرافقتك في مباراة تنس».

- تنس.
- ربما ساعة أو ساعتين فقط.

لقد ذكر عمه أندرو فكرة لعب التنس عدة مرات من قبل. لا يعرف جوليان سبب إصرار أمه على ذلك، كل ما يعرفه أنها ستستمر في التذمر حتى يوافق على ذلك. كان هناك دائمًا نوع غير واضح من التواصل بين أمه وعمه؛ لكل منهما صوت غير صوته الأصلي، ولا يبدو أنهما يستخدمانه سوى في حديثهما معًا. كما لو أنهما يشعران بالأسف بعضهما تجاه بعض، أو يتشاركان مصدر خيبة الأمل ذاته. على الرغم من أن الخالة جين لم تتحدث قط عن هذا الصوت الخاص في حضرة جوليان، فإنه يعلم أنها تعرف ذلك. تعرف ذلك لأنها وجوليان لديهما صوتٌ سريٌّ خاصٌّ بهما.

t.me/yasmeenbook

يقول جوليان: «ليس لدي سوى حذائي الرياضي الضخم، ماذا لو ترك علامات على أرض الملعب؟»

- لا تقلق بشأن هذا.

عندما لا يجد شيئًا يقاوم به طلبها، تضيف: «إذن ستذهب بعد الغداء؟»

- حسنًا.

هو يعلم أن فكرة التنس ستختفي فقط إذا وافق عليها. لنأمل أن يتشتت انتباه الكبار في أثناء الطعام بفعل الشمبانيا والمحادثات الطويلة بما يكفي لينسوا الأمر. جوليان خبيرٌ جدًّا في الانسحاب من المناقشة بينما هي في ذروتها، تمامًا في تلك اللحظة عندما يشعر الكبار أنهم قد أشركوه بما يكفي في الحديث، بعدها يمكنهم الانتقال بسلام إلى مواضيع أقرب إلى قلوبهم. لم يكن لدى جوليان يومًا أي سبب ليكره زوج خالته أندرو.

لطالما كان العم أندرو رجلًا خَيِّرًا، إلا في كونه لم يملك ما يكفي من اللطف لدرجة أن يتركه في حاله. الآن، بعد أن خرج والده من الصورة، صار أندرو مدفوعًا من قِبَلِ الآخرين للقيام بأدوار لم يوافق عليها جوليان، خاصة إذا كان يشعر نحوه ببعض الشك. لطالما أثارت مهنة العم قلق جوليان؛ يمارس عملًا في مؤسسة ما «محللًا»، مما يعني أنه يستمع إلى الأبد إلى ما لا تقوله بدلًا مما تخبره به بالفعل. كما يعني أيضًا أنه لا يبدو أبدًا أنه يولي ما تقوله أي اهتمام على الإطلاق.

يجلس أندرو وجينيفر على طاولة في أقصى نهاية شرفة الفندق تطل على حمام السباحة والمنارة، التي ربما تكون قد وُضِعَت جانبًا للعشاق، أو الأزواج الذين يريدون الخوض في جدال. على الطاولة تقف زجاجةٌ في دلوٍ فضي بلوري. لم يستغرق الأمر سوى لحظات بعد تسجيل الوصول لتعلم الخالة جين أن الفندق يقدم شمبانيا مجانية للضيوف في أثناء وجودهم في منطقة المسبح. ومن حينها قررت أن تمضي غالبية وقتها في المنطقة ذاتها. تَدَّعي أنها تحب مشاهدة القرود، التي تجلس على العوارض الخشبية فوق كراتها الزرقاء متأرجحة تجاه طاولة خالية لسرقة حفنة من العنب أو شريحة من البيتزا في أثناء انشغال النُّدُل. ولكن جوليان يعرف خالته أكثر من ذلك. ستجدها دائمًا قريبة حين تتوفر زجاجة نبيذ جيدة وكتاب

t.me/yasmeenbook

يبدو معقَّد المحتوى. ينقل العم أندرو –الذي يرتدي أحد قمصانه ذات اللون الأزرق الداكن– عيونه عبر إحدى الصحف بينما تسحب الخالة جين نفسًا من سيجارة أخرى. لا يمانع جوليان رائحة الدخان، ولكنه يعلم أن أمه تستاء عندما تدخن جينيفر في حضوره. تُذَكِّرُها جينيفر كل مرة أن والدهما كان يدخن باستمرار بينما كانتا طفلتين، وأن إيما لم تهتم يومًا بذلك –الذكرى التي تزعج إيما دائمًا–.

تقول جينيفر وهي تنظر إلى أختها الصغرى بحنانها المعتاد: «عزيزي! أرى أنك اصطدت سمكة».

تقول إيما: «إنها تلك النظارات الواقية الجديدة، لا يريد أبدًا خلعها».

ترسل جينيفر ابتسامة تجاه جوليان في الوقت نفسه الذي تفسح فيه مكانًا على كرسيها المخطط، وتدعوه للجلوس بجانبها –وهو ما يفعله دائمًا–. لا يرى جوليان أي فرق في كون الأختين غير شقيقتين. كانت والدة إيما عالمة أحياء بحرية إسبانية جميلة، سرقت والدهما من والدة جينيفر، التي كانت مُدَرِّسَة للغة اللاتينية والفرنسية أقل جمالًا. هذا هو السبب في أن والدة جوليان لديها شعر أسود مجنون يزداد جنونًا في البحر، بينما شعر خالته ذو لون أحمر، ويبدو دائمًا مُعَرَّضًا لخطر التساقط. لا يمكن أن تبدو المرأتان أقل شبهًا كأختين، أو أن تحملا شخصيتين أكثر اختلافًا. إيما تمارس مهنتها نَحَّاتةً لأشكال سحرية ضخمة من البرونز، التي تباع بأكثر من مليون راند لكل منها، بينما تعمل الخالة جين معلمة لغة إنجليزية بأجر متواضع في مدرسة جوليان الجديدة، مدرسة سانت فرانسيس.

طوى العم أندرو الصحيفة ورفع كأسه للاحتفال بوصول جوليان وأمه.

يحافظ أندرو على لياقته البدنية باستمراره في أداء روتين السباحة كل صباح في صالة الألعاب الرياضية المحلية.

للعم أندرو شعر أشقر داكن وعينان رماديتان شاحبتان، ويبدو أصغر بكثير من الخالة جين. تقول والدة جوليان إن هذا يرجع إلى أن أندرو لم يبدأ بعد في العيش حقًّا، وإن مثل هؤلاء الأشخاص يموتون غالبًا مبكرًا لأن أجسادهم تفقد الأمل وتتخلى عنهم.

t.me/yasmeenbook

يقول جوليان: «سأذهب إلى مباراة التنس مع العم أندرو بعد الغداء».

تتساءل إيما ناظرة إلى أندرو: «فعلًا؟»

ينظر أندرو إلى جوليان وكأنه يمنحه الفرصة لتغيير رأيه.

يقول بينما لا يزال يشاهد جوليان: «بالتأكيد. يقول المدرب إن ابنك لديه ضربة خلفية قوية جدًّا. كل ما يحتاج إليه هو مزيد من الثقة للاقتراب من الشبكة».

يبتسم الاثنان كما لو أن ما قاله يحمل معنى أعمق مما قيل حقًّا.

يملأ العم أندرو كأس إيما وكذا كأس زوجته. على الرغم من أن الخالة جين تشرب أكثر بكثير من أي شخص آخر، فإنها الوحيدة التي لا تسكر أبدًا.

يقع ملعب التنس في آخر الحديقة خلف الفندق، محاطًا بنوع من النباتات المتشعبة التي يمكنها أن تخبئ نمورًا بين فروعها.

عادة ما يكون الملعب فارغًا، وقد كانت أرض الملعب النديَّة تلمع تحت السماء عندما زاره جوليان آخر مرة، ولكن اليوم توجد فتاة هناك، تضرب كرة في الحائط البعيد للملعب. لديها أطراف طويلة وضفائر نحاسية، وتبدو كشخص اعتاد السباحة في البحر الحقيقي. لا تنتعل حذاء في قدميها، وترتدي بيكيني باللونين الأزرق والأبيض يكشف عن طول عمودها الفقري. أحس جوليان الواقف بصحبة مضرب التنس المستعار من الفندق في ملابسه الرياضية المدرسية الباهتة بكونه تائهًا في حضورها. لا تلاحظهما الفتاة إلا عندما تَصِرُّ البوابة في أثر دخول أندرو إلى الملعب. يقف جوليان في ظل العشب بعد أن نسي أن يتحرك. يمكنه أن يرى من وجه الفتاة المتورد أنها كانت تلعب منذ فترة، ولكن يمكنه أيضًا أن يرى من الطريقة التي تمسك بها المضرب وتأرجحه حول جسدها أنها ليست جادة جدًّا بشأن التنس، وأنها هنا فقط لتمضية الوقت. عندما ترى الفتاة أندرو، تترك الكرة تتجاوزها وتلقي بمضربها فيما يشبه الراحة.

تسأل وصوتها يرن بثقة: «هل تريد الملعب؟»

يقول أندرو بغرور: «أعتقد أننا قد حجزنا هذه المساحة هناك».

t.me/yasmeenbook

عندما قال «حجزنا»، لاحظت الفتاة جوليان ونظرت إليه للمرة الأولى. كان تعبيرها محايدًا، لكن مراعيًا. لم يبدُ عليها أنها قد حَمَّلت جوليان ذنب وقاحة الرجل، الذي قد ظَنَّته بالفرض والده.

يتابع أندرو محاولًا فيما يبدو أن يقدم انطباعًا أفضل عن نفسه: «لكن يمكنكِ الانضمام إلينا. سنتبادل ضرب الكرات مدة ساعة واحدة».

تردُّ الفتاة: «شكرًا، ولكن عليَّ الذهاب الآن».

بدأت تتحرك بالفعل. تجمع الكرات وتحاول حملها على صدرها، ولكنها كلما التقطت كرة سقطت أخرى، وبينما تجاهد لالتقاط التي سقطت، تتدحرج ثلاثٌ أخريات من بين يديها. دخل جوليان إلى الملعب، بينما وقفت هي يائسة بلا كرات تقريبًا. يحمل جوليان منشفة الفندق، ثم يطويها كما الكيس ويبدأ في جمع الكرات داخلها. بينما كان هو والفتاة يكملان جمع الكرات، كان أندرو يتجه نحو الطرف الآخر من الملعب، ضاغطًا على مضربه ومُصَفِّيًا حلقه بالسعال.

تقول الفتاة بهدوء حتى لا يسمعها أندرو: «لقد رأيتك اليوم».

- عذرًا؟

- اليوم في المسبح.

أومأ جوليان برأسه، بلا فكرة حول كيف يمكنه التعامل مع الموقف.

- هل ستسبح لاحقًا هذا اليوم؟

تبدو ودودة وماكرة قليلًا؛ الأمر الذي يجعلها مثيرة كالفاكهة المُحَرَّمة.

لم يقابل جوليان أي شخص مثلها من قبل؛ يبدو أنها مهتمة بأمر ما فيه لا يمكنه كشف كُنهِه، كما لو أنها أخطأته ظنًّا منها أنه شخصٌ آخر.

يقول جوليان بصوت بالكاد مسموع: «أعتقد».

- فعلًا؟

- بالتأكيد.

يمنح جوليان الفتاة المنشفة الملآنة بالكرات، بينما يراقب أندرو من بعيد وهو يضرب الكرة التي أخرجها من جيب سرواله القصير المنتفخ بالكرات.

t.me/yasmeenbook

تشكر الفتاة جوليان بابتسامة يسري أثرها عبر جسده من معدته وصولًا إلى أطراف أصابع يديه وقدميه.

يسأل العم أندرو: «هل يمكننا أن نعيد التمرن على إرسالك؟ هذا إذا رغبت».

يفاجئهما جوليان بإرسال سريع للكرة، بضربة منحرفة لدرجة أرسلت العم أندرو إلى أقصى نهاية الملعب، حيث لَوَّح أخيرًا بمضربه في البقعة التي كانت الكرة قد غادرتها لتوِّها مستقرةً على الأرض.

بعدها تجلَّت الفتاة في ناظريه كحورية بحر ذهبية تسبح بينما تتتابع في أثرها دفقات من الفقاعات. كان جوليان يطفو سابحًا في تيه ممتد من المياه، وقد غاصت هي باتجاهه، وتوقفت فقط في اللحظة التي كادت تلمس فيها وجهه. ظن هو أنها ستُقَبِّله، بينما ضحكت هي عاليًا مُطلِقةً دفقة أخرى من الفقاعات في وجهه قبل أن تعود إلى السطح.

يعود جوليان إلى الواقع فقط ليكتشف أنها رحلت. كان عليه أن يعود إلى قاع البحر ليجدها، حيث يتماوج شعرها تحت الماء، مستطلعًا أطرافها بطيئة الحركة وعيناها الكبيرتان المائلتان إلى الخضرة تراقبان كل جانب من جوانب وجهه الشبيه بالضفدع. يقفان هناك بلا حراك كأنما قد مُنِعَ عنهما الكلام، يفحص كل منهما غرابة الآخر، ويختبران حداثة اهتمامهما ورغبتهما. لم يفكر جوليان قط في نفسه على أنه مثير للاهتمام أو مرغوب فيه من أي فتاة، ناهيك بفتاة كهذه. ولكنه عرف بأن تلك الفتاة تحبه، وصارت معرفته مؤكدة له أكثر مما تأكد من أي شيء آخر في حياته، وأنها قد اختارته ليلعب دورًا معينًا في خريطة حياتها التي لا يفهمها سواها.

أراد أن يظلّ عالقًا هناك للأبد. تتحرك أطرافهما هادفة اللقاء، وتنفرج شفاههما ببطء عن ابتسامة، ولكنه سرعان ما يشعر بقدر حاجته إلى التنفس ليمكنه استيعاب الموقف، فيهبُّ صاعدًا إلى السطح. عندما يبدآن في تنفس الأكسجين ثانية، تطلب منه أن يدعوها كلير. قضا كلاهما فترة ما بعد الظهيرة في السباحة والاستلقاء في الشمس. يكتشف جوليان أنه لم يعد في حاجة إلى نظارات واقية للرؤية تحت الماء.

t.me/yasmeenbook

يخلعها جوليان ويرميها في اتجاه المنشفة. أما كلير فكانت أشبه بالحلم. كل ما فيها يبدو مثاليًّا. كما لو أن منافسة بين آلاف من العيون والآذان والأفواه والرقاب فُرِزَت جميعًا بدقَّة لمنحها تلك العين، هذه الأذن، هذا الفم، وتلك الرقبة بالذات. جُمِعَت كلها بفضل من إله رقيق شديد الصبر. على الرغم من ذلك، لم يكن كل ما سبق هو ما أذهل جوليان بشأنها، وإنما الطريقة التي تنظر بها إليه، وتضحك معه كما لو أنها تعرف بالفعل كل جزء منه وتحبه، كما لو أنه يملك القوة التي تضاهيها وتوازنها. أرادت كلير أن تعرف كل شيء عنه. استغربت فكرة كونه الطفل الوحيد لعائلته، وأفزعتها فكرة انفصال أمه وأبيه بالطلاق. حكى جوليان عن أمه، ووصف منحوتات معرضها الأخير، تلك التي شهد مهد صنعها في استوديو أمه. قص عليها بعدها عن والده المخزي جوناثان، وصفه بطريقة جعلته مثيرًا للاهتمام، بينما كان هو في الواقع أكثر عادية مما حكي. أثارت «المرأة الشابة الخائنة» احتقار كلير فورًا، وبوضوح وتصميم لم يتوقعه جوليان.

- كم مرة رأيتها؟

- مرة واحدة. كانت جالسة داخل سيارة والدي.

- ألم تحاول مصادقتك؟ كيف كانت تبدو؟

- لم أستطع رؤية وجهها.

- هل تعلم ماذا يقولون عن الساحرات؟ إن لم يُرِدن لك أن ترى وجوههن، فلن تراها. يمكنهن جعل أنفسهن غير مرئيات حتى وإن نظرت إليهن مباشرة.

- تقصدين أنك تظنين أنها ساحرة؟

- لقد سرقت والدك، أليس كذلك؟ لقد سرقت عائلتك بأكملها.

كانت تلك آخر مرة رأى فيها جوليان والده، كان ذلك قبل شهرين؛ قابله والده لإعطائه هدية الكريسماس قبل أن يسافر لتسلُّم وظيفته الجديدة في دبي. كانت الهدية كتابًا مفضلًا لوالد إيما كما اتضح؛ القصص المختارة لـ «جيمس هيريوت». منذ ذلك الوقت لم يفكر جوليان كثيرًا في والده، ومع ذلك –رَغبَةً في شفقة كلير– يتظاهر بأنه يفتقده أكثر مما يفعل حقًّا.

t.me/yasmeenbook

تختتم كلير: «أمك المسكينة. إنها على الأقل امرأة ناجحة، لا بد أن هذا الأمر يخفف عنها. أنا متأكدة من أنها ستجد شخصًا آخر قريبًا. أعني بالطبع لو أرادت ذلك. لا تحتاج كل النساء إلى رجل ليشعرن بالراحة تجاه أنفسهن، كما تعلم».

عندما ترك جوليان كلير ليتحضَّر للعشاء، لم يقل شيئًا عنها لأمه، وقد فَسَّرت أمه ما يبدو عليه من تشتت واضح باحتمالية تَعَرُّضه لضربة شمس. يقف جوليان ناظرًا إلى انعكاس صورته في مرآة الحمام، محاولًا رؤية نفسه من خلال عيني كلير. كتفاه وظهره يصطبغون بلون شديد الحمرة، فيما عدا الأماكن المحمية بسروال السباحة ونظاراته وساعته، فيظهر جلده فيها ناصع البياض، كما لو أن جسده قد اقتبس من المنارة ألوانها. يلاحظ أن لون عينيه يقترب إلى كونه أخضر، وأن شعره كثيف ومبعثر. ولكنه –وعلى الرغم من النظرة والشعر الذي ورثه عن أمه– فها هو ذا يقف هناك غريبًا عن نفسه. كل ما يعرفه أنه لم يعد ابن أمه.

بينما يمشي في أثر أمه نحو الفندق الرئيسي لتناول العشاء، يخطر ببال جوليان لحظة أنه قد لا يرى الفتاة مرة أخرى. دخل جوليان وأمه إلى منطقة الطعام الرخامية اللامعة، المزدانة بالفسيفساء المتلألئة والنباتات المغروسة في أوانٍ بيضاوية منتفخة، وعدّة من رسومات لطيور غريبة، ومراوح من الخيزران تلفُّ بكسل في السقف العالي. فور وصولهما إلى داخل القاعة، رأى جوليان الفتاة. كانت تجلس على طاولة ترتدي فستانًا أزرق شاحبًا، وشعرها ملفوف في ضفيرة لَفَّتها على هيئة كعكة في مؤخرة رأسها. أدرك جوليان أن كلير لم تذكر شيئًا واحدًا عن عائلتها حين قابلته بعد ظهر هذا اليوم، ولكنه الآن يرى أن لديها عائلة؛ أخًا وأختًا، وكلاهما أصغر منها في العمر ويشبهانها بشكل ملحوظ، بالإضافة إلى والدين مبتسمين تلمع بشرتهما من أثر حروق الشمس. ترفل العائلة في ثياب تجمع بين اللونين الأزرق والأبيض، في أناقة تامة كما لو كانت بهدف التموضع لجلسة تصوير في مجلة ما. عائلة لا يحدوها أي اهتمام بالآخرين لأنها مشغولة جدًّا باهتمام الآخرين بها. الأمر الذي يجعل كل من في المكان يبدو أكثر أهمية منهم، أو ربما أقل أهمية. عندما ترى كلير جوليان، تلوِّح بمرح.

t.me/yasmeenbook

تسأل إيما بطريقة توحي بأن الفتاة إما أن تكون مجنونة وإما أن يكون هناك سوء فهم: «هل تُلَوِّح تلك الفتاة لك فعلًا؟»

- اسمها كلاريسا، ولكنها تفضل أن يناديها الناس كلير.

- تقصد أنكما قد التقيتما بالفعل من قبل؟

- اليوم في المسبح.

قالت أمه: «حَسَنًا، أفترض إذن أنها لم تجد أطفالًا أفضل في الفندق لتشاركهم اللعب».

قالتها كما لو كانت تتلذذ بصياغة الجملة بهذا الشكل لإيذائه. وصحيح أنه لا يكاد يوجد أي أطفال آخرين في الفندق. يبدو أن معظم الضيوف الآخرين إما أزواج متقاعدون من أوروبا أو أمريكا، وإما أزواج شباب في شهر العسل، أو بصحبة أطفال صغار. في يوم وصول جوليان لأول مرة، كانت هناك عائلة بها مجموعة من الأولاد يلعبون لعبة «جو فيش»[1] في الردهة. بينما كان جوليان يتجول مداعبًا قطة الفندق المقيمة، نظروا إليه باحتقار واضح، كما لو أنهم قد كَوَّنوا فكرة بأنه لا يملك فعليًّا ما قد يثير اهتمامهم. لحسن الحظ، غادرت تلك العائلة الفندق بعد الإفطار في صباح اليوم التالي، بعد أن حَشَوا جيوبهم بالحلويات الملوَّنة.

ومع ذلك، فقد أثار موقف إيما في نفس جوليان ما جعله يظنُّ أن كلير كانت ودودة معه لأنها لم تجد من هو أفضل لتقضي وقتًا معه، وأنه إذا كان هناك أطفال آخرون في الفندق فربما ستنسى كل شيء عنه في لحظة. قرر أنه لن ينظر إليها حتى نهاية السهرة. يجلس بجوار العمة جين، ويلتقط قطعة من الخبز ويلطخها بطبقة من الزبد حتى يلين سطحها. ولكن تجاهل كلير لم يكن أمرًا سهلًا: التقاها في صباح اليوم التالي مع عائلتها في المتاجر المنتشرة عبر الطريق من الفندق. إنهم يجلسون في محل حلويات فرنسي. سطع المكان حول المائدة حيث يجلسون بشكل غريب، كما لو كانت العائلة تجلس على خشبة المسرح أمام جمهور، على الرغم من أن المتجر خالٍ تقريبًا إلا منهم؛ جوليان وإيما والرجل ذي اللكنة الفرنسية المزيفة خلف الصندوق.

---

(1) لعبة بطاقات.

t.me/yasmeenbook

الغرفة ملآنة أيضًا بالنحل، الذي ينتشر على النوافذ أعلاها وأسفلها، زاحفًا داخل وخارج حلويات الكاسترد والفانيليا والتوت. قالت له أمه إن ما يراه ينتمي إلى فصيلة النحل الفرنسي، وليس نحلًا إفريقيًّا، لذلك لن يلدغه.

يسأل جوليان: «ولكن هل تحمل الجراثيم؟»

- لا تكن سخيفًا يا عزيزي، النحل نظيفٌ جدًّا.

يفكر جوليان مفاضلًا بين كرواسون اللوز والآخر بالشوكولاتة بينما يشعر أن كلير بجانبه. لا يحتاج إلى الالتفات إليها أو قول أي شيء، لأن ذراعها بملمسها الناعم تضغط برفق على ذراعه وتقول كل ما يجب قوله.

يسأل أمه: «هل يمكنني الحصول على ذلك الذي باللوز؟»

تطلق كلير تنهيدة قصيرة توحي بموافقتها. منذ تلك اللحظة قرر جوليان أنه سيشارك كلير كل ما لديه.

تُعَلِّمه كلير كيفية السباحة في البحر الحقيقي. توضح له كيف يختار الموجة الصحيحة ويجاريها. كان الماء يتدفق من حوله ويقذفه سريعًا بلا خِفَّة نحو الشاطئ، ولكنه يخرج من الماء كل مرة سعيدًا ومتحمِّسًا، ويضحك ويثرثر. يجلسان ساعات على الشاطئ، تمامًا على الحافة حيث ينتهي الماء ويبدأ الشاطئ، مراقِبَين المدَّ الآتي نحوهما. يغمسان أصابع أقدامهما في برودة الرمال، وتتشابك أصابعهما المالحة، وتتلامس رُكبَتَاهما. كل شيء من حولهما يبدو فرصة محتملة لمفاجأة؛ فتلك الرمال العسلية من حولهما هي في الواقع آلاف من شظايا الأصداف الملونة، وذلك الكيس البلاستيكي الذي يلوح في الأفق داخل موجة رمادية كبيرة ما هو إلا قناديل بحر حية. لا يتناقشان في أمر اللغة الخاصة بينهما التي يكتشفها جسداهما، تلك التي تتطور بسلاسة في أعماقهما، وتمنح أقصر اللحظات أو التغيرات أهم التأثير. بينما تمنحه تلك الصدفة الحيَّة، يصبح ذلك بمكانة إعلان واضح لشيء آخر: أمنحك تلك الصدفة بعينها، لك أنت، وحدك. ذلك ما بدا الأمر عليه. كما لو كانت تقول: بمنحك تلك الهدية، أشاركك جزءًا من نفسي، تمامًا كما شاركتني سابقًا نصف كرواسون اللوز.

بأثر من معجزة ما، استطاعت كلير الحفاظ على أسلوبها الثرثار في خضم تواصلهما الروحي ذاك. تخبره كل شيء عن عائلتها، وحياتهم المثيرة

t.me/yasmeenbook

معًا. أبوها جراح قلب، وأمها اختصاصية علاج طبيعي، ولكنها الآن تملأ وقتها بالعمل الخيري ورعاية الأطفال. في العام الماضي، سافروا في عطلة تزلج إلى مكان يُدعى «شاموني»، وفي العام المقبل يأملون في العثور على منزل صغير يشترونه في اليونان. تشرح كلير أنها من برج الدلو، وهذا هو سبب عدم خوفها من البحر. وافق والدها على منحها حصانًا في عيد ميلادها الرابع عشر، الذي يوافق مطلع العام المقبل. تَكبُرُ كلير جوليان بعامين ونصف. تخبره أنه من برج السرطان، مما يعني أنه قد يكون حساسًا للغاية ولا يمكن التنبؤ بأفعاله؛ لأن السرطان برج مائي، لا يشعر أنه في بيته إلا حين يكون في البحر. يشعر جوليان بأن فارق السن بينهما كرحلة طويلة بين بلدتين غير معروفتين، ولكنه سعيد بمرافقتها فيها أينما أخذته. في ظهيرة أحد الأيام، أصبح صوتها أكثر جدية وإصرارًا، واقترحت أن يصعدا إلى غرفتها التي تطل على المنارة والمنظر الواسع للخليج. هناك، تصنع لهما خيمة من الملاءات، وتدعوه للانضمام إليها. في الخيمة لا يتوانى الاثنان عن الاحتضان، ويستمران في النشاط نفسه طوال فترة بعد الظهر، حتى يشعر جوليان أخيرًا بالدوار وصعوبة التنفس.

كان صدر كلير قد بدأ رحلته نحو طور الأنوثة، وقد دَعَته لتَفَقُّده. شعر جوليان حينها بوجود ما يرقد تحت جلد كلير، امرأة، أو مخلوق بعيد جدًّا عن كليهما. أراد لحظة الهروب منها والاختباء. في تلك المسافة غير المرئية، ينجذب الجزء البالغ فيهما معًا بأثر من المغناطيسية المطلقة لوجودهما الحقيقي كطفلين –أو هكذا يبدو لجوليان–. لاحظ جوليان أمه تبتسم في اتجاه والِدَي كلير ذات صباح في بوفيه الإفطار، وفي نهاية اليوم ذاته جلسوا جميعًا يشربون الشمبانيا بجانب المسبح. بعد يومين، التقت العائلتان لتناول العشاء في الشرفة، وخلفهما رعد البحر ونور المنارة الخافق. جلس جوليان وكلير في نهاية الطاولة بجوار أشقائها. بعد أن طلب كل منهما وجبته، أمسكت كلير بيده تحت الطاولة وقبضت عليها حتى آلمته. منذ القبلة الأولى التي تبادلاها بعد ظهر ذلك اليوم، صار جسداهما طافحين بالحرارة، ولكن لم يبدُ أن البالغين –الذين شغلهم عنهما لطف الجو بين الزجاجات والكؤوس المقروعة– قد لاحظوا أيًّا من ذلك. كان البالغون من العائلتين آخذين في الضحك والتحدث في وقت واحد، حتى اضطر الجالسون حولهم إلى رفع

t.me/yasmeenbook

صوتهم ليتمكنوا من سماع بعضهم بعضًا. مع هذا، بدت الخالة جين حزينة، بدت غير سعيدة تجاه أفعال جوليان بالذات. وللمرة الأولى في حياته، اكتشف جوليان أنه لا يهتم بها أو بتعقيداتها. إنه ذلك الشعور الجديد الذي قد دفع كل المشاعر القديمة الأخرى خارج قلبه. يشعر أن المشاعر المنافسة الأخرى قاسية ومزعجة، وسيفعل كل ما في وسعه لحماية إحساسه الأحدث.

تسأل كلير: «لماذا تبدو عمتك غاضبة جدًّا الليلة؟»

- أعتقد أنها غير سعيدة في زواجها. هذا أمر يعانيه جميع البالغين فيما أرى.

تقول كلير ناظرة اتجاه والديها بفخر: «أما والداي فلا».

على مدار الأيام التالية، لا يتوقف جوليان وكلير عن تبادل القبل، في كل مكان، وكل فرصة: في مواجهة الضوء الباهر لمحل المعجنات، قريبًا من رغوة البحر المنعشة على الشاطئ، مُلتَصِقَين بالغطاء الجلدي البارد الذي يغلِّفُ حوائط مكتبة الفندق، وليلًا تحت القمر الأزرق الذي يطغى على المنطقة حول المسبح.

كان الحجر الرخامي في الطرف الضحل من المسبح خشنًا وكثير الثقوب. كسر جوليان قطعة منه ووضعها في الجيب الخلفي لسروال السباحة. يشعر جوليان الآن أن تلك لحظة مقدسة، قد غابت عنها حسابات الزمان والمكان، فأراد أن يحمل بعضًا من آثارها لإثبات وجودها، وأنه قد عاشها بالفعل. طعم الدموع في فم كلير، ورائحة القش في شعرها. كلما زادت لقاءاتهما، نأى عن نفسه وزاد شعوره بالضياع. في كل مرة يلتقيها يصير الأمر أشبه بالفناء، وكأنه يرغب في أن يفنى فيها. إلا إنه لم يشعر قط من قبل بمثل تلك الحيوية والحياة النابضة فيه. الأمر يشبه تذوقه بضع قطرات من السم؛ قاتلة، لكنها قليلة، تتركه غير راضٍ أو مُكتَفٍ. فور أن يتفرَّقا، يشعر بخط طويل من الأنين يمر عبر جسده، أنينٍ يدفعه للصراخ، ويُصَعِّبُ عليه الشعور بالسلام. يزيد من جداله مع أمه، ويتجاهل خالته بالكلِّية.

عندما أُجبِرَ مرة أخرى على لعب التنس مع العم أندرو، ضرب جوليان الكرة بقوة لدرجة أنه بالكاد تمكن من تسجيل نقطة. فور انتهاء المباراة، ظهرت كلير بصحبة أختها الصغيرة إليزابيث. أخبرت كلير أختها أن تقف

t.me/yasmeenbook

حاملة ساعة التوقيت لتحسب الوقت الذي سيقضيانه معًا، تَسَلَّق جوليان وكلير داخل غابة الورود المتشابكة، حيث رائحة البزاق والأرض الرطبة. تبدأ رحلتهما في القبلات اللطيفة وتستمر حتى نصف ساعة.

بعد انتهاء الوقت، خرج الاثنان بملابس قد تلطَّخت بالطين. هرعت ليزي لتجد والديها، تاركة ساعة التوقيت مواصلةً العد فوق العشب. جلست العائلتان في أثناء وجبة الإفطار في يومهما الأخير معًا، تناقشان ترتيب رحلة لمشاهدة أسماك القرش. أخبرهما سائق الفندق أنه يمكنهما لمس أسماك القرش الحقيقية داخل شباك صيدها. كان جوليان على وشك أن يسأل عن موعد ذهابهم، عندما رفضت كلير الدعوة للرحلة نيابة عنها وعنه.

تُفَسِّر هي: «إنه يومنا الأخير في البحر. وما زِلتُ أُعَلِّمُ جوليان كيفية مواجهة الأمواج بجسده».

تنظر والدة كلير إليها بِشَكّ، ولكنها تبدو فاقدة أي رغبة في المجادلة.

بدلًا عن هذا، تقرر الاهتمام بأسئلة شقيق كلير الصغير، الذي لم يتوانَ منذ بداية الرحلة عن إزعاجهم بشأن هذه الرحلة.

- أي نوع من أسماك القرش هي يا أمي؟ هل علينا أن ننظر إلى داخل بطونها؟ هل سيكون هناك أي قروش بيضاء هناك؟

وافقت إليزابيث على الذهاب معهم، ولكنها قالت إنها لن تلمس أي أسماك قرش، ميتة كانت أو حية.

تبتسم لجوليان على أمل أن تنال رِقَّتها إعجابه، ولكن كلير توجه ضربة بركبتها إلى ساق جوليان لتلهيه، فيمنحها ابتسامته بدلًا عن كلير. يحتفظ جوليان دائمًا بمفتاح غرفته في الجيب الخلفي من سروال السباحة. عندما يمر وقت ذهاب الجميع إلى رحلة أسماك القرش بأمان، تقترح كلير أن يذهبا إلى غرفته لممارسة هوايتهما المُفَضَّلَة. تقع الغرفة في عمق الحديقة الخلفية للفندق، وتحيط بها شجيرات الهيبسكوس الحمراء، وشجرة لبخ قديمة تظلل على مجموعة متشابكة من الجذور الرمادية المنتفخة. ترفرف ببغاوات اللوري عبر ضوء الشمس، ويعلو صوت قرقرتها: «كووك، كووك، كووك». يدخلان الغرفة بتوجُّسٍ صامتٍ كما اللصوص. تهتز مروحة السقف بصوتٍ خافت فوق السرير غير المرتب كحشرة ميكانيكية ضخمة.

t.me/yasmeenbook

لا يتذكر جوليان أنه قد ترك المروحة قيد التشغيل. وبينما هو على وشك إطفائها، يشعر بأن الجو في الغرفة صار مشحونًا بطاقة وجود شخص ما هنا. لاحظ بعدها أن شيئًا على السرير يتحرك ببطء في الضوء الخافت للغرفة، وكأن الملاءات على وشك أن تلد شيئًا من رحمها الأبيض. كان بالكاد قد أشار إلى كلير لينسحبا عندما قالت كلمة غيَّرَت فجأة كل شيء إلى الأبد: «أبي؟»

تتوقف الحركة على السرير. الآن فقط يستطيع جوليان أن يميِّزَ الشعر الأصفر المتشابك لرَجُلٍ ما بين الوسائد. يلتفت جوليان إلى كلير، لسبب ما يشعر بنفسه راغبًا في الضحك، ولكنه يجدها قد غادرت الغرفة بالفعل.

يتبعها جوليان على طول الطريق الذي ينتهي بالجزء الخلفي من الفندق. تنتشر في الهواء رائحة السمك والبطاطا. يجلس نادل ما على درج أسمنتي، يدخِّن في ضوء الشمس، محاطًا بصناديق معدنية تفيض بالنفايات. يرفع النادل يده لتحية كلير، ولكنها تمرُّ بجواره بلا اهتمام، مسرعة كشخص قد تأخر عن موعده.

- كلير!

بينما تصل إلى بداية الردهة المؤدية إلى المسبح، يصل إليها جوليان أخيرًا مُلتَقِطًا معصمها. ولكنها تحرر يدها من قبضته ووجهها منتفخ مظلم، بلا ملامحه المألوفة.

- ابتعد عني!

كانت عيناها مظلمتين من أثر خوف عميق. حَدَّقت إليه وكأنه مسؤول عما حدث للتو في الغرفة.

- لماذا أخذتني إلى هنا؟ هل كنت تخطط لفعل ذلك طوال الوقت؟

- عَمَّ تتحدثين؟

- دعني وشأني.

- ولكن.

- لا أريد أن أراك أبدًا بعد ذلك.

يقف جوليان ناظرًا إليها وهي تسير نافضة ذراعيها، تؤرجحهما كما لو أنهما قد تنتجان ريشًا في أي لحظة لتستطيع الطيران.

t.me/yasmeenbook

تغادر عائلتها الفندق في اليوم التالي، ولا يحصل على أي فرصة لتوديعها.

جلس جوليان بقية اليوم على حافة المسبح، قدماه تتخبطان في الماء تحته بلا هدف. صار البحر والسماء الآن مصطبغين بدرجتين من اللون الرمادي، بينما يحمل حوض السباحة وحده اللون الأزرق الذي ساد العالم من حوله في الأيام السابقة. بجواره رأى طفلًا في عمر أصغر يرتدي نظارته القديمة ويغوص بمساعدتها في عمق المسبح. في الغالب وجد الطفل النظارات قبل بضعة أيام، مستلقية بجانب المسبح حيث تركها جوليان، الذي لم يطلب استعادتها.

في وقت لاحق، وجدته خالته جين لا يزال في مكانه بلا حركة. نادته والتقطته بين أحضانها، أو ما تبقى منه.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل الثاني

اليربوع والقفص

إيما - جوهانسبرج

بحلول الوقت الذي عادت فيه إيما من المستشفى كان الليل قد حَلَّ بالفعل. ظلام من حولها أشبه بليل الصحراء الخاوي. يكتسح ضوء المصابيح الأمامية المنزل، الذي يبدو قفرًا كما لو أن أحدًا لم يسكنه منذ سنوات. هذا منزل بلا طفل الآن. تركها زوجها قبل أربع سنوات، وجاء الدور على ابنها الآن ليكرر الفعلة فيما يبدو. تخرج مفتاحها وتحاول إدخاله في القفل. يستجيب القفل تلقائيًّا بدافع العادة، ويفتح الباب. على الرغم من أن قدمها تعرف إلى أين تخطو، ويدها تعرف أين تجد مفتاح الإنارة، فإن العالم قد تغير بلا أمل في رجعة. ما لم تحل بعض المعجزات على أرض المكان، فلن يمكنها أن تسميه منزلها مرة أخرى. فقط عندما قررت أن تضع بعض البسكويت في المطبخ للقطتين تتذكر «الأميرة بيكلز»، حيوان جوليان الأليف.

لم تتذكر حيوان اليربوع الذي اعتاد جوليان تربيته ولا مرة خلال الأيام العشرة الأخيرة، ناهيك بإطعامه. لا بد أنه هناك في غرفة نوم جوليان، وربما مات. حصل جوليان على يربوعه في عيد ميلاده الحادي عشر، ولطالما اشمأزَّت إيما من فكرة تربيته إياه. ناهيك بالطريقة التي وصل بها إليه – كهدية من جينيفر– يربوعًا محبوسًا في قفصه. اليربوع والقفص، لا يمكن أن يكون لديك واحد دون الآخر. خرجت إيما حينها من فورها واشترت منزلًا

t.me/yasmeenbook

بلاستيكيًّا لطيفًا مُحاطًا ببعض الأنابيب الملونة والشفافة تربطه بالقفص. اشترت أيضًا عجلة دوارة، ورملًا معطرًا ليتمكن اليربوع من تنظيف نفسه، ولكن كل ما فعلته لم يغير من الأمر شيئًا.

في كل مرة تقرر إيما وجوليان تنظيف القفص، يعيدان حينها ترتيب الأنابيب، وبمجرد انتهائهما من المهمة، ينقر اليربوع على إحداها فقط، لتكتشف إيما أن تلك الحركة تصنع له طريقًا إلى داخل القفص الأصلي. على الرغم من محاولات اليربوع الهرب مَرَّات ومَرَّات من قبل، حتى إنه أُنقِذَ من قبل من فم القط بلو قبل أن يلتهمه، فإن اليربوع قد واجه كل هذا مستمرًّا في العيش في غرفة جوليان أربع سنوات. لم تدخل إيما إلى غرفة جوليان ولا مرة منذ حادثة سقوطه.

في اليوم الأول، تطوعت جينيفر للذهاب إلى غرفته لإحضار بعض البيجامات ومجموعة من ملابسه الأخرى. في تلك الأيام، كانت جين ما تزال مصرّة على أن الأمر لن يستغرق سوى يوم أو يومين على الأكثر قبل أن يستعيد جوليان وعيه ويصبح في حالة جيدة تسمح بعودته إلى المنزل. ولكن خلال الأيام التي تلت ذلك، تمكنت إيما بالكاد من صعود الدرج والعبور أمام الغرفة، ناهيك بدخولها. كانت تعيش منذ ذلك الحين في الاستوديو الخاص بها، الذي يحتوي على سرير صغير ودش ومطبخ. استوديو صغير يمكن استخدامه حين الحاجة غرفةً للضيوف. أما الآن، فأمر اليربوع يُصِرُّ على التداعي إلى عقلها. كيف أمكنها أن تكون قاسية لدرجة أن تنساه؟ ماذا سيقول جوليان إذا عاد إلى المنزل ليجد الأميرة بيكلز قد ماتت؟ كان ينبغي لإيما أن تدير الأمور بشكل أفضل في غيابه. المشكلة أنها تخشى أن يستمر غيابه ذاك إلى الأبد، وفي هذه الحالة لن يكون هناك جدوى من محاولة إعادة الحياة إلى المكان. عندما دخلت إيما إلى الغرفة، وجدت أن وعاء الماء ملآن بقطع صغيرة من نشارة الخشب، وقشور بذور عباد الشمس، وأن الأنابيب الملونة ملتصقة بالبراز الغارق في البول.

يشيع في القفص جو من الإرهاق، إحساسٌ بمجهود بُذِلَ في تَعَقُّبِ كل بذرة وكسرها، وكل قطعة من الورق وتمزيقها على أمل الحصول على ما يسد الرمق. عندما تنقر إيما على القفص، تتسلق الأميرة بيكلز من نافذة منزلها

t.me/yasmeenbook

البلاستيكي وتطلُّ بعينين واسعتين، وفِراؤها أملس مثل ثعالب الماء. يشم اليربوع طريقه إلى راحة إيما ليلتقط حبة الفول السوداني التي وضعتها إيما على كَفِّها. بينما كانت الأميرة بيكلز تقرقش حبة الفول، جلست إيما على سرير جوليان تستطلع الغرفة كأنها المرة الأولى: لوحة متحركة خشبية على هيئة سمكة بلون أصفر وفضّي، ولوحة بألوان مائية تصوّر المنارة، والمكتب حيث كتبه مُكَدَّسَة بدقة، وفوقها قطعة من الرخام المتبلور، وصدفة وردية وقلم حبر بلا غطاء. تبدو الغرفة كما لو أنها قطعة من أعماق البحر. الجدران بلون الطباشير الأزرق الباهت، وغطاء اللحاف مُزَركَش مخطط باللون الأبيض، والسجادة على الأرض ذات لون نيلي، بينما تسطع الستائر بلون الشفق. ومع ذلك، بفضل الأميرة بيكلز، تبدو رائحة الغرفة مثل الإسطبل؛ لا يوجد مكان في الهواء من حولها تستطيع فيه إيما تحسس أي أثر لابنها.

تحمل القفص ذا الرائحة الكريهة إلى الاستوديو، الواقع داخل الحديقة ذات الشرفات فوق سطح المنزل. لون السماء برتقالي قذر، سيصير بُنِّيًّا بعد قليل، بينما تحاول طائرة ما شق طريقها نحو نجمة وحيدة في السماء. في مواجهة الاستوديو يقع تَلٌّ داكن بلون الكدمة يتماشى لونه مع الضواحي من حوله، ولكن إيما لا تنتبه إلا إلى القليل مما حولها بينما تنزلق عبر الباب الزجاجي إلى الداخل تتحسس مفتاح الإضاءة.

الاستوديو هو غرفة اعتادت استخدامها وحدها، غرفة فارغة وعملية، ومطلية كل نواحيها باللون الأبيض. الشيء الوحيد الذي طالما أحبته في الاستوديو أنه هو الغرفة الوحيدة في المنزل التي لا تحمل أي أثر لزوج أو طفل. هنا يمكنها أن تستأنف حياتها في صورة أقدم عن نفسها؛ طالبة الفنون الشابة التي اعتادت السير في طريق تشارينج كروس مع ردائها الملطخ بالطلاء حافية القدمين. في تلك الأيام كانت لا تزال تشعر بالوحشية والحرية، وكانت قوتها بلا حدود. كَرَّسَت إيما كل أيامها حينها لكونها فنانة، وفَكَّرت أنه ليس هناك أبدًا ما يمكنه أن يعترض طريقها. ستتجنب كل الفخاخ المتعلقة بفكرة الزوج أو الأطفال، الرهن العقاري والتأمين على الحياة. فَكَّرَت أنها ستترك بعد وفاتها سلسلة حية من الصور، تكاد تتنفس حتى إنها ستقاوم

t.me/yasmeenbook

عنصر الزمن حتى بعد اكتشافها. تضع اليربوع والقفص على طاولة المطبخ الرخامية السوداء.

عادت الأميرة بيكلز إلى منزلها البلاستيكي، تتنفس هواءً نقيًّا محاطة ببعض قطع الصوف النظيفة. قبل عشرة أيام، عادت إيما إلى كتل الطمي المتشقق الواقفة في شموخ فوق قواعدها، منتشرة عبر الغرفة، ملفوفة كالمومياوات في قماش من الموسلين المبلل؛ الأمر الذي منح الغرفة رائحة الكهوف ذات الرائحة المكتومة. قبل عشرة أيام، خلعت القماش عن إحداها ومارست العمل عليها بيديها بالفعل، مستسلمة لإرادتها في التجاوز. ولكنها لم تعد الشخص المناسب لهذه الوظيفة، أو لأي وظيفة. لا تصلح هي الآن سوى للجلوس في المنزل بينما يرقد ولدها الجميل في المطهر[1]، في انتظار رَفَّة ما من فراشة ما تقرر مصيره.

- إيما؟

تبتعد عن القفص لتجد جينيفر عند الأبواب الزجاجية، تقف برشاقة في معطفها الأخضر الزيتوني.

- عندما وصلنا إلى المستشفى قالوا إنكِ غَادَرتِ بالفعل.

- نعم، فعلًا.

تتقدم أختها نحوها، بينما تقف إيما بلا حراك حتى تحتضنها الأخت. دائمًا ما تكون أحضان جينيفر مُلِحَّةً جدًّا ومدروسة حركاتها لدرجة توصل إليها الشعور العاطفي بالفعل. ولكن إيما ممتنة اليوم لعدم اهتمامها بالفعل بأي من أمور العاطفة تلك.

- سيبقى أندرو في المستشفى؛ في حال وجود أي تطورات.

- شكرًا لكِ، أقدر لك إخباري.

استطاعت جينيفر تقبل الحادث والتعامل معه بالفعل. تتذكر إيما أن أختها لديها موهبة تحويل كل غرفة تدخلها إلى مكان عملي وجاد تمامًا.

---

(1) هو مكان تذهب إليه أنفس الخَطَأة المؤمنين الذين لم يتوبوا توبة كاملة من كل خطاياهم في خطة لتطهير أنفسهم قبل الذهاب إلى الجنة/الملكوت في المسيحية، وتقصد المؤلفة رقود الطفل بين الحياة والموت.

t.me/yasmeenbook

حتى عندما كانتا طفلتين، لعبت الأختان غير الشقيقتين اللعبة نفسها. كانت جينيفر المعلمة المسؤولة، ولقد بدأت بتوجيه إيما نحو عالم الحروف والأرقام والحقائق قبل وقت طويل من استعداد إيما العمري لاستقبال ذاك. ولكن إيما ظلت تلميذة مخيبة للآمال. كان من السهل جدًّا أن يتشتت انتباهها، مهتمة جدًّا بأفكارها الخاصة. لم تكن قط مستمعة جيدة. لقد كانت تلك واحدة من عيوبها العديدة كأم، التي تراها الآن بوضوح، بعد أن فات الأوان لفعل أي شيء حيال ذلك.

تسأل جينيفر: «كيف رأيتِ حاله اليوم؟»

- على حاله فيما أظن، أو ربما أسوأ.

- الممرض نفسه في الخدمة الليلة.

تحب جينيفر أن توصل إلى الناس قدر تفتحها الذهني، عرض أجادت تقديمه بكفاءة، حتى إن أحدًا قط لم ينتقدها.

تواصل جينيفر عرضها: «إنه ذاك الشخص ذو الضفائر. وقد اتضح أنه مسيحي الديانة أيضًا. أرادَنا أن نصلي معًا. قال حتى الآلات تعتبر صنيعة الإله».

- وهل فعلتِ؟

- ماذا تقصدين؟

كانت جينيفر تبحث حولها عن المكان الذي تحتفظ فيه إيما بالنبيذ.

- هل صليتما معًا؟

- بالتأكيد فعلنا.

لطالما استطاعت الأختان دائمًا ملء الغرفة بالحديث بينما تسير أفكارهما الحقيقية –أو ربما قلباهما– في مكان آخر. عادة ما يسبب ذلك ارتياحًا لإيما؛ عدم القلق بشأن ما يُقال أو لا يُقال، الارتياح العام حول انتفاء ضرورة أن يكون كل شيء واضحًا ومفهومًا.

- منذ متى تؤمنين بالإله؟

- الممرض هو المؤمن.

t.me/yasmeenbook

في ذلك الوقت بدا الردُّ كافيًا. عندما كانتا لا تزالان تعيشان معًا، وفي أثناء نشأتهما معًا، كانت جينيفر هي التي تخاطب الكبار بهدف الحصول على ما تريد. كانت إيما تكتفي بكل ما لا يمكن لأختها الكبرى فعله. فقط عندما ولد جوليان بدا أن شيئًا ما أخيرًا قد بدأ يهدأ داخل جينيفر. كان إنجاب طفل هو الشيء الوحيد الذي لم تستطع تحقيقه، وحاولت أن تتكيف أكثر مع رغبة إيما في الاقتراب من الطفل، الذي أدار وجهه نحو نظرة جينيفر كما يفعل عباد الشمس نحو الشمس. رأت إيما في الأمومة أمرًا مرعبًا ومرهقًا، خاصة في تلك السنوات الأولى، عندما صارت تمضي كل لحظة مع طفلها، واضطرت إلى التخلي عن فنها. أصبحت أكثر من ممتنة عندما تمكنت من تسليم طفلها إلى جين. في الواقع، عندما كان جوليان يبلغ من العمر أكثر من عامين بقليل، سافرت إلى جنوب فرنسا بهدف الإقامة هناك عامين، تاركة طفلها مع أختها، التي أكدت لها أنها ستكون أمًّا ثانية للصبي.

كانت الخطة أن ينضم إليها جينيفر وجوليان بعد ثلاثة أسابيع، بمجرد أن تستقر إيما وتعود إلى العمل، ولكن جوليان مرض، ونصح الطبيب بعدم السفر بالطائرة. قالت جينيفر إن جوليان كان سعيدًا تمامًا حيث هو، وسيكون من الأفضل إبقاؤه في محيط مألوف. سمحت إيما لهذا أن يحدث لأن مسيرة فنها كانت تتطور تطوُّرًا جيِّدًا ومدهشًا. فتحت تجربة الولادة آفاقًا جديدة تمامًا في حياتها الإبداعية على ما يبدو. بحلول الوقت الذي عادت فيه، كان جوليان قد صار ابنًا لشَخصٍ آخر. كلما حملت الصبي في أيام عودتها الأولى بدأ على الفور في البكاء. لا تزال إيما تتذكر مظهر الانتصار الهادئ على وجه جينيفر عندما أعادت إليها الصبي الباكي. في مقابل ما منحها إياه الطفل، بدأت جينيفر تدريجيًّا تسامح أختها على خطأ كونها أجمل وأكثر موهبة، وعلى كونها الابنة المُفَضَّلة لوالدهما. لهذا السبب طلبت إيما من جينيفر أن تكون عَرَّابَة لجوليان في المقام الأول، على الرغم من كونها خالته بالفعل.

ومع ذلك، فهذه هي المرة الأولى التي تتذكر فيها إيما ذكر جينيفر فكرة وجود إله. تقول إيما إن ذقنه قد ارتجف اليوم. سألت الطبيب ماذا يعني ذلك. هل كان يتألم؟ أم خائفًا؟ هل كان يبكي في نومه؟ قال الطبيب إنه يشك في ذلك. «يشك في ذلك». كما لو أنه لا يعرف حَقًّا ما الذي يتحدث عنه.

t.me/yasmeenbook

اكتشفت جينيفر مكان النبيذ، وبدأت تخرج زجاجة جيدة من نوع بينوت نوير. تعرف إيما أنها زجاجة جيدة لأن جينيفر اشترتها بنفسها. ليست كهدية تشربها إيما –لأنها تفضل عادةً الويسكي الأيرلندي مع قطعة أو اثنتين من الثلج– ولكن حتى تتمكن جينيفر نفسها من شرب النبيذ اللائق في أثناء زياراتها. كان من النادر اجتماعهما أبدًا في الاستوديو، وإنما اعتادتا الجلوس في الحديقة بجانب بركة السمك القديمة، محاطتين بشجيرات إكليل الجبل والورود، وصوت الضفادع من حين إلى آخر. تنفخ جينيفر الغبار عن سطح كوبين وتسكب النبيذ، له اللون البني المحمر نفسه مثل الدم المخفف في القطرات الواصلة إلى وريد جوليان. كالعادة تضمن جينيفر أن الكأس الأقرب إليها هي تلك الملآنة أكثر.

تسأل جينيفر راغبة في أن تخفي لهفتها للشراب: «هل أكلتِ أي شيء اليوم؟»

- أعطاني جوناثان فطيرة لحم على الغداء.

وصل زوج إيما السابق من دبي قبل أسبوع، ولكن إيما بالكاد كانت قادرة على النظر إليه. لحسن الحظ، لم يستطع جوناثان البقاء في المستشفى فترة طويلة. كان لديه رهاب هذه الأماكن منذ وفاة أمه بمرض الكبد عندما كان صبيًّا. لطالما كانت إيما تشك في أن هذا هو السبب في حرصه على عدم وجوده في المستشفى إبان ولادة جوليان.

- فطيرة واحدة من اللحم بالكاد تكفي. هَلَّا سمحتِ لي بطهو بعض البيض من أجلك؟

- لا، شكرًا.

- عندما أرحل، حاولي على الأقل الحصول على قسط من الراحة. سوف أتصل بكِ إذا كانت هناك أي أخبار.

- لا أستطيع النزول إلى البيت.

- لماذا؟

تنظر إيما عبر قفص اليربوع وتقرر ألا تجيب. تميل إلى الانسحاب مبكرًا من المحادثات المثيرة للجدل مع أختها. لقد عرفت منذ أن تعلمت التحدث

t.me/yasmeenbook

لأول مرة أنها لن تفوز أبدًا في حديثها مع جينيفر. لطالما أجادت جينيفر اللعب بالكلمات كأمهر فناني السيرك، تومض الكلمات بين يديها كالسكاكين، ولا تخطئ هدفها أبدًا.

تجيب: «أشعر بالراحة أكثر ها هنا على السرير الصغير».

كلتاهما تعرف أن إيما تقول هذا فقط لتهدئة أختها. بمجرد رحيل جينيفر، ستمارس حريتها في فعل ما يبدو لها، كعادتها.

تقول جينيفر: «عاد يبدو كطفل صغير مرة أخرى؛ لقد قد قَصُّوا شعره بالكامل».

تقول إيما: «لم تعجبني زاوية قدمه اليمنى، الطريقة التي تلتوي بها، يبدو أشبه بأولئك المتسولين عند إشارات المرور».

تنظر جينيفر إليها باهتمام وتقول: «أنا واثقة أنه كان راقدًا بطريقة طبيعية».

- يبدو الأمر كما لو كان هناك ألم يسحبه عميقًا في مكان ما بداخله. يبدو الأمر كما لو أن جزءًا منه يعرف بالفعل أنه يحتضر.

عندما سقط جوليان، كسر ساقيه. وقد تَحَمَّلت ساقه اليسرى معظم الأذى في عدة أماكن من أثر السقطة، وتَغَطَّت بالكامل بالجبس. تَعَرَّضَت الساق الأخرى لكسر، وقد لُفَّت بضمادات من الأسفل، تمامًا عند القدم والكاحل. بغض النظر عن الأذى الذي طال رأسه، تُعَدُّ تلك تقريبًا هي الإصابات الوحيدة التي يبدو أن جوليان تعرض لها. إلا إن إصابة رأسه هي الأهم حاليًّا. يقوم الأطباء بتصريف السائل من دماغه على أمل تقليل التورم وعودة الدماغ إلى حالته الطبيعية. ومع هذا، من المستحيل التأكد من مدى تلف الدماغ.

- إيما، لم يصل الأمر إلى ذلك الحد.

بعد أن غادرت إيما الجناح بعد ظهر ذلك اليوم، استَقَلَّت المصعد حتى الكافيتريا، لم تكن تثق بعد في قدرتها على قيادة سيارتها حتى المنزل. شربت بعض القهوة دون أن تُحِسَّ لها طعمًا، جالسة تحت المظلة المخططة بالأحمر والأبيض بالخارج. هَبَّت الرياح، وصارت الحبال تتخبط على أعمدة

t.me/yasmeenbook

المظلَّات. كانت تجلس هناك بمفردها، باستثناء امرأة عجوز لم تستطع التحرك إلا بمساعدة العصا.

بدت العجوز في ردائها البني المنفوش ونعلها المصنوع من جلد الغنم أشبه بحيوان جوليان الأليف. كان شعرها رماديًّا ومُقَصَّفًا ويحتاج إلى الغسل. بدت وحيدة تمامًا في العالم بينما تشق طريقها وصولًا إلى قطعة كبيرة من كعكة الجزر. وبيدها المرتجفة، تناولت كوب الشاي. بينما استمر عقل إيما وحباله في الالتفاف حول مركز ذاكرتها، فكرت إيما في الإجازات العائلية التي اعتادتها ذات مرة عندما كان لا يزال لديها أب. فكرت في عالم مثالي، حيث ما يزال هناك ما يسمَّى العطلات العائلية، وتساءلت إن كانت عودتها يومًا أمرًا واردًا. لطالما أحبت جين التصريح بأن تلك العطلات مع والدهما لم تكن رائعة بهذا القدر الذي تتصوره إيما.

تضمن جدول الرحلات بعض المحميات، وإجازات قليلة في القارة الأوروبية، ولكن المكان الذي اعتادوا الذهاب إليه كل عام بقرب عيد الميلاد كان فندقًا في آمهالانجا روكس. كان والدا إيما يقيمان عادةً في إحدى الغرف في الحديقة الخلفية، التي كانت أقل تكلفة وأكثر هدوءًا من حياة الفندق. ادعت جينيفر أنها المرة الأولى التي أطعم فيها والدها إيما محارًا طازجًا. كان ذلك في شرفة هذا الفندق، على طاولة تحت إحدى تلك المظلات المتناثرة. طبقًا للحكاية، عندما امتعضت إيما وبصقت المحار، صرخ والدها في وجهها؛ ليس بسبب سلوكها السيئ بقدر ما ظَنَّه هو إهدارًا للمحار الطازج المنتشل حديثًا من فوق تلك الصخور على مد البصر. قالت جين إن أباهما ظَلَّ في مزاج سيئ طوال تلك العطلة؛ شتم البحر، والطقس، وطاقم الفندق، كما لو كان العالم كله يتآمر ضده. كانت تلك إجازتهم الأخيرة معًا كعائلة.

في غضون ستة أسابيع، مات والدهما. ولكن إيما لا تتذكر غضب والدها، في تلك العطلة أو حتى قبل ذلك، هي فقط تتذكر حُبَّه. كان رد جينيفر على اعتراض إيما على الحكاية أن أباهما مات عندما كانت إيما أصغر من أن تدرك شخصيته على حقيقتها.

قالت إيما: «لطالما عامَلتِني بكل لطف يا جين. لا أعتقد أنني قد شكرتك يومًا بما فيه الكفاية».

t.me/yasmeenbook

تومئ جينيفر برأسها وتبتلع المزيد من النبيذ. دائمًا ما تستهلك نبيذًا أكثر عندما لا يكون أندرو بالجوار.

- لا أعرف ماذا كنت سأفعل دونك في الأيام الماضية. لم يكن بإمكاني تمني أخت أفضل منك، ولا كان لجوليان أن يتمنى خالة أفضل.
- أنتِ تعرفين أنني أحببته دائمًا وسأظل.
- أعرف، شكرًا لكِ.

ما لا تستطيع إيما إخبار أختها به هو أن كل ما حدث كان خطأها. خاضت هي وجوليان جدالًا رهيبًا قبل سقوطه، وقد نَعَتَها في آخره بصفات لم تصدق أن إهانة كتلك يمكن أن تخرج من لسانه نحوها. ولا يمكنها أن تخبر جينيفر بفحوى الجدل الذي صار؛ ذاك أنه وبالتأكيد سينهي ما تبقى من علاقتها بأختها إلى الأبد. استبدلت بكل ذلك تكرارها جملة وحيدة: «لقد خذلته».

تقول جينيفر بينما تَصَبُّ لنفسها مزيدًا من النبيذ: «لقد بَذَلتِ كل ما يمكنك من أجله».

- ولكنه لم يكن كافيًا، أليس كذلك؟

t.me/yasmeenbook

الفصل الثالث

حذاءٌ بكَعبٍ عالٍ ذو لونٍ أحمر قانٍ

أندرو - جوهانسبرج

- هل رأيت فردة حذائي الأخرى؟

تقف جينيفر على باب المكتب، مرتدية فستانًا فضيًّا بسَحَّاب مفتوح، وتحمل حذاءً أحمر فاتحًا بكَعبٍ عالٍ، وتبدو وكأنها تستعد لسحق حشرة به. هي تعرف كم يكره أندرو عندما تدخل إلى مكتبه دون سابق إنذار بهذه الطريقة، كما لو أن عمله ليس بالأهمية التي تمنعها من مقاطعته.

- لا أظن أنني رأيتها.

لا تزال جينيفر تتمتع بذاك الجسد الذي كانت تملكه عندما التقيا أول مرة؛ الطالبة التي لفتت انتباهه أول مرة بما بدت عليه من ضعف ومسالمة. توقف أندرو منذ سنوات عن إعجابه بجاذبيتها. هل هو عجزه عن تحديد مكان الشابة الضعيفة الذي رسمته في المقام الأول؟ أم إنه أدرك فقط أن الفتاة التي أغوته لأول مرة لم تكن موجودة قط؟ هو يعرف أن أشياء مثل الحب والجاذبية يمكن أن تكون أحيانًا مسألة وجهة نظر، وتخضع لقدرتك على رؤية شخص ما بمنظور مناسب صحيح، ولكنه يعلم أيضًا أنك إن فقدت الرغبة في أن تراه جذابًا فالأمر نهائي ومستحيل.

- لا أعلم أين تركتها.

t.me/yasmeenbook

تمشي أعمق داخل الغرفة، بنظرة ثاقبة كهليكوبتر مستطلعة المشهد. تبحث في أمر الحدث غير المحتمل بالمرَّة؛ أن يكون حذاؤها قد هبط على كرسيه ذي الذراعين، أو على أريكة مَرضَاه. تحب هي السخرية من مكتبه في كل فرصة؛ الأثاث الجلدي، سجاد الكليم، أرفف الكتب الأنيقة مع طبعاتها الأولى المحفوظة داخل مكتبته الزجاجية، والأغراض المرتبة على طول رف الموقد. زارا متحف فرويد في هامبستيد ذات مرة، وذهلت جينيفر بعدها من قدرة أندرو على تصميم مكتبه وفقًا لمكتب فرويد، على الرغم من أن أندرو كان مجرد «معالج نفسي تحليلي» وليس محللًا نفسيًّا محترفًا كفرويد. تتطلع إلى الأريكة بنظرتها المعتادة وكأنها امرأة رقدت تغازل زوجها فترة طويلة، وقد بدأت في التدلل وإفساد الوسائد باهظة الثمن. في تلك الأيام، توصلت إلى الاعتقاد بأن أمر العلاج النفسي برمته منحرف ونرجسي، وقد أحبت أن تشير في كل فرصة ممكنة إلى أن «المعالج النفسي» لا يبتعد سوى خطوتين صغيرتين فقط عن «المغتصب النفسي».

يسأل أندرو سامحًا لغضبه بالظهور: «إن كُنتِ لا تعرفين أين تَرَكتِها، فكيف تتوقعين مني أن أعرف؟»

- لقد أهدَيتَني هذا الحذاء العام الماضي في عيد ميلادي، وأنا مغرمة به للغاية.

- حسنًا، بمعدل بحثك هذا عنها، سنتأخر بالتأكيد عن حفلة المدرسة. إنها ليلة افتتاح مسرحية جوليان «الملك وآنا».

يلعب جوليان دور العاشق لون ثا، الذي يتضمن دوره غناء أغنيتين من أصعب ما يكون، هذا قبل أن تموت الشخصية في الكواليس.

يسأل أندرو بلا حماس: «هل تريدين مني البحث عنه؟»

- لا، أريدك أن ترفع سحابي إلى أعلى.

منذ وقت ليس ببعيد، كان جوليان طفلًا لطيفًا تقليديًّا، بعينَين غير غامضتَين. اعتادت أمه أن تشتري له كرة كريكيت جديدة في كل موسم عليها رسم طائر الكوكابورا الذهبي، وكان يلعب في جناح فريق B، ويظهر بشكل جيد في حفلات المدرسة، وكان معروفًا بقدرته على الجري مسافات طويلة. كانت درجاته عادةً أعلى من المتوسط، ولكنه لم يصل قط إلى صف

t.me/yasmeenbook

المتفوقين، وامتلك موهبة الرسم، التي ورثها عن أمه بشكل أساسي. اهتم جوليان أيضًا فترة ما بالكتابة الإبداعية، وما زال أندرو يتذكر أول مقال قرأه للصبي الصغير، والذي كان يتحدث عن صقر يهاجم بطة، وقد حملها على ظهره بعد اصطيادها، وكانت ثقيلة جدًّا فوق قدرته على حملها. عندما لم يتمكن الصقر من التحرر من حِملِها، سقط كلاهما بلا إرادة سريعًا نحو منحدر الجبل أسفلهما. غير إن جوليان وكتاباته قد اتخذا منحًى مختلفًا في السنوات القليلة الماضية. كانت جينيفر –التي شجعت جوليان دائمًا على الكتابة– جالسة في غرفة الاجتماع بالمدرسة عندما تم تنبيهها إلى التطور الذي حدث. على ما يبدو، كتب جوليان قصة عن صبي وفتاة يسبحان في عرض البحر. عندما يسحب التيار الفتاة إلى داخل البحر، لا يفعل الصبي شيئًا لإنقاذها، ولا حتى يفكر في طلب المساعدة، بل يبقى في مكانه مراقبًا إياها من بعيد حتى تختفي بين الأمواج. فيما بعد، أثارت آخر قصصه بعض القلق لدى مُدَرِّسيه؛ تلك القصة التي دارت حول صبي يتسبب في حرق منزل عائلته، بينما يظلُّ هو نفسه مُحاصَرًا داخل المنزل. في القصة، كانت والدة الصبي قد تُوفِّيَت مؤخرًا بسبب السرطان، وخرج والده إلى موعد مع امرأة أخرى. حَثَّت القصة مدرسة اللغة الإنجليزية السيدة فيش على التحدث إلى جينيفر.

تحدثت جينيفر إلى إيما قبل أن يقررا إحضار الصبي للتحدُّث إلى أندرو، بصفته زوج خالته أكثر من صفته معالجًا نفسيًّا. ولكن هذا اللقاء –الذي حدث في وقت ما من بعد ظهر ذلك اليوم– كان كارثة بكل المقاييس مهما كانت الزاوية التي ستقرر بها النظر إلى الأمر.

يقول بينما ينساب جسدها الأنيق بعيدًا من تحت يديه في فستانها الفِضِّي: لا تزالين تملكين الجسد ذاته منذ ذلك اليوم حين التقينا، هل تعلمين هذا؟

- لَستُ واثقة من هذا الأمر، ولكن شكرًا لك.

بدت سعيدة بالإطراء.

الآن بعد أن انتهت مشكلة سَحَّاب فستانها، عادت جينيفر إلى وسط الغرفة، وقد بدأت تتحرك كما شخص يجرّب فستانًا جديدًا في متجر قبل قرار شرائه.

- كنت أفكر أننا في حاجة إلى عطلة.

t.me/yasmeenbook

تُشِعُّ من عينيها نظرة ما تزعجه هذا المساء كثيرًا. كان يرغب في معرفة ما حدث بين زوجته وجوليان بعد محادثة ظهر ذلك اليوم. كان الاثنان متكتمين للغاية كلِصَّين يُدَبِّران أمرًا. لقد كانت تلك عادتهما دائمًا. يخشى أندرو أن يكون جوليان قد وجد لحظة لينفرد بجينيفر في المنزل قبل وصول إيما لاصطحابه. ربما أخبر جينيفر بكل شيء.

تُكمِلُ جينيفر: «على الرغم من أني أعرف كم تكره العطلات».

- ما الذي يجعلك تظنين ذلك؟

- في غضون أيام تصير عابسًا، وينتهي بك الأمر مختبئًا داخل كتاب.

- أليست تلك هي عاداتك أنتِ في السفر؟

بدلًا عن الإجابة عن سؤاله الأخير، عادت جينيفر للبحث مجددًا عن فردة حذائها المفقودة.

- على الأقل ما يزال يمكننا زيارة مورافيا في أي وقت.

قالتها وكأنها تقصد إغاظته.

قضى الاثنان شهر العسل في مسقط رأس فرويد. أُقيم حفل زفافهما في مكتب التسجيل في لندن، حيث كان أندرو يكمل رسالة الدكتوراه، وكانت جينيفر تدرس اللغة الإنجليزية بداية من المستوى الأول في محاولة لكتابة رواية تشكو فيها طفولتها الصعبة.

كان الزوجان يقيمان مع إيما وبعض أصدقائها من طلاب الفنون في مزرعة في تشاك[1] ، وقد اقترح الجَمع على العروسين الجديدين الذهاب إلى مورافيا، حيث يمكن لأندرو إكمال بحثه، إضافة إلى ضمان نزهة لطيفة. فكرة لطيفة لـ «ضرب عصفورين بحجر واحد». ولكن المطر بدأ في الهطول منذ لحظة وصولهما إلى البلدة، وبعد ليلتهما الأولى أصيبت جينيفر بعدوى في المثانة أدت إلى إفساد بقية الرحلة كُلِّيًا. بينما كان أندرو يجلس في غرفتهما الرخيصة بالفندق لينتهي من تحليله الرجل الذئب وحلمه بشجرة ملآنة بالذئاب البيضاء، كانت جينيفر جالسة تبكي بصمت في الحمام وقد اختلط بولها بالدماء.

---

(1) مدينة في شرق إنجلترا.

t.me/yasmeenbook

- مورافيا كانت فكرتك بالمناسبة، وليست فكرتي.
- في الواقع كانت فكرتك، ولكنك كنت ذكيًّا بما يكفي لتجعلني أصل إليها وأتصور أنها من بنات أفكاري.

لطالما أصَرَّت جينيفر كثيرًا على إيضاح هذه النقطة، وكان عيبها الوحيد في رأيه أنها كانت على حق.

أضافت جينيفر: «كنت أحبك، وعلى استعداد لمرافقتك إلى أي مكان».

تحب جينيفر دائمًا أن تتعمد إيضاح أزمتها واستخدامها في الجدال.

- ماذا إذن عن الذهاب إلى آمهالانجا روكس؟
- ستكون الرحلة إلى هناك باهظة التكاليف ومملة. كلانا يعرف ذلك. كنت أفكر في مكان أكثر روحانية بشكل ما. ربما سيشل؟
- ما دام لن يتوقع أحدٌ مني أن أمارس الغطس بأي شكل.
- لن يتوقع أحد منك أن تكون ممتعًا ومسلِّيًا إلى هذا الحد.
- ومرضاي؟
- استمتع وتسلَّ إذن بمضاجعتهم. اللعنة عليهم.

اعتادت أن تقول تلك الجملة، ودائمًا بالتأثير نفسه. لطالما أرادت أن يضاجع أندرو إحدى مرضاه، أملًا في أن يفقد حينها نزعته الأخلاقية التي حافظ عليها طويلًا. كانت جينيفر على طول عشرتهما شخصًا مريبًا ومخيفًا، ولكن في محكمة الزواج التعيس، لا يمكنك أن تفوز بحرِّيَّتك دون دليلٍ كافٍ.

تكمل جينيفر جملتها الأخيرة: «على الرغم من أننا نعلم أن هذا لن يحدث أبدًا. أنت مهتم في هذه الأيام بالتحدث عن الجنس أكثر من اهتمامك به في الواقع».

- هل لدينا حقًّا وقت لهذه المعركة بالذات؟ ستفوتنا مسرحية جوليان.
- هل تبدو لك تلك حقًّا معركة؟

يقول أندرو عالمًا بأنه يسحب الحوار إلى أخطر منطقة في علاقتهما: «لا أظنك تأخذين أي أمر بتلك الجدية أبدًا». مع ذلك، لا يجد نفسه قادرًا على إيقاف نفسه.

t.me/yasmeenbook

- لطالما امتلكت القدرة على قول الأشياء غير المعقولة بأكثر الطرق منطقية. كان يجب أن تتزوج إيما بدلًا عني.
- ما علاقة إيما بأي مما نتحدث عنه الآن؟
- أظنها أقدر مني على إشاعة البهجة في المكان.

إن كانت جينيفر تشعر بالغيرة من استمتاع أندرو مؤخرًا ببعض مساحات صغيرة من الحرية، حقيقة كانت أو خيالية، فإن مصدر التهديد الأكبر لطالما أتى من مساحات الحرية الهائلة التي امتلكتها إيما. استطاعت إيما أن تصبح فنانةً وأمًّا، بينما فشلت جينيفر في كليهما. حتى إن إيما حصلت أخيرًا على الطلاق من زوجها. وعلى الرغم من أن رواية الأمر ونقله إلى بقية العالم من حولهم يتعلق بكون جوناثان قد تخلى عن إيما من أجل امرأة أصغر سنًّا، فإن جينيفر قد اعتادت التعبير عن الأمر دائمًا بأن جُلَّ ما فعله جوناثان كان الابتعاد عن امرأة قد هجرته طويلًا. صَرَّحت جينيفر طوال الوقت بأن الأولوية الأولى لإيما كانت فنها؛ تلك المخلوقات الأسطورية الغريبة التي تبدو لها أكثر أهمية من البشر الواقفين في مواجهتها لَحمًا ودمًا، وقد وَرَّثَت إيما بعضًا من بقايا فَنِّها ابنَها. وكان ذلك يحدث بشكل مكثف فقط حينما تكون إيما في إجازة ما بين العروض، أو الأفكار الجديدة التي تراودها دائمًا، أما حينما تكون قد بدأت بالفعل الانخراط في مشروع فَنِّيٍّ جديد، فتنسى ابنها ذاته حتمًا. استطاعت إيما أن تستمتع بكل ما يجري في حياتها على هذا النحو، لأنها عرفت أن جينيفر ستكون موجودة دائمًا، تنتظر في غرفتها الفندقية، وعلى استعداد لرعاية جوليان عند الضرورة.

ربما كانت جينيفر ستستاء من هذا الوضع، فقط لو أنها لم ترغب في القيام بهذا الدور بشدة، فكل ما استطاعت فعله حقًّا هو تشجيع إيما دائمًا على المضي قدمًا لتفقد نفسها أسابيع، أو حتى أشهُرًا في فنها.

«أنا هنا لحماية الحِصن»، هكذا أخبرت أختها دائمًا.

في حين لم يكن ذاك الحِصن منزلًا يحتاج إلى الدفاع عنه، بل فتى صغيرًا، ثم صبيًّا. حظيت إيما بنجاحٍ ماليٍّ متزايد، منذ أن انتقلت لوحاتها إلى معرض جرانت سماتس قبل بضع سنوات. كان هذا بالطبع السبب في قدرتها على تحمل تكاليف إجازة مدة عشرة أيام في الفنادق الفاخرة، والإصرار على

t.me/yasmeenbook

الدفع عن الجميع. هذا هو النجاح بعينه، أو هكذا يبدو لأندرو. إلا إنه قط لم يلقَ استحسانًا من جينيفر. كانت سعيدة أن أختها قد صارت مهووسة بفنها بحيث فقدت كل رابطٍ فعليٍّ مع ابنها، ولكن هذا لا يعني أنها أرادت أن تنجح أختها فعليًّا. كان الرابط الخاص الذي يجمع أندرو بإيما على قائمة الأمور التي تثير غيرة جينيفر، هذا الرابط الذي ملك زاوية ما من الحقيقة لا يمكن تجاهلها.

عرفت جينيفر دائمًا أن اهتمام أندرو بإيما أعمق مما ينبغي، وأن الاثنين كانا –بطريقة خفية– يتآمران ضدها منذ البداية. حتى بعد ظهر هذا اليوم حين جلس أندرو مع جوليان، لم تستطع أن تجد دليلًا كافيًا لإدانتهما، ولكن إن كان قد كُتِبَ لها أن تعرف ما قد جرى بين الصبي وأندرو هذا اليوم، كانت ستجد بالتأكيد ما سيفسد كل محاولاتهما لمُوارَاة الأمر بعناية.

- لم أرَ إيما من قبل تلقي أطباقًا في أي مكان مثلي في لحظة غضبها.
- لا أعرف لماذا تكرهينها إلى هذا الحد؟ ماذا فعلت لكِ؟
- من قال إنني أكرهها؟
- منذ اليوم الذي التقينا فيه وكأنك لا تجدين فيها أي شيء طيِّب لتتحدثي عنه.
- ربما ذلك لأنك لم تجد فيها أي شيء سيئ لتتحدث عنه.
- لم تمنحني أي أسباب لأكرهها.
- فقط أسبابًا لتُحِبَّها؟
- أوه، يا إلهي!

كان أندرو سيرغب جدًّا في الابتعاد عنها، والانسحاب من المحادثة برُمَّتِها، ولكنه عالق هنا في هذه الغرفة، في هذا المنزل.

- نعم، في كتابك الصغير صَوَّرتَها دائمًا على أنها نقيضي المثالي.
- لم أقل ذلك مرة واحدة.
- لم تَحتَج قط إلى قول ذلك.

t.me/yasmeenbook

التقى أندرو الشقيقتين لأول مرة عندما كان مُدَرِّسًا في قسم علم النفس في إحدى جامعات جوهانسبرج. وصلت جينيفر وإيما في منتصف أحد دروسه، وجلستا بصمت في الصف الأمامي. كانت الفتاتان جميلتين، وكلتاهما تنبض بالحيوية، يلمع على شفتيهما أحمر شفاه صارخ، وفي عيونهما بعضٌ من الغموض الممتع الذي أثار فضوله. كان الموضوع قيد المناقشة هو نظرية التحويل، وكان أندرو يحاول شرح التمييز بين الغريزة والدافع. بعد ذلك، تبعته الفتاة ذات الشعر الأشقر لسؤاله عن أمر ما، بينما وقفت الفتاة ذات المظهر القاتم –ولكن الأكثر جاذبية– في الضوء عند الباب. طلب أندرو من الفتاة أن تنضم إليه في الاستراحة حتى يتمكن من تعويض ما فاتها، واقترح عليها إحضار صديقتها.

قالت جينيفر بنبرة من يعلن عن طفل موهوب ولكنه مصدر حقيقي للمشكلات: «هي أختي إيما في الواقع. هي على وشك السفر إلى لندن لدراسة الفن».

- فعلًا؟

- هل سمعت عن سانت مارتن؟

كذب أندرو، وهو يبذل قصارى جهده ليبدو مبهورًا: «بالطبع».

تناولوا القهوة جالسين على الدرج الأسمنتي في القاعة الكهفية للكافتيريا، بينما تُفتَرَشُ الأرض برتقالية اللون بمجموعات من الطلاب، وتصطبغ تحتهم بالحروق الناتجة عن أعقاب سجائرهم. بنهاية استراحة القهوة، أصابت الفتاتان أندرو بذهولٍ تام. ضحك لذكرى ما فَسَّرَه حينها من تصرفاتهما على كونه استهتارًا، بينما يعلم الآن أن توقعاته كانت خاطئة كلِّيًّا. كان أندرو فتًى منعزلًا متأملًا. في خلال فترة شبابه، كان أبوه هو الفرد العامل، بينما كانت أمه ربة منزل، وقد عانت أبدًا صداعًا مزمنًا. في بعض الأحيان، عندما كانت أمه تشعر بأنها على غير ما يُرام، كانت تشجعه على الغياب عن المدرسة من أجل أن يبقى معها. كان ذلك حتى اتخذ أندرو قرارًا واضحًا نحو سن الرابعة عشرة بالتحرر من أسرها.

عندما رحل أبوه، تعلم أن يصبح ساخرًا ووقحًا، وبلا صبر، الأمر الذي سيصيبه الندم عليه فيما بعد. كانت أمه تصرخ في وجهه وتدعي أنه أصبح

t.me/yasmeenbook

باردًا مثل أبيه، ولكنه في ذلك الوقت شعر بأن ثوراته الصغيرة هي دليل على إرادة وليدة. بحلول الوقت الذي التقى فيه أندرو جينيفر وإيما، كانت أمه تمثل مشكلة عظيمة، وقد حان الوقت للتخلي عنها. شعر بأن الثقة الباهرة التي تمتعت بها الفتاتان وكأنها واجهة لعالم لم يكن في استطاعته الوصول إليه من قبل. في الأسابيع التي تلت ذلك، استمر الثلاثة في لقاءاتهم، وأصبح أندرو يعتقد أنه قد وقع في حب كليهما. لم يدرك أن أكثر ما أحبه في جينيفر هو ضوء إيما المنعكس عليها بالقوة، الذي نجح في إبراز أفضل ما في جينيفر؛ ذكائها البديهي، جرأتها وذكائها. نظرًا إلى أن إيما بدت الأقل إتاحة بين الاثنين –ليس فقط من الناحية المجازية، ولكن بالمعنى الحرفيِّ أيضًا، نظرًا إلى أنها كانت على وشك السفر إلى الخارج لدراسة الفن– انجذب أندرو نحو جينيفر، التي كان يعتقد –مُخطِئًا– أنها الفتاة الأقل تعقيدًا والأكثر ثقة بذاتها. جينيفر، التي يبدو أنها قد استنفدت قواها لحظة، بينما تجلس على الحافة البعيدة لأريكته الجلدية، حاولت بلا أمل أن تتذكر قدر أهميتها.

تقول جينيفر: «كل ما أطلبه هو عطلة واحدة. نحن الاثنان فقط. أود أن أستلقي بجوار زوجي حول حمام السباحة واحتساء شراب الكوكتيل بلون الكناري. هل أطلب الكثير؟»

يتساءل أحيانًا عن شكل حياته لو لم يتزوج جينيفر قط. تَنُصُّ إحدى نظريات جينيفر على أن شهيتهما المتساوية للحزن هي ما قد جمعتهما معًا. ذلك أن كليهما اعتاد توقع خيبات الأمل من الحياة، وقد طمأن كلٌّ منهما الآخر بامتلاكهما الرؤية نفسها. لم تفت الحياة أيًّا منهما، ذلك أنهما ارتأيا أن الحياة كانت في الأساس محاولة عبثية للعيش. في أحسن الأحوال، يمكن لأي شخص أن يشعر بالسعادة من جراء محادثة تلقي ضوءًا جديدًا على موضوع معين، أو ربما من نكتة جيدة، أو قطعة موسيقية مثيرة، أو قصة لا تُنسى، أو كأس نبيذ في الوقت المناسب، أو كوب قهوة. في فترة شبابه، ربما أضاف أندرو الجنس إلى القائمة السابقة، ولكن جينيفر كانت على حق: كان الجنس حاليًّا أمرًا يفضل أندرو الحديث عنه فقط.

– إذا لم تكن جزر سيشل مناسبة، فماذا عن موريشيوس؟ على ما يبدو موريشيوس لطيفة بالقدر ذاته، وهي أقل تكلفة في الواقع.

t.me/yasmeenbook

- وقت العمل لا يسمح حاليًّا.
- لا يسمح أبدًا.
- لماذا لا تصحبين إيما بدلًا عني؟
- وماذا عن جوليان؟
- يمكنه مرافقتكما، أو البقاء لدى أحد أصدقائه.
- جوليان ليس لديه أي أصدقاء. كما إن إيما تكره الأعياد على كل حال.
- ما اسم المكان الذي سافرت إليه العام الماضي في ألمانيا؟
- ووربسويد؟
- بالضبط، ووربسويد. من عساه يكون قد سمع من قبل عن مكان كهذا؟

كان الذهاب إلى ذلك المكان فكرة أندرو. سافر إلى هناك ذات مرة عندما كان لا يزال طالبًا جامعيًّا. دعاه صديق ألماني التقاه في الجامعة إلى منزله في بريمن مدة بضعة أسابيع بعد امتحانات منتصف العام. في صباح أحد الأيام، انطلقا في سيارته الفيات الصغيرة الحمراء لزيارة قرية الفنانين القريبة من المنزل الذي عاش فيه ريلكه وزوجته. كان واحدًا من تلك الأصباح التي يمكن أن تتذكرها إلى الأبد، على الرغم من أن شيئًا غير مألوف لم يحدث قط هذا اليوم. يتذكر أندرو الجلوس والنافذة مفتوحة، يستمع إلى فرقة «تووك تووك» البريطانية في أثناء مرورها عبر طريق تحفه أشجار الليمون. كانت الذكرى أبعد ما يكون الآن، تمامًا كبعد الريف الألماني عن جوهانسبرج، حيث هو الآن، ويبدو كل شيء في عينيه محتضرًا على وشك الموت.

- تبدأ المسرحية في الثامنة. ألا يمكنك العثور على حذاء آخر لتنتعليه؟ لديك خزانة كاملة من الأحذية.
- آسفة. بلى، يمكنني. يَنُصُّ الجدول الزمني للأفعال المناسبة على أن الآن هو وقت المسرحية المدرسية، لا وقت الشجار؛ من الغباء أن تختلط عليَّ المواعيد.
- أكره نبرتك الساخرة تلك.
- حقًّا؟ (تضحك مُلَوِّحَةً بالحذاء، أو بخَطَرِ ما تزيد احتمالية حدوثه غضبها الواضح) ربما هذا لأنك تكره شعوري بالراحة. الوجود معك

t.me/yasmeenbook

أشبه بالوجود داخل جدران سجن؛ بينما أقضي حكمًا مدى الحياة، أو حكمًا بالإعدام ربما، تستمر الحياة من حولك عادية.

- لا تبالغي.

كالعادة، تشعر بالعدالة التي حَقَّقَتها بالهدوء الذي يُغَلِّف كلماتها.

- ألا تتساءل أبدًا عن سبب وجودنا معًا؟ كل هؤلاء الأطفال الذين أقوم بتدريسهم كل عام، وفي كل عام يكونون في العمر نفسه بالضبط، ثم يصيرون بعدها أكبر سنًّا في العام التالي. أبذل من أجلهم قصارى جهدي، شبابي كله، وعلام أحصل في المقابل؟ زوج يكذب ويسخر مني!

- عَفوًا يا جينيفر، ولكن من نهاجم هنا حقًّا؟ اختياراتك المهنية؟ أم أنا؟

- أي من الأطفال حقًّا سيتذكر يومًا مُعَلِّمَه أو طبيبه النفسي؟ الحياة تسير بينما لا نُعَدُّ نحن سوى أحد المظاهر التي تسبب لهم إحراجًا فيما بعد؛ نحن الأشخاص الذين يتعمدون نسيانهم.

- كلانا يعرف أن هذا ليس صحيحًا. وهل تعتقدين حقًّا أن إنجاب أطفال كان سيصبح مُجزئًا بأكثر مما ذَكَرتِ عن الأطفال الآخرين؟ كل ما يفعله الأطفال هو سلب ما يستطيعون من طاقتك، ثم يختفون عندما يستهلكونك تمامًا.

- على الأقل لا يمكن لدور الأم أن يتم تجاهله بسهولة. الأم، والأب، تلك أدوار ثابتة في حياة الأطفال. أما المعلم، والطبيب النفسي؛ لسنا سوى وسيلة لتحقيق غاية قصيرة المدى، تمامًا كوسائل النقل العام، التي تهدف إلى إيصالهم من النقطة أ إلى النقطة ب. بعد انتهاء مهمتنا، سيمكنهم النظر إلينا بلا روح، ثم يغادرون بعدها.

قال: «إذن ارحلي». قالها بعادية أكثر مما أرادت. «غَيِّري حياتك، ابتعدي، لطالما هَدَّدتِ بكتابة كتاب عن كل ما يشغل بالك، لماذا لا تنفجرين بين صفحات كتاب جديد؟»

ينتظر أندرو رد فعلها، وما الرد الذي سيحفزه حديثه إليها، ولكنها تقف ثابتة. ليست تلك هي المرة الأولى التي يصلان فيها إلى نقطة الانهيار الواضحة

t.me/yasmeenbook

تلك، ومع هذا لم ينجحا يومًا في الوصول إلى أي رؤية حاسمة تجاه وضعهما. ربما إن قررا يومًا حسم موقفهما فسوف تصير حياتهما فارغة، بخاصة مع وعيهما الشديد بوصولهما بالفعل إلى طريق مسدود بلا نقطة ضوء، فلا معنى لوجودهما حقًّا إن لم يكن لدى أيٍّ منهما شيء للقتال من أجله.

- إن لم تناسبك موريشيوس، يمكننا أن نحاول في مكان ما بعيد، مثل جزر المالديف، أو حتى اليونان.
- سيكون أمرًا مزعجًا للغاية رؤية كل هؤلاء الأزواج الشباب في شهر العسل مستلقين بين ذراعي بعضهم بعضًا، بينما نجلس نحن بلا روح تحت مظلة من القش وحولنا أنابيب من كريم الشمس والروايات والكوكتيلات ذات اللون الكناري.

يتغير وجهها فترة وجيزة ليصير لطيفًا. ولكن الليلة –هكذا يقول لنفسه– لا يمكنه أن يشفق عليها، الليلة، عليه أن يمنحها حق معرفة الحقيقة مهما كانت مؤلمة.

- ربما في رأيك شيء من الصحة. الوقت الوحيد الذي أشعر فيه أنني بخير هذه الأيام هو الوقت الذي أقضيه هنا، في هذه الغرفة، مع مرضاي. حتى في وجود أقل ضوء خافت، أشعر حينها بأن هناك ضوءًا ما في المكان، ضوءًا ينير ما بداخلي. ونعم، قد يكون كل ما يصل إليَّ منهم هو مشاعر الخوف والحزن، ولكنهم على الأقل يحاولون التعبير عن شيء ما، ويريدون التحرك نحو شيء ما، لديهم فكرة ما عن حياة أفضل. غالبًا ما أجلس هنا وأفكر في كونهم ليسوا أشباه مرضى، كحالنا مثلًا.

أدارت الحذاء الأحمر في يديها وعيناها الخضراوان ممتلئتان بالدموع.

- أعتقد أنني أفهم.

تقول هذا بسعادة تقريبًا، تقولها في ارتياح من وصل أخيرًا إلى إدراك حقيقة ما.

تقول: «لقد وقعتَ في حُبِّ شخصٍ غيري، أليس كذلك؟»

- جينيفر، من فضلك، لا تعودي لمثل ذلك الحديث.

t.me/yasmeenbook

- يمكنني أن أشعر بشيء آخر بداخلك، بعض الطاقة الجديدة؛ فنحن كما تقول نصف أموات. هذا الشيء بداخلك لا بد أنه قادم من مكان آخر.

لم ينكر الأمر هذه المرة، بل حاول إعادة تفسيره، محاولًا أن يكون حياديًّا باردًا كالشتاء خارج النافذة.

- هل هي واحدة من مرضاك؟

- لا.

عندها يفهم كلاهما أن الطريق المسدود قد تم تجاوزه؛ المساحة الصغيرة التي تعتمد عليها علاقتهما بأكملها. مهما جرى فيما قبل، كانت خطتهما الأثيرة أن يستمرا في الإنكار عائدين إلى حياتهما المخيفة التقليدية.

- من هي؟

ردًّا على هذا السؤال، رَنَّ الهاتف على مكتب أندرو.

ألقى نظرة على الشاشة، واكتشف أنه تلقى خمس مكالمات فائتة. لا بد أن الهاتف كان يرنُّ طوال فترة محادثتهما.

يقول بينما يلتقط الهاتف: «إنها إيما».

تقول جينيفر في محاولة لإقناع نفسها بأن رَدَّ أندرو يشير إلى هوية المتصل وليس إجابة عن السؤال عن المرأة التي أحبها: «أظننا تأخرنا على مسرحية جوليان».

يسأل أندرو رَدًّا على الهاتف: «هل كل شيء على ما يرام؟»

يستغرق رد إيما لحظة. وعندما تتمكن أخيرًا من الرد، يأتي بنبرة غريبة لا يمكنه التعرُّف عليها.

- شيء ما حدث...

- إيما؟

- جوليان، وقع.

- وقع؟

- من أعلى برج الكنيسة.

t.me/yasmeenbook

تسأل جينيفر بينما تهرع ناظرة إلى ملامحه المضطربة: «ما الذي يحدث؟»

- ربما يكون قفز عن البرج.
- هل...؟
- كان ما يزال حيًّا عندما أخذوه مني؛ كان يتنفس بصوتٍ عالٍ، ولكن ساقيه، مكسورتان تمامًا.
- وأين هو الآن؟
- اصطحبوه إلى ميلبارك.
- وماذا عنك؟
- أحدهم يصطحبني بالسيارة في طريقنا إلى هناك.
- سنقابلك هناك.
- أندرو؟
- نعم؟
- أنا آسفة للغاية.
- لم تَرتَكبي أي خطأ يا إيما.
- أندرو؟
- لا تقلقي، نحن في الطريق.

عندما عاد أندرو بانتباهه إلى جينيفر، كانت قد غادرت الغرفة بالفعل، تاركة وراءها فردة الحذاء الأحمر ذات الكعب الأحمر العالي راقدةً على الأريكة الجلدية.

t.me/yasmeenbook

الفصل الرابع

طعام جوليان المُفَضَّل، السوشي

إيما - جوهانسبرج

عندما وصلت إيما الطفلة إلى الحضانة في يومها الأول، كان الفصل الدراسي قد بدأ بالفعل، وقد تعرَّف جميع الأطفال إلى بعضهم بعضًا. اصطحبوها إلى طاولة حيث جلس بعض الأولاد والبنات في دائرة. طلب المدرس من الأطفال أن يرسموا ما يخطر ببالهم. بمجرد أن التقطت إيما قطعة من الورق، شعرت بأن جميع الأطفال الآخرين يراقبونها. كانت تعلم أنهم ينتظرون ليروا ما سترسمه. أرادوا منها أن تكشف شيئًا عن نفسها حتى يتمكنوا من تحديد ما إذا كانت ستستحق محبتهم أم لا. لذلك التقطت قلم تلوين أبيض، وبدأت الرسم على الصفحة الفارغة. رسمت صورة لا يراها إلا هي، وحدها التي سيمكنها التعرف على حدودها. كانت لوحات إيما الزيتية الأولى كطالبة فنون أيضًا لصور بيضاء على خلفية بيضاء. كان الأمر كما لو كانت لا تزال تحاول الابتعاد عن عالم ظل فترة طويلة ملتصقًا بها، عالم من الرغبة في تفسير نفسها، شعور قد ربطته بأختها لسبب ما. عندما نظرت إلى لوحاتها الأولى، بدت وكأنها لا شيء. فقط تحت ضوء قوي قد تبدأ الخربشات والأنسجة في الكشف عن نفسها، حيث سيتحرك الطلاء الزيتي في هذا الاتجاه، ثم ذلك، يستقر بعدها في مستوى طويل مسطح، كهدوء مكتسب من لحظة صمت تأتي فجأة داخل قطعة موسيقية. كانت إيما تحب التفكير في

t.me/yasmeenbook

هذه اللوحات كأنها مرايا، كأنها قطع تكشف عن توقعات المشاهد وتفسيره لها أكثر مما تكشف عن العمل أو الفنانة نفسها. كان عرضها الفردي الأول في جوهانسبرج أشبه بقاعة مرايا كانت إيما تحاول الهروب من خلفها. عندما أصابها ملل من الطلاء الزيتي وبدأت في العمل باستخدام الطين، أصبح من الصعب صنع أشكال خالية من محتواها. وجدت بعدها ملاذًا في نمط آخر من التعالي على وجود محتوى، وكان ذلك هو الأسطورة التي تمسكت بها، الجسد الذي نصفه من الأرض ونصفه من الضوء. مرة أخرى، كانت الأسطورة هي كل شيء لم تكن عليه أختها الحكيمة. كانت النسبية بدلًا عن الحتمية، الفن بدلًا عن العلم، العزلة بدلًا عن الاضطراب. ولكنها سرعان ما اكتشفت أن الأسطورة لها مخاطرها الخاصة. وجدت في عالم الملائكة والنماذج ما يربطها أو يُعَلِّقُها في العالم ذاته الذي هدد وجودها وكانت تحاول الهروب منه. العالم الذي لم يكن يهدد عزلتها فيه أختها وحدها، بل وزوج، وفي غضون بضعة أشهر قصيرة، ابن. تحب إيما العمل مع المواد الخام التي عليها أن تكافح ضدها لتُشَكِّلَها. شيدت تماثيلها من الطين أو الجصِّ الذي يُخلَط بالرمل الخشن ثم يستخدم في بناء قطعة فنية حول عمود من حديد.

تتسلم إيما الطين من شركة متخصصة في شكل أعمدة طويلة، تنحتها وتنزع بعض أجزائها، ثم تضيفها مرة أخرى في مكان آخر، بينما تقترب من النموذج المُتَخَيَّل الذي يقترب حثيثًا من صورته المطلوبة. تصنع المجسم المعدني بالاستعانة بمساعد يتلخص دوره في تحويل رسوماتها للمُجَسَّم ثنائي الأبعاد إلى نسخة ثلاثية الأبعاد. تلصق الطين مع الجص وتمزجه، فيصير الخليط حينها مُحَبَّبًا ومتكتلًا وبلا شكل ثابت. تبدأ دورة حياة فَنِّها ولا تنتهي بمراحل خلق وتدمير، وتقدم وتراجع، وتأكيد الرؤية ثم إنكارها. في المرحلة ما قبل النهائية، بينما تصبُّ البرونز على المنحوتة، تشعر بالغموض والاضطراب الأبدي. تحب جينيفر أن تمزح قائلة إن حياة إيما أشبه بفنها. وذاك هو السبب في أن منزلها دائمًا ما يكون مشبعًا بالفوضى: أرضية المنزل الخشبية التي دهنتها بالأبيض وقد صارت كثيرة الخدوش حاليًّا، والمصابيح التي صارت كلها معطلة، والخزائن المفتوحة، والأبواب التي ترفض الانغلاق. حتى ساعة المطبخ متأخرة خمس دقائق عن الوقت الحقيقي، ولا تتكلف إيما عناء الوقوف على كرسي لتعديل الوقت، كما إنها لا تضع غطاء فوق أي شيء.

t.me/yasmeenbook

تحاول إيما حاليًّا متابعة الترتيبات النهائية لمعرض جديد في جوهانسبرج. تضمُّ رؤيتها الفنية سلسلة من الصناديق الزجاجية الطافية على قمة تل يواجه الضواحي الشمالية للمدينة. في يوم صافٍ، خاصةً بعد هطول الأمطار، يمكنك رؤية تلال ميجالسبيرج مثل ضفة من السحابة الرمادية الصافية على طول الأفق. مدير المعرض هو رجل يدعى جرانت سماتس، بذيل حصان رديء أسفل رأسه، يعيش أعلى المعرض مع قططه البورمية السبع وزوجته، التي نادرًا ما يراها أحد. تجلس إيما في انتظاره على صفيحة من الزجاج السميك الزمردي تدعمها ركائز معدنية ترقد في وسط مستنقع بدائي من السراخس. في الساعة الثانية بعد الظهر، ينشغل مدير المعرض بمشروبه الروتيني اليومي باهظ الثمن، وكان قد انتهى لتوِّه من لقاء فنان أسود شاب يدعى نابليون، يقع الاستوديو الخاص به في مبنى مهجور وسط المدينة القديمة. كان سماتس متحمسًا جدًّا لهذا الفنان الجديد، الذي أُطلِقَ سراحه مؤخرًا بعد أن قضى عدة سنوات في السجن. عاش نابليون طفولته في شوارع وسط جوهانسبرج عندما تم القبض عليه هو وعصابته وأُدينوا في جناية سرقة سيارات. في أثناء وجوده في السجن، بدأ يرسم لوحات ضخمة وباهرة الألوان عن تراث الاستعمار. كل الفنانين الذين يختارهم سماتي يأتون من خلفية ما بقصة باهرة، تُسَهِّلُ عليه بيع أعمالهم. يحب عملاؤه –رجال الأعمال الأثرياء والأقوياء في جوهانسبرج، بالإضافة إلى السائحين المتواترين من الخارج بين فترة وأخرى– أن يكونوا قادرين على سرد قصة عن الشيء باهظ الثمن الذي اشتروه. نابليون هو الشقي الرهيب الذي يمثل الفن المعاصر في جنوب إفريقيا، بينما إيما هي الاتجاه الصوفي العفيف الذي يسكن عالم ييتس[1] ، والتي تحول الأشياء من العالم الروحي إلى العالم المادي الملموس في رؤاها برونزية الملمس.

ومع ذلك، فالسبب الوحيد الذي يجعل سماتي يعتبر إيما امرأة طاهرة هو أنه لم يحاول قط إغراءها، ذلك أنه يفضل الأشخاص في منتصف عمرهم.

- يجدر بكِ أن تكوني سعيدة جدًّا الآن.

---

(1) ويليام باتلر ييتس، شاعر أيرلندي وكاتب مسرحي وكاتب نثر وإحدى الشخصيات البارزة في أدب القرن العشرين.

t.me/yasmeenbook

- فعلًا؟

- سيحوي المعرض الجديد بعضًا من أفضل أعمالك.

من المقرر افتتاح معرض إيما الجديد في أكتوبر. ستوضع القطع البرونزية في ترتيب مُعَيَّن بمقاييس متفاوتة في جميع أنحاء الصناديق الزجاجية، بينما سيتم عرض الماكيتات ورسومات العمل في بهو المدخل بالطابق السفلي. منذ طلاقها وخلال السنوات القليلة الماضية، عملت إيما على صناعة سلسلة من الشخصيات الذكورية الأسطورية المرتبطة بالسقوط والهروب: الملائكة المتمردين، قتلة التنين، الأبناء العصاة وقاتلي الأب.

- ذلك التمثال حول الصبي الذي يتقاتل مع الملاك، أعتقد أنني وجدت بالفعل مشتريًا له.

- جيد.

يحب سماتي بيع أكبر عدد ممكن من الأعمال قبل الافتتاح، حيث يبدأ المشترون المحتملون في الذعر وشراء شيء ما قبل فوات الأوان في مواجهة كل تلك الملصقات الحمراء التي تشير إلى بيع أغلب المعروضات. هذا التمثال الذي ذكر –تحت مُسَمَّى إيكاروس– هو لصبي يهاجم ملاكًا بسكين كبير، ويحاول قطع أجنحته راغبًا في أن يحتفظ بها لنفسه. في التمثال، تمكن الصبي من تحرير الجناح الأول من ظهر التمثال، الجناح الذي لا يزال يلتصق بظهر الملاك بالكاد ببضع ريشات مُمَزَّقة.

- إنه لأمرٌ مؤسف أنكِ لم تصنعي نسخة أكبر من هذا التمثال، أكبر بعشرة أضعاف.

- لماذا؟

- كان يمكننا أن نبيعه لشركة ما.

- لَستُ متأكدة من أن الشركات قد ترغب في تمثال كهذا.

- سيكون مناسبًا لأنه سيصوِّرُ عكس الصورة التي تقدمها الشركة عن نفسها. أليس كذلك؟

لم يكن هناك من سبب يمنع إيما من تقدير جرانت سماتس. لم يكن يفوِّتُ أي فرصة لمنحها الإطراء المناسب، ولقد ساعدها في بناء صورتها كأحد أهم

t.me/yasmeenbook

رسامي الفن المعاصر في جنوب إفريقيا. ناهيك بأنه قد جعلها ثريَّة. على الرغم من كل ذلك، تشعر في أغلب الأوقات بحاجتها إلى حماية نفسها منه. يُخَيَّل إليها كأن حديثه كله يأتي مُغَلَّفًا بطبقة من اهتمام مريب. ولكنها اليوم مُشَتَّتة أكثر من المعتاد. بعد ظهر هذا اليوم، بعد المدرسة، سيعود جوليان إلى المنزل مع جينيفر، وتلك في الواقع عادة، ولكن ما يجعل هذه المرة مختلفة عن سابقتها هو أن جوليان ذاهب في الحقيقة ليتحدث معه أندرو عن مقالته الأخيرة، وهي في الواقع قصة تحكي عن صبي أشعل النار في منزله وهو لا يزال داخله. قامت جينيفر بمسح المقال ضوئيًّا وإرساله بالبريد الإلكتروني إلى إيما بعد فترة وجيزة من تسلمها إياه من معلمة جوليان السيدة فيش. شعرت إيما بعد قراءته بإحساس من ارتكب جريمة ما. على الرغم من أنها لم تستطع التأكد أي جريمة تلك التي فكرت فيها، فإنها شعرت –في زاوية ما من وعيها– أن أثر ما في القصة يشير إليها بشكل واضح. اعتادت إيما الدخول إلى منزل جينيفر مخترقة باب الحديقة بحُرِّيَّة، ولكنها اليوم تدق عند الباب الآخر؛ باب أندرو، الذي يؤدي إلى غرفة الانتظار في مكتبه. على الرغم من أن جينيفر وأندرو قد تنقَّلا كثيرًا بين المدن منذ زواجهما، فإن هذا ظل منزلهما الوحيد المشترك، وهو ما اعتادت جينيفر أن تفكر فيه كرمز لـ «جوهانسبرج القديمة». كان بيتهما ذا أسقف مضغوطة، وأرضيات خشبية، ونوافذ من الرصاص، وشرفات أرضية عريضة. يمتلئ المنزل بالأثاث العتيق، الذي يلمع طلاؤه الذهبي في أثر شمس بعد الظهيرة، ناهيك بساعات الحائط، والسجاد القرمزي الغني بالنقوش، الذي سَلِمَ دائمًا من اعتداءات حيواناتهما الأليفة، ولوحات زيتية لمشاهد الصيد والسفن التي فقدت طريقها بين لجج بحر مظلم. كما تملأ زهور جينيفر المحببة كل غرفة. تزرعها هي في الحديقة حيث ما يكفي من ضوء الشمس. يبدو منزل إيما وكأنها انتقلت إليه مؤخرًا، على الرغم من حقيقة أنها كانت تعيش هناك طوال حياتها متزوجة، وحتى بعد طلاقها. أما في منزل جينيفر، فكل شيء له مكانه الذي لا يقبل جدالًا بتغييره. لا يوجد شيء هنا تنقصه الحميمية، أو غير ذي فائدة، ربما باستثناء علاقتها بزوجها. تواصل جينيفر العناية بمنزلها في محاولة للوصول إلى ما تسميه «ملجأ أكثر استقرارًا». تَدَّعي أن مثل هذا المكان المُتَخَيَّل سيكون مفيدًا لممارسة أندرو عمله، على الرغم من أن الحقيقة هي أنه أينما عاش أندرو في

t.me/yasmeenbook

جوهانسبرج لم تكن لديه أي مشكلة في التعامل مع مرضاه. يقع منزلهما الحالي على بعد بضعة مبانٍ من حديقة الحيوانات، وقد اعتادتا الجلوس معًا بحلول الغسق في صحبة مشروب، تشاهدان تَحَرُّكَ طائر أبو قردان نزولًا إلى بحيرة الحديقة، وتسمعان صرخات قرود الجبون البيضاء المنضمة إلى الحديقة مؤخرًا. اعتادت الأختان أيضًا مراقبة مرضى أندرو، والتكهن بشأن حالتهم بينما يغادرون مكتبه عبر باب الحديقة الرئيسي. تمزح جينيفر دائمًا بشأن هذا الأمر، تقول: «يحب أندرو دائمًا الفصل بين مداخله ومخارجه».

عندما يرن الباب، تفتحه لتكشف عن فناء حيث يتكدس نبات اليوكاسيا حول بركة ملآنة بسمك الكوي الأصفر. يظهر جوليان ما يزال في سترته المدرسية المخططة، جالسًا في غرفة الانتظار الداخلية بضوئها الخافت. يلمع شعره –الذي صبغته إيما استعدادًا لمسرحية منتصف العام– بلونٍ أرجوانيٍّ تحت الضوء. بدا جوليان حينها أشبه بدمية في نافذة متجر وليس صبيًّا بحال.

كان جوليان جالسًا يتصفح مجلة نسائية مُغتَمًّا للغاية. ولكن ما الذي كانت تتوقعه إيما؟

ظلَّت إيما تدفعه سنوات لمرافقة أندرو؛ مباراة تنس هنا، أو نزهة إلى الحديقة هناك، ومع هذا لم يجمعهما شيء حقيقي قط، وظل تعاملهما رسميًّا، إلا إنهما اعتادا التمنطق بوجه شجاع سعيد حين وصولها للتأكد من استمتاعهما بالرفقة.

تقول في نفسها شاعرة بإحباط: «أظنُّه من الطبيعي ألا تتوافق طباع الناس أحيانًا». ذلك كونها تتفق مع كليهما بشكل جيد وبلا مجهود.

عندما تدفع إيما الباب الزجاجي نحو غرفة الانتظار، يرفع جوليان بصره إلى أعلى. كان وجه جوليان شاحبًا، وعيناه أظلم من المعتاد، ربما تحت أثر شعره المصبوغ. استطاعت أن ترى أن التعبير الغائم على وجهه لم يتغير، كما لو أنه قد قرر أن يبقي على ملامحه بلا تغيير قبل أن تدخل إلى الغرفة.

- مرحبا يا عزيزي. هل انتهينا من وقتنا مع العم أندرو؟

- نعم، انتهينا.

t.me/yasmeenbook

إنها رحلة كارثية، تلك التي يتبعها صبيٌّ في سن الرابعة عشرة حتى ينفصل، مختفيًا عنك تمامًا. ذلك الذي تتذكره رفيقك الدائم الثرثار الذي يريدك أن تشهد على كل كلمة يتعلم تهجئتها، وكل غطسة يؤديها في حمام السباحة، وكل مشاجرة يخوضها في المدرسة، بينما في اليوم التالي تجده يغلق عليه باب غرفة نومه، مفكرًا في قائمة طويلة من الأفكار السرية، تستهدف كل منها إبعادك عن حياته واستبعادك.

- أين العم أندرو؟

يجيب جوليان مشيرًا إلى اتجاه ما برأسه: «هناك مع شخص ما. قال إنه سيتصل بك فيما بعد».

- حسنًا.

كان جوليان جالسًا طوال المحادثة، لم يقف للانضمام إليها، كأنه لم يخطر بباله بعد أن يتحرك في صحبتها عائدين.

- لماذا لم تصعد إلى المنزل؟

- لم أشعر بالرغبة في ذلك.

- هل خرجت خالتك جين؟

- ليست لدي فكرة.

تعرف إيما أنها لا يجب أن تتطفل على ما جرى من حديث بين جوليان وأندرو. يجب أن تنتظر حتى يصبح جوليان جاهزًا للتحدث. ولكن هل سيكون مستعدًّا للتحدث يومًا ما؟

- لدينا بروفة في الساعة الرابعة.

- والعرض سيبدأ في الثامنة؟

أومأ جوليان أن نعم.

- أحتاج إلى أن أعود إلى المدرسة الآن.

- ولكن ألست جائعًا؟

- تناولت شطيرة مع خالتي جين.

- ماذا عن بعض السوشي في الطريق؟

t.me/yasmeenbook

- كما تريدين.

السوشي هو طعام جوليان المُفَضَّل، وكانت إحدى أهم متعهما الشخصية في السنوات الأخيرة هي تجاهل خططهما الحياتية فجأة والذهاب لتناول السوشي معًا. السوشي اختيار مناسب جدًّا لإيما، يمكن الوصول إليه بمجرد التفكير فيه، مُحَضَّرًا وجاهزًا للاستهلاك.

حل ممتاز لأنها تستطيع أن تحصل على البعض منه مع جوليان في طريق العودة من المدرسة، أو استخدامه تصبيرة في فترة ما بعد الظهر، أو العودة إلى هناك مع جوليان لتناول العشاء، نظرًا إلى أنها غالبًا ما تنخرط في عملها لدرجة أنها لا تتذكر التخطيط لتناول وجبة حتى يفوت الأوان لإعداد واحدة. لحسن الحظ، يحب جوليان الخروج لتناول السوشي دائمًا، رغبة لا يستطيع مقاومتها، حتى عندما يكون منزعجًا منها.

على الرغم من أن إيما لا تحب السوشي لتلك الدرجة –ذلك أنها تمتعض من الإحساس بكل سمك السلمون الزلق الذي ينزل إلى حلقها– فإن ما تحبه حقًّا هو الجلوس هناك وابتلاع القليل من الويسكي بينما يتحدث جوليان عن يومه. لطالما خفف الطعام من لسان جوليان. لا يستطيع أن ينفصل عنها إلى عالمه الخاص وقتًا طويلًا بينما وليمة من طعامه المفضل ترقد أمامه ويمكنه أن يختار منها ما يريد وبأي كمية. بينما يسحب جوليان كرسيه أقرب إلى الطاولة، تشعر إيما أنه يذكِّرُها كثيرًا بوالده. رأسه محشو بالحماقات نفسها، والأذى المبالغ فيه. كان جوناثان رجلًا مملًّا للغاية –مملًّا حتى أكثر مما حاول أن يقنع الجميع بالعكس– أما بعيدًا عن الأعين، فيمكنك أن تجده فَظًّا وحساسًا ومزاجيًّا. أراد جوناثان لإيما أن تلعب في حياته دور أمه –وهو شيء لم تكن مستعدة للقيام به مطلقًا–، وربما كان هذا هو السبب في أنه لجأ في النهاية إلى امرأة أصغر لتلعب دور الابنة في حياته. كانت إيما تأمل أن ينتهي تأثير جوناثان على ابنها بمغادرته إلى دبي، ولكن جوناثان لا يزال يطارد ابنها بطرق لا تستطيع هي ولا جوليان فهمها تمامًا.

تسأل إيما بينما يَصُبُّ جوليان بعض صلصة الصويا المنقوعة في الوسابي فوق قطعة السوشي بالسلمون في يده: «كيف حال مُدَرِّسَة الفن الجديدة؟»

- جيدة.

t.me/yasmeenbook

لا تشعر إيما بأي اهتمام أو فضول ناحية مُدَرِّسَة الفن الجديدة –تظنُّها امرأة مرهقة، تومئ كثيرًا برأسها ذي الشعر المصبوغ الخشن، المُزَيَّن بإكسسوارات عتيقة– هي تسأل في الواقع لاهتمامها الخاص دائمًا بتطوُّرِ جوليان الفَنِّي. تَنُصُّ تجربة إيما على أن أفضل الفنانين غالبًا ما يكونون أشخاصًا سطحيين ومُمِلِّي المظهر، لا يقدمون للعالم سوى شبح من وجودهم، بينما تتألق حياتهم الحقيقية وتظهر في أعمالهم. على ما يبدو، ظَلَّت معلمة الفن الجديدة تلك تحوك كل ما يمكنها على مدار العقد الماضي، مثل زوجة أوليسيس[1] .

- قابَلتُ سماتي هذا المساء. حَدَّدنا موعد العرض ليكون في بداية الصيف. هل أخبَرتَ معلمتك عن هوية أمك؟

- لا.

- ربما عليك أن تفعل.

- لماذا؟

- قد يساعدك هذا الأمر.

- كيف؟

- ربما سيساعدها أن تأخذك بجدية أكبر؟

يمسح جوليان أصابعه في منديل، ويمنح أمه نظرته الغامضة.

يسأل جوليان بلمحة من ازدراء: «هل تعتقدين أنني أحتاج إلى ذكر صلتك بي ليأخذني الناس على محمل الجد؟»

- حبيبي، أنا آسفة. لقد صغت الجملة على نحو خاطئ. ما أعنيه هو أنها قد تجلس حينها بجوارك، مانحة إياك مزيدًا من الجهد.

يقول جوليان بنبرة جعلته لحظة صورة من خالته: «إنها تبذل جهدًا معي بالفعل».

---

(1) بطل الأوديسة التي كتبها هوميروس. عاد أوليسيس بعد غياب طال ليجد منزله ملآن بخاطبين توددوا إلى زوجته، التي قررت التنصل من عروض الزواج بفكرة حياكة مفرش طويل قالت إنها لن تبتّ في أمر الزواج قبل أن تنتهي من حياكته، وظَلَّت طوال النهار تخيطه، وتتسلل ليلًا لفك العقد التي حاكتها نهارًا.

t.me/yasmeenbook

غالبًا ما شعرت إيما بقلق بشأن علاقة ابنها بخالته، وكانت أكثر توترًا بشأن دورها في بناء تلك العلاقة. بقدر ما قد تحب جينيفر، وبقدر ما تشعر بالامتنان للدعم الذي قدمته لها على مر السنين، فهي تعلم أن قلب جينيفر يحمل قدرًا من القسوة لا يمكن لجينيفر نفسها أن تتجاهله مهما حاولت. اختبرت إيما ذلك أول مرة عندما كانتا طفلتين وقد أفرغت جينيفر حوض السباحة بالكامل حتى لا تتمكن إيما من إقامة حفل عيد ميلادها حول المسبح. في الليلة التي سبقت موعد الحفلة، تسللت جينيفر إلى الخارج بعد العشاء، وقامت بتبديل إعدادات المضخة حتى تتسرب مياه حمام السباحة –التي كان والدها قد أكد في الأسبوع السابق أنها كانت نظيفة تمامًا– إلى الحديقة خارج الحوض. عادت بعدها إلى المنزل عبر السياج الأمامي وكأن شيئًا لم يكن. تسربت المياه حول شجرة التفاح، وشَكَّلت تيارًا متشعبًا صغيرًا على طول الطريق حتى أسفل شارعهم. رأت إيما خطوط المياه المتوازية تتدفق على الطريق في ذلك الصباح في طريقها إلى المدرسة، ولكنها لبراءتها لم تفكر في احتمالية ما فعلته جينيفر. بحلول الوقت الذي عادت فيه إلى المنزل وكان الجميع بالفعل متحمسًا بشأن حفلة المسبح التي تنوي إقامتها بعد ظهر ذلك اليوم، وجدت المسبح فارغًا تقريبًا، ودُمِّرت الحفلة. كانت هذه هي المرة الوحيدة التي يضرب فيها والدهما أيًّا منهما؛ صفع جينيفر ثلاث مرات، حتى ناشدته إيما أن يتوقف.

إلا إن إيما دائمًا ما شجعت العلاقة بين أختها وابنها، إذ لم ترَ في نفسها قط القدرة على تحمُّل وظيفة أمٍّ بدوامٍ كامل، ومهما كانت عيوب جينيفر كشخص، فلطالما امتلكت ميزة حماية من تحبهم بكل قدر استطاعته، ألم تقفز ذات مرة فوق المناضد في المدرسة عابرةً القاعة الدراسية حتى الفتاة التي كانت تفرغ قلم الحبر الخاص بها في وجه إيما؟ احتاج الأمر إلى اثنين من المدرسين لسحبها من فوق الطفلة المسكينة، التي لم تتحدث إلى إيما بعدها مرة أخرى.

- أنا متحمسة للغاية لرؤية مسرحيتك، وأتطلع إلى سماعك تغني.

t.me/yasmeenbook

- بصراحة، إنه أمر محرج بعض الشيء. لا يزال عليَّ ممارسة الغناء بطبقة عالية جدًّا حتى مع محاولة مدرس الموسيقى تخفيض النغمات ليمكنني أداؤها.

قالت إيما محاولة أن تمنحه ابتسامتها بعض الطمأنينة: «حسنًا، لم يكن أيٌّ من أفراد عائلتنا يومًا قادرًا على الغناء. لم يملك جدك أذنًا موسيقية على الإطلاق. على الرغم من أن ذلك لم يمنعه قط من الغناء بأعلى صوته في الكنيسة».

كانت إيما تحكي لابنها عن أبيها منذ أن كان صغيرًا، ربما على أمل أن يمنح والدها الغائب جوليان نموذجًا أفضل من والده الغائب. أمضت إيما وجينيفر معظم طفولتهما في كيب تاون الشرقية. مارس والدهما مهنته طبيبًا بيطريًّا، وتخصص في علاج الخيول والماشية والأغنام، وكانت والدة جينيفر معلمة في مدرسة للبنات في جراهامستاون، أما والدة إيما، فقد عاشت في منطقة كينتون أون سي القريبة عندما سرقت والد جينيفر، حيث كانت تبحث في عادات التزاوج للأخطبوط ذي الرؤوس. كان منزل عائلتهم من أوائل المنازل التي تم بناؤها في جراهامستاون، من ثلاثة طوابق، ومصنوعًا بالكامل تقريبًا من الخشب. راود إيما شعور في بعض الأحيان بأنها كانت تعيش في سفينة محاصرة داخل منزل حجري قديم، ذي أرضيَّة تصرُّ كلما سار عليها أحدهم في أثر ثقله على الأرض. عندما انتقلت والدة إيما للعيش فيه -كانت حينها حاملًا- صار المنزل أشبه بالمتاهة، ضاع كل شيء بداخله: فرش الشعر، وأقلام الرصاص، والحيوانات المحنطة، ومضارب التنس، حتى القطة الصغيرة، التي ضاعت هناك بعد وصولهم بنصف ساعة فقط، بمجرد أن وُضِعَت على الأرض، وتَمَشَّت قليلًا عند الزاوية، ثم اختفت بعدها. ولكن جوليان تجاهل ذكر والد إيما بينما هما جالسان الآن، كما لو أن محاولاتها تلك تصيبه بالملل.

سأل جوليان: «هل سيأتي العم أندرو إلى المسرحية؟»

- سيأتي بصحبة خالتك جين.

t.me/yasmeenbook

ابتسم جوليان ووضع قطعة من الجمبري في فمه. اعتاد أن يرفع عيدان تناول الطعام في وضع مستقيم باهتمام فائق، مثل شخص يعد نفسه لقيادة أوركسترا.

على الجانب الآخر منهما تجلس امرأة أنيقة منعزلة تأكل سمك السلمون والساشيمي، وتشرب كأسًا كبيرة من النبيذ الشفاف عديم اللون تقريبًا. تعرف إيما أنها رأت المرأة من قبل، ولكنها لا تستطيع التذكُّر. هل هي والدة أحد زملاء جوليان؟ أم شخص آخر تعرفه من عالم الفن؟ إحساس مألوف ذاك بأنك تعرف هذا الشخص ولكنك لا تعرفه حقًّا. في طفولتهما، كانت جينيفر هي الأقدر على تذكُّر أسماء ووجوه الجميع، والأقدر على ربط الأشياء ببعضها. يجلس مالكا المطعم في وسط الطاولة المستديرة –رجل وامرأة بالقرب منهما، يعتمران قبعتين سوداوين بلا حافات، ويرتديان زيًّا موحد اللون– يحاولان قطع شريحة خس كبيرة مغمغمين بلغتهما غير المفهومة. يبتسمان دائمًا لجوليان عندما يدخل، ويبدآن على الفور في صنع لفائف السوشي المصنوعة من جلد السلمون المفضلة لديه، ومع ذلك لا تعرف إيما شيئًا عن أيٍّ منهما. بالكاد استطاع العاملون التواصل مع الناس بلغة إنجليزية شديدة البدائية.

تُغَيِّرُ إيما الموضوع مرة أخرى: «كيف تشعر حيال الأمر؟»

- ماذا؟

- كيف هو الشعور بكونكَ قد وصلت إلى سن الخامسة عشرة؟

كان الأسبوع الماضي عيد ميلاد جوليان. أهدته إيما هاتفًا، وصنعت له نوع الكعكة التي تعرف أنه يحبها أكثر؛ كعكة شوكولاتة كثيفة مرشوشة ببودرة السكر. أهداه جينيفر وأندرو كاميرا بعدسة تكبير، على الرغم من أن الهاتف الذي منحته إيما به كاميرا جيدة تمامًا.

يقول جوليان: «لا فرق».

- العم أندرو يقول إنها بداية مرحلة عمرية مهمة في حياتك صبيًّا؛ لقد تجاوزتَ حافة الأربعة عشر قافزًا من فوقها، الآن يمكنك الاستقرار على بدايات أرض الخامسة عشر الثابتة من جديد.

t.me/yasmeenbook

عندما قالت إيما جملتها الأخيرة، دفع جوليان طبق السوشي المحشو بالأفوكادو الأخضر جانبًا والتقط كوبًا من ماء الصنبور. يطلبون دائمًا ماء الصنبور مع الثلج والليمون عندما يأتون إلى هنا، ربما تعويضًا عن تكلفة السوشي.

- لماذا نضطر إلى الحديث عنه باستمرار؟

تتفاجأ إيما بالطريقة التي يطرح بها جوليان السؤال، كما لو كان أندرو مصدرًا لخيبة أمل، أو لعار ما، كأنه القريب المخمور في كل عائلة، على الرغم من أن أندرو هو الأكثر اتساقًا ورصانة بين البالغين الثلاثة في حياة جوليان.

- لسنا مضطرين. نفعل ذلك لتمضية الوقت، ولكن بما أنكما قد أمضيتما الوقت معًا منذ ساعات، أفترض أنني أردتُ السؤال عن كيف سار الأمر بينكما.

قال: «على ما يُرام». وقد تغير وجهه بعض الشيء.

لم يكن جيدًا قط في حَبكِ الكذبة. لطالما استطاعت إيما أن تجد خيطًا طويلًا من فُتات الكعك، يبدأ من علبة الكعك وينتهي حيث باب غرفته دليلًا على سرقته الكعك.

- هل تحدثتما عن كتاباتك؟

- هل تقصدين إنْ كان قد طلب مني التوقف عن كتابة المقالات الغريبة؟

- لا أقصد هذا. من حقك كتابة كل ما تريد.

- يا للسعادة! شكرًا!

- أنا فقط قلقة إنْ كان هناك أمرٌ ما لم تخبرني به. هل هناك شيء ما يحدث في المدرسة ولا تريد الحديث عنه؟

قال: «لا شي على الإطلاق يحدث في المدرسة». قالها مع تأكيد لفظي على كلمة «مدرسة».

يدفعان الفاتورة، ثم يستَقِلَّان السيارة. في الإشارة يمكنهما رؤية الرجل ذي اليد الواحدة يلوِّح بلافتات في يديه. للرجل وجه صبوح لطيف، ولكنه قد قال لإيما بأن الإله سيلعنها حين لم تنتبه إلى مروره بجوارها ذات يوم.

t.me/yasmeenbook

صرخ بينما تمر بجواره مسرعة: «سيلعنك الإله يا سيدة!» على الرغم من أنها لم تؤمن يومًا بوجود إله، ذلك الإله الذي يحصي أفعالنا وأقوالنا، فإنها قد شعرت برهبة وعار، وقد تَجَنَّبت كل لقاء مع هذا الرجل منذ ذلك الحين. هذا على الرغم من انتشار المتسولين عند كل إشارة مرور، ممارسين أفعال الحكي عن مآسيهم وعوزهم، وكأن البؤس الذي يعانونه والفقر لا يكفيان وحدهما لجذب الانتباه إليهم.

قال جوليان: «أراد العم أندرو أن يعرف رأيي في أعمالك الفنية». فقط عندما ظَنَّت أنهما قد انتهيا بالفعل من حديثهما الخاص لهذا اليوم.

- حقًّا؟

- أراد أن يعرف بماذا أشعر نحوها.

- وبماذا تشعر نحوها؟

- قلتُ إنني لم أفكر من قبل في شعوري نحوها.

خفضت نافذة سيارتها الفولفو القديمة، وأسقطت بعض العملات الفضية في يد الرجل صاحب اللعنات. نظر إليها بحيادية، كشخص لم يسبق له أن لعنها من قبل.

- هل هذا صحيح؟

- لا.

لم تستطع إلا أن تشعر بالسعادة لكون جوليان استطاع الكذب على أندرو بشأن رأيه في فَنِّها. على كل حال، لم يكن جوليان هناك لمناقشة إيما أو فنها، كان هناك للحديث عن نفسه. ولكنه أمر معتاد تمامًا أن يجعل أندرو المحادثة فرصة للتحدث عن إيما. لطالما أحبها؛ منذ اللحظة الأولى التي التقيا فيها.

سألت بينما يبتعدان عن الرجل عابرين الإشارة: «ما الذي تحدثتما عنه أيضًا؟» وقد شعرت بتحسن الآن لأنها ربما تكون قد خففت اللعنة.

- تملك أحلامي طابعًا ساخرًا، ما أمر أطباء النفس؟! لماذا يريدون دائمًا التحدث عن الأحلام؟

- أندرو معالج نفسي، وليس طبيبًا، أفترض أنهم يعتقدون أن الأحلام مهمة.

t.me/yasmeenbook

- حسنًا، ليست كذلك. على الرغم من أنهم يقولون إنك قد تصاب بالجنون إذا لم تحلم، هل تعلمين ذلك؟

يبدو أن السوشي قد جعله لينًا في معاملته تجاهها. صار يتحدث بإسهاب بينما هما في السيارة، كما لو أن الرحلة بين مكانين معروفين توفر له فرصة للانزلاق إلى شخصية أخرى؛ النسخة الأصغر عمرًا، النسخة التي يبدو أنه غالبًا ما يفتقدها.

رَدَّت: «لم أكن أعرف ذلك». على الرغم من أنها تعرف المعلومة، بل إنها تعرف أنها حتى من أخبرته بها ذات يوم.

يتابع جوليان بثقة الشباب: «ما تفعله الأحلام هو تفكيك تجاربنا وتخزينها. ولكنها لا توفِّرُ مدخلًا إلى مشاعرك الحقيقية. مجرد ضوضاء بلا صوت».

- ربما أنت على حق.

تحب إيما أن تمنحه أذنًا تستمع وتتعاطف عندما يسهب في الحديث. أما اليوم، فلكل كلمة يقولها مغزى. يبدو أنه يدافع عن فكرة ما تخص مفهوم الظلم، أفكار لا يريد أن تعرف عنها الآن.

سألَت: «هل أخبرته عن أحلامك؟»

- قُلتُ إنني لا أتذكر أحلامي أبدًا.

- هل تعتقد أنه سيجد أهمية ما فيما أخبرته؟

قال جوليان بلهجة ساخرة: «بالنسبة إليهم كل شيء مهم».

انحرفت حافلة أجرة صغيرة أمامهما، مما جعل إيما تبطئ في سرعتها. على المصد الخلفي لسيارة الأجرة ملصق يقول: «الله يحبك». وقد تساءلت لماذا يظهر الله كثيرًا اليوم، الله وملائكته. يبدو الأمر كما لو أن عالمًا آخر –العالم الذي يطفو فوق أو يسبح أسفل هذا العالم الأكثر دنيوية– يحاول شَقَّ طريقه إلى وعيها. ولكن بأي هدف؟ وليخبرها بأي رسالة؟ أنها قد لُعِنَت أم غُفِرَ لها؟ دون أن تفكر في الأمر بوعي، تبطئ من سرعتها، تاركةً سيارة الأجرة ورسالة الأمل تتلاشى أمامهما.

- وهل هذا صحيح؟ ألا تتذكر أحلامك أبدًا؟

- في الواقع أتذكر الكثير منها.

t.me/yasmeenbook

أطلقت ضحكة عالية.

- لا يبدو أن مقابلتك العم أندرو كانت ناجحة بأي شكل.

في واقع الأمر لم تكن متحمسة لتلك المقابلة في الأصل. حين اتصلت بها جينيفر واقترحت الأمر، شعرت على الفور أن جينيفر تتدخل في حياتهما، وأنها تمنح موضوع المقالة أكثر مما يستحق. ما المشكلة في أن تتخيل موتك؟ ما المشكلة في حرق منزلك إن كانت ممارسة الكتابة قد تساعدك على تحسين ذاتك؟ ألم تكن تلك علامة على رغبة جوليان في طرح هموم الماضي وتجاوزها؟ كانت تحسُّ قلقًا عظيمًا في غالب الأحيان لشعورها بارتباط عظيم يجمعها بابنها، بينما عليها أن تشجعه على طلب حريته واستقلاليته. لطالما كانت النار قوة مانحة التغيير، عنصرًا أساسيًّا في الممارسات والطقوس الدينية على طول أحداث التاريخ. تدمر كل شيء تطاله، ولكنها في الوقت ذاته أصل الحياة. ربما كانت مقالة جوليان مضطربة بشكل ما، ولكن هل يعني هذا أن جوليان نفسه مضطرب؟ أليس عليك أن تفصل أهمية الرقصة عن أداء الراقص؟

- لم يكن عليك الذهاب للتحدث معه من الأصل. كان الأمر فكرة جينيفر بالكامل. أعتقد أنها كانت تشعر ببعض الملل.

- ملل؟

- أنت تعرف كم تحب الخالة جين أن تجعل من كل أمر كارثة محتملة. لقد أرادت أن تستغلك أنت ومقالتك من أجل صنع بعض الدراما في المنزل، ولتنتقد تربيتي إياك.

امتعض جوليان عند سماعه جملة أمه الأخيرة، تعبيرًا عن انزعاجه المُوَجَّه إلى منطقة ما يحدث بينهما، أو ربما هو مُوَجَّه في الحقيقة إليها وإلى أختها.

- في الواقع أخبرته أنك واقعة في الحب.

كادت إيما أن تصطدم بسيارة الأجرة في أثر جملة جوليان.

- ماذا قلت؟

- أخبرتُ العم أندرو أنك تحبين رجلًا آخر.

t.me/yasmeenbook

عاجزين عن تلاقي أعينهما، لا يسعهما سوى النظر إلى الطريق، بينما يقف مركز التسوق الأنيق قيد الإنشاء قريبًا على مرمى بصرهما، حيث يجرى إنزال لوح من الزجاج البروسي الأزرق على السقالات بواسطة رافعة ثقيلة. على لوحة إعلانات خارج الموقع توجد صورة للمبنى المخطط له محاطًا بالأشجار، وحديقة يعلم الجميع أنها لن تكون موجودة بعد انتهاء مرحلة التشييد. هذا أمر أشبه بالحلم السيئ. هل جُنَّ الصبي؟ تتذكر أن هذا هو ما شعرت به عند قراءتها إحدى مقالاته، حيث انحرف بزاوية تفسيره تصرفات جميع الأبطال لجعلهم يبدون أكثر فظاعة مما هم عليه بالفعل.

- ما الذي جعلك تقول ذلك؟

يقول: «لأنه صحيح، أليس كذلك؟» يقول هذا بدرجة من الثقة تصمت هي في أثرها لحظة، يقولها أيضًا بنبرة مَنْ يشعر كما لو كانت فكرة حب إيما لرجلٍ آخر نوعًا من الانحراف عن الفطرة الطبيعية، كفكرة حب لبؤة لذئب.

- وما الذي أعطاك هذه الفكرة؟

- رأيته.

- ماذا؟

- رأيته بعد ظهر أحد الأيام يدخل من الباب الأحمر ويصعد ممر الحديقة.

- عفوًا؟

- الرجل الذي تحبين.

- ولكن عن أي رجل نتحدث؟

يضغط الهواء في السيارة على رأسها، وكأن الشارع والمبنى قيد الإنشاء قد غرقا تحت سطح البحر. تتمنى أن تتمكن من الخروج من السيارة والسباحة بعيدًا. رائع جدًّا الصبي جوليان، وتمتلئ كلماته بلمحات من الحق. يقصد العم أندرو بالطبع. لطالما أحبها أندرو –نعم– وكانت إيما تَشُكُّ أحيانًا في أنه بقي مع جينيفر فقط حتى يتمكن من البقاء بالقرب منها. ألم يكن هذا هو السبب في أن الزوجين تبعاها إلى لندن عندما كانتا لا تزالان طالبتين، ثم عادوا إلى جوهانسبرج بمجرد تخرج إيما؟ كما تتذكر إيما، أرادت جينيفر البقاء في لندن مع أندرو وبدء حياة جديدة. أخبرت أندرو أنه سيكسب المزيد من

t.me/yasmeenbook

خلال التدريب ليصبح محللًا نفسيًّا كاملًا، وهو أمر لم يكن ممكنًا في جنوب إفريقيا. ولكن الزوجين عادا إلى جنوب إفريقيا بعد عودة إيما على أي حال. وعلى مر السنين، كانا يبدلان سكنهما في حدود المنطقة المحيطة بمنزل إيما، وفي كل مرة يقتربان من ضاحيتها أكثر فأكثر. ما احتفظت به إيما عن الجميع هو أنها كانت أيضًا في حالة حب مع أندرو. لم تخبر أندرو بهذا حتى، ولكنها لم تكن يومًا في حاجة إلى ذلك. عرف كلاهما بأمر مشاعرهما تجاه بعضهما بعضًا بتمام الوضوح الذي يجعلهما يفرقان الليل عن النهار، والشتاء عن الصيف. عرفا أيضًا أن حبهما سيبقى غير مكتشف، مثل بلد سمعا عنه، ولكن لظروف خارجة عن إرادتهما لن يتمكنا أبدًا من زيارته.

كان أهم عنصر في تلك الظروف منذ البداية هو جينيفر نفسها. فسرت إيما الأمر دائمًا على اعتبار أنها قد ضحت بحبها لأندرو في سبيل أختها؛ ربما تعويضًا عن حقيقة أن والدهما لم يحب جينيفر قط كما أحب إيما. كان هذا أمرًا معلومًا بالضرورة عند كلتا الفتاتين، ولكن ظل أمرها هي وأندرو أمرًا خطيرًا لا يمكن مناقشته على الإطلاق. فكيف إذن –بعد كل هذه السنوات من التكتم المستمر– يتحدث جوليان عن هذا الحب بمثل هذا الاقتناع؟ هذا الحب الذي لم يتحدث عنه أحد قط ولا حتى بالإشارة.

تقول هي بصوت لا تتذكر أنها استخدمته مع جوليان من قبل: «دعني أفهمك جيدًا. هل تقول إنك رأيت العم أندرو قادمًا لزيارتي بعد ظهر أحد الأيام في منزلنا؟ وإنني أحبه؟ وإنك أخبرته بكل هذا عندما كنت تتحدث معه في مكتبه؟»

- رأيته قادمًا باتجاه الحديقة، كان ذلك قبل بضعة أسابيع.

- ولكن هذا مستحيل.

إنها تعلم أن ذلك مستحيل لأنه لا يوجد رجل –ناهيك بأندرو– قد أتى قط لزيارتها في فترة ما بعد الظهر ولا صعد حتى غرفتها. كانت متزوجة بالفعل عندما انتقلت إلى منزلها، ولم تخن جوناثان قط طيلة فترة زواجهما. منذ الطلاق، تَعَرَّفت بالفعل إلى عدد قليل من الرجال، ولكن لم يأتِ أيٌّ منهم إلى المنزل على الإطلاق. المنزل –الذي أحرقه جوليان لتوه في مخيلته– ظل مقدسًا طيلة فترة معيشتهما فيه. ومع ذلك، يبدو جوليان واثقًا من نفسه

t.me/yasmeenbook

لدرجة جعلت إيما تمر بلحظة من الشك. ربما جاء أندرو لرؤيتها بعد ظهر أحد الأيام عندما لم تكن في المنزل. كانت تترك الباب الأحمر مفتوحًا دومًا. ولكن –حتى لو فعل ذلك– كيف عرف جوليان بمشاعرها تجاه أندرو؟ هل كان ببساطة ينغمس في خياله مجددًا صانعًا هذا العالم الذي يصف أحداثه؟

- ماذا قلت أيضًا؟

- عفوًا؟

- ماذا قلت لأندرو بحق الله؟

- ماذا تقصدين بذلك؟

- هل قلت له إنك تعرفت عليه؟ عندما جاء إلى المنزل؟

- قُلتُ إنني لم أستطع رؤية وجه الرجل.

- حقًّا؟ هل تركته يعتقد أن هذا الزائر كان رجلًا آخر؟ شخصًا آخر غيره؟

- هل يُزعِجُكِ أن يفهم ذاك من حديثي؟

- توقف عن سخافاتك يا جوليان.

لم تنعته بمثل تلك الألفاظ من قبل؛ الأمر الذي جعلهما يصمتان فجأة. ومع هذا، استقرت نتيجة حديثهما في الهواء إعلانًا صريحًا عن الحب، أو على الأقل عن مشاعر إيما القوية بشكل غير لائق تجاه العم أندرو.

تقول إيما محاولة استخدام نغمة أكثر هدوءًا: «لا أفهم سبب اختلاقك هذا الأمر. لم يسبق أن زارني أندرو في المنزل بهذه الطريقة، على الأقل ليس على حد علمي».

- ولكنكِ تحبينه، أليس كذلك؟

جلس جوليان في انتظار الكذبة التي لا يمكن لأمه أن تمنحها، ليس بعد الآن.

- لدي مشاعر بالفعل تجاه أندرو.

- ثم؟

- لَمْ نُحَوِّل هذا الحب إلى أي شيء أبعد من المشاعر المُجَرَّدة مراعاةً لخالتك جين.

t.me/yasmeenbook

يطلق جوليان صوتًا ساخرًا، ثم يعود للنظر اتجاه موقع البناء.

الأرض حول المبنى برتقالية اللون تشبه الطين، الذي تُكَوِّمُه آلة صفراء صغيرة على جَانِبٍ واحد. مشهد فوضوي بامتياز، ولكن معظم البَنَّائين يقفون حول المكان كالمتفرجين، كما لو أن أعمال البناء تلك أمرٌ لا يَخُصُّهم.

- إذن كنتما تكذبان على خالتي جين طوال هذه السنوات؟

تقول إيما: «لم نكذب عليها قط». وقد عاودها الغضب. «لم يكن هناك شيء لنكذب بشأنه».

- ولكنكما واقعان في الحب؛ لقد اعتَرَفتِ بذلك للتو.

- كما إننا أيضًا أناس متحضرون، لا يفسحون الطريق لمشاعرهم بلا تفكير مثل الحيوانات، هذا هو الغرض من الحضارة؛ لمنع الحيوان فينا من التصرف، لمنعنا من إفساح المجال لأبسط دوافعنا وإيذاء من نحبهم.

ليس لديها فكرة من أين تأتي خطبتها تلك. لم تتحدث قط عن الحضارة من قبل. ربما لأنها ظَنَّت أنها لا تؤمن بها. إنها مجرد نظرية، رؤية لشيء لن يتحقق أبدًا، مثل هذا المبنى الذي يقف أمامهما.

- ماذا عن خالتي جين؟

- ماذا عنها؟

- ألا تعتقدين أنها تستحق معرفة الحقيقة؟

- كل ما تحتاج إلى معرفته هو أن زوجها مخلص لها، وأن أختها تحبها. ماذا تريد لها أن تعرف أكثر من هذا؟

- لا أعرف، ربما أن زوجها لا يحبها؟ وأن أختها ليست وفية؟

- كل ما فعلناه أنا وأندرو هو الحديث معًا بشكل متواتر.

- عن ماذا؟ عَمَّا تشعران به بعضكما نحو بعض؟

- لا، تحدثنا عن كل شيء إلا هذا.

- أليس هذا سيئًا بما يكفي؟

- الخطيئة خطيئة الفكر والقول والفعل.

t.me/yasmeenbook

تتذكر الجملة، تعلم أن الخطيئة –إن كان حب شخص ما يمكن عَدُّه خطيئة– تبدأ بالفكر، أما القول والفعل، فهما وسيلتان لجعل الأمر الخاص عامًّا ومشاعًا. ولكن ألم تستحق بعضًا من حسنات على كبح جماح نفسها؟ ألم يمنحها الله أي نقاط مقابل هذا هناك في الدفتر الذي يسجل كل شيء؟ ربما يكون الإله قد قرر أن ينأى عن العالم، تاركًا لنا فكرة الخطيئة تحكمنا وتلوث دماءنا وتستمر في العالم إلى الأبد وتنتقل عبر النفوس.

- حسنًا، إذا كنتِ تخططين للزواج منه، فلا تظني أنني سأحبه أبدًا.

تريد أن تضحك، ولكنها تكبح نفسها مرة أخرى.

- ولكنك بالفعل تحبه، أليس كذلك؟

- أنا أكرهه!

- لماذا؟ ماذا فعل ليجعلك تشعر بذلك؟

- إنه كاذب، بدايةً!

مرة أخرى، يدفع جوليان إيما لتتذكّر جوناثان صورة منه. الطريقة التي كان يبتعد بها دائمًا عنها في أثناء الجدل. ربما جوليان هو نسخة من جوناثان بعد كل شيء، وسيبغضها كما فعل جوناثان.

تسأل بهدوء: «ما الذي كذب بشأنه؟» تاركة إشارة مرور أخرى ومتسولًا آخر خلفها، كانت امرأة هذه المرة منحنية بقطعة قماش على فمها، والدموع حقيقية أو خادعة.

- يعمل بمبادئ مُقَدَّسة، كناظر مدرسة أو كاهن، محاولًا دائمًا أن يبدو ككائن أكثر ذكاءً من أي شخص آخر، بينما له وجه آخر طوال الوقت، خلف ظهر خالتي جين.

- اسمع! لم يرتكب أندرو أي خطأ. إذا كان هناك أي شخص يتصرف راسمًا دور القِدِّيس هنا، فهو جينيفر، ولا أحد آخر! دائمًا تبدو كما لو كانت غير سعيدة.

- الآن أعرف السبب.

t.me/yasmeenbook

- هل تعرف فعلًا؟ لأنني على عكسك تمامًا. أعتقد أن جينيفر وُلِدَت بهذه الطريقة. ترى دائمًا ما ينقصها بدلًا مما تملكه بالفعل. الحسد بلاء حقيقي يا جوليان، يمكنه أن يأكلك حيًّا حتى تفنى روحك.

يقول جوليان وقد بدا كالنسخة الأصغر منه مجددًا: «أنا أحب خالتي جين. وأعتقد أن هناك الكثير من الأشياء الجيدة قد تبقت من روحها».

- وماذا تعرف أيضًا؟

- إنها تحبني، بطريقة لم يمكنكِ أنتِ أن تحبيني بها!

- قد يكون ذاك أمرًا جيدًا، ولكن هذا النوع من الحب يمكنني الاستغناء عنه بسهولة. أعتقد أحيانًا أنها ليست أكثر من كيس من الثعابين!

أدركت بصدمة أنهما قد وصلا بالفعل إلى مدخل المدرسة، كما لو أن شخصًا آخر كان يقود السيارة. يمران عبر بوابة الأمن ويتجهان إلى ساحة انتظار السيارات التي عادة ما تكون ملآنة بالسيارات، بينما اليوم هي شبه فارغة.

عندما نظرت مرة أخرى إلى جوليان، كان قد خرج بالفعل من السيارة، بينما رأسه ينتفض من الغضب، وشفتاه زرقاوان، وشعره مُحَبَّر كأحد رسوم أوبري بيردسلي[1].

- مشكلتكِ أنك تتفننين في إفساد كل شيء دائمًا. لماذا كان عليكِ أن تضاجعي والدها؟

- عن والد من نتحدث؟

- كلير! الفتاة التي أحببتها!

- ولكن... ولكنني لم أفعل.

يحدق إليها ولا يرمش.

- لقد دخلنا إلى غرفة الفندق. رأيناكِ. كُنتِ تفعلين ذلك في سريرنا.

- لم أكن أنا.

- ماذا؟

---

(1) رسام وكاتب بريطاني.

t.me/yasmeenbook

- كانت خالتك جين.

- أنتِ عاهرة كاذبة!

عندما تذكرت أخيرًا أن عليها أن تتنفس، كان جوليان قد ذهب. قادت سيارتها إلى المنزل عبر الطريق ذاته الذي سَلَكاه في رحلة الذهاب إلى المدرسة، متجاوزة السيدة الحدباء، والرجل ذا الذراع الواحدة، ومطعم السوشي بإمداداته اللانهائية من الطعام، ولكنها الآن تحيا في عالم جديد، حيث تتباطأ حركة كل شيء من حولها كما لو كان العالم نفسه سيتوقف عن الدوران، وكل ما كان يبدو متماسكًا من قبل، فهو على وشك أن ينجرف بعيدًا ويطفو في الفضاء. في كل مرة تتوقف عند إشارة مرور تمسك هاتفها في محاولة للوصول إلى أندرو، ولكن في كل مرة تتحول المكالمة مباشرة إلى البريد الصوتي. يبدو صوته في رسالته الصوتية أكثر رقة وجدية، وتجد نفسها لا تكره أندرو بقدر ما تكره الصوت نفسه، كما لو أن صوته قد انفصل عن شخص أندرو الفعلي، كأن ذلك بغرض التآمر ضده على ضوء الموقف الحالي. وقفت سيارته الألمانية ذات اللون الأزرق الداكن –الداكن جدًّا حتى لتَظُنُّها سوداء– ببراءة غير معهودة أمام باب منزلها الأحمر. وجدته في الاستوديو، يصنع كوبًا من القهوة. على المنضدة الرخامية رقدت علبة ورقية بنية اللون.

قال أندرو: «اشتَرَيتُ بعض السوشي».

- كيف دَخَلتَ بحق الجحيم؟

- كان الباب الأحمر مفتوحًا، فصعدتُ إلى المنزل عبر ممر الحديقة.

أدرَكَت أنه باستخدامه كلمة «صعدت»، فهو ببساطة يختبر معرفتها بالمحادثة بينه وبين جوليان. ولكن كل ما فعلته هو أنها قد أطالت النظر إليه.

- أين جوليان؟

- أوصلته إلى المدرسة.

بدا أندرو مرتاحًا.

- هل تشعرين بالجوع؟ طلبتُ طبق سمك السلمون لشخصين.

- لا يا أندرو، كما إنني أكره السوشي اللعين.

t.me/yasmeenbook

- أوه، لم أكن أعرف.

- ماذا حدث بينكما؟

كان أندرو يجلس على أحد المقاعد الخشبية محتضنًا كوبًا من القهوة. حركاته مُتَعَمَّدة، مثل طبيب. وكان بإمكانها أن ترى محاولته ليبدو أكثر هدوءًا مما يشعر به.

- لا أعرف بالضبط. سألته بعض الأسئلة، هذا كل ما في الأمر.

- بعض الأسئلة؟

- في الواقع، كان جوليان هو من يدير الحوار أغلب الوقت.

- حسنًا، يبدو أنه يكرهك حقًّا. وقد وصفني بالعاهرة الكاذبة.

- هل فعل حقًّا؟ أنا آسف.

- من أين عرف تلك القصة بحق الله؟

- أي قصة؟

- لا تتظاهر بالغباء؛ قصة زيارة الرجل المنزل. لم تكن أنت، أليس كذلك؟ لم تسمح لنفسك يومها بالدخول كما فعلت اليوم؟

- جوليان هو من أعطاني هذه الفكرة. أؤكدُ لكِ؛ أيًّا كان هذا الرجل، فلم يكن أنا. هذا إن كان هناك أي شخص بالفعل على الإطلاق. (يُميلُ أندرو رأسه قليلًا، كما لو كان يبحث بالفعل عن طرق منطقية لدفع التهمة عنه) يبدو أن خياله نَشِطٌ للغاية.

- هل تعتقد أن ذلك كله من صنع خياله؟

- ليست لدي فكرة. أظن أن تلك هي الفرضية الوحيدة، لأنه لا شيء مما قاله صحيح.

تتنقل إيما بين التماثيل الملفوفة لتملك شتات أفكارها. عليها أن تعمل الآن؛ لديها عرض بعد ثلاثة أشهر، ليس لديها الوقت للتعامل مع أيٍّ من هذا.

- على الرغم من ذلك، هناك أمرٌ ما قد ذكره نعلم أنه لم يختلقه. هناك شيء ما يحدث بيننا، يحدث منذ فترة طويلة جدًّا.

- لا، ليس صحيحًا.

t.me/yasmeenbook

- بلى، صحيح. كلانا يعلم أنه صحيح.

من الأشياء التي لم تخبر إيما أندرو بها مطلقًا أن جينيفر ووالد كلير – واسمه جون– كانا ينامان معًا خلال تلك العطلة في آمهالانجا روكس. أخبرت جينيفر إيما بذلك عندما كانتا لا تزالان في الفندق، ولكنها لم تذكر قط أن الطفلين قد فاجآهما ذات يوم.

- هناك شيءٌ عليك معرفته. هل تتذكر تلك العائلة التي تعرفنا إليها وصادقناها هناك في آمهالانجا روكس؟ تلك العائلة من خبر الحادثة التي سمعنا عنها بعد ذلك؟

- نعم، بالطبع أتذكر.

- جينيفر وهذا الرجل كانا عاشقين. كان اسمه جون.

أطال أندرو النظر إليها.

- فَكَّرتُ أنه عليك أن تعرف.

- نعم.

- يعتقد جوليان أنني أنا من كنت عشيقته، وطوال هذه السنوات ظَلَّت جينيفر تسمح له بهذا الظن.

كان أندرو ما يزال بلا حركة، بالكاد يتفاعل مع حديثها.

- ألن تقول أي شيء؟

يسأل أندرو أخيرًا: «ماذا هناك لأقوله؟ لا يفاجئني الأمر، انتظرتُ أن يحدث شيء مشابه منذ فترة. كنتُ أنتظر أن ترحل مع شخص آخر».

- وأنت؟ ماذا عنك؟ لماذا لم ترحل مع شخص آخر؟

قال: «لأن الشخص الوحيد الذي أردتُ الرحيل معه هو الشخص الوحيد الذي لا يمكنني أن أرحل معه فعلًا». قالها بينما كان لم يزل مُحَدِّقًا إليها، وقد اتسعت عيناه مع ما بدا في حدقتيه وكأنه رعب. «يبدو كما لو أن جوليان يحاول جمعنا معًا، من خلال إصراره على الحكي عن الأشياء التي أنكرناها فترةً طويلةً جدًا».

- كنا نحاول حمايته.

t.me/yasmeenbook

- ربما لم يعد في حاجة إلى حمايتنا، أو حتى يرغب فيها.

تنسحب مرة أخرى إلى وسط التماثيل، التي تنتظر هناك، صامتة ومكسوة بلفَّاتها البيضاء. تتنقل بينها كما لو كانت بين مجموعة من الصخور؛ تأوي إلى ركن آمن يمكنها من خلاله مراقبة السهول والجحافل التي تتقدم عبرها عازمة على اغتيالها.

- صدقني، آخر شيء يريده هو أن نكون معًا.

يقول أندرو بينما لا يرفع عينيه عنها: «ولكن ماذا لو كان هذا ما يريده بالفعل؟ ماذا لو اختلق كل هذا لأنه يريد لذلك أن يحدث؟ ماذا لو كان كل ما يريده من هذا هو أب يشاركه حياته؟»

- وجينيفر؟ يقول إنه لا يريد أن تتأذى جينيفر.

- بل ربما يرغب في ذلك. ربما يريد أخيرًا تقليل قوتها، أو يريد أن تكون كل حياتها من أجله فقط. من يعرف؟

تمسك إحدى المنحوتات، التي تبدو كأنما لمستها قد أعادت إليها بعض الحياة.

- لا أعرف ما الذي يحدث، لماذا يجب أن يعني كل شيء نقيضه؟

- ماذا تقصدين بذلك؟

- إخبارك عن أنك تظنُّه يحبك لأنه يكرهك، ويكره جينيفر لأنه يحبها، ولا يريدنا أن نكون معًا لأنه يرغب في ذلك بالفعل!

- لطالما عانى جوليان بعض مشكلات التعلق المُعَقَّدة.

- وأعتقد أن هذا خطئي؟

- حَاوَلتِ دائمًا أن تجعليه يعرف أنه محبوب.

- كلانا يعرف أن هذا هراء يا أندرو. لقد ضحينا به. سلمناه إلى زوجتك.

- لم نفعل ذلك مطلقًا.

- فعلنا ذلك بدافع الشعور بالذنب.

يسأل أندرو بينما يقترب من إيما: «الذنب تجاه ماذا بالتحديد؟» ولكنه لا يجرؤ على الإمساك بيدها. «قوليها يا إيما».

t.me/yasmeenbook

- على وقوعنا في الحب.
- على وقوعنا في الحب؟
- نعم.

فعلًا، لا تعرف إيما أيهما بدأ في التحرك باتجاه الآخر، ولكن جسده كان بين ذراعيها الآن، وقد أدركت الآن أن هذا الجسد هو بالتحديد النموذج الذي تقوم بنحته منذ سنوات، هذا الجسد، منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها نحت تماثيل الرجال. وبدأت في خلع ملابسه عنه كما لو أنها تمزق اللفائف عن إحدى أعمالها الفنية. تعرف بالفعل طَيَّات جسده، لقد اختبرت بالفعل كل تفصيلة فيما مضى بين يديها.

- ماذا عن جوليان؟
- ماذا عنه؟
- ماذا سنقول له؟
- سنخبره بالحقيقة.
- سنخبره بالحقيقة غدًا. هل تعدني؟
- غدًا سنجعله يتفهم الأمر.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل الخامس

الكاميرا ذات العدسة المقرّبة - أندرو جوهانسبرج

اعتاد أندرو زيارة مسبح ذي مياه مالحة كل صباح لينفرد بتدريبات التَنَفُّس التي يمارسها. كان دائمًا رياضيًّا بالفطرة، مثل والده. كان لهما تقليدٌ سنوي بالسباحة معًا، وعندما كبر أندرو حَوَّلا دَفَّة التدريبات إلى البحر المفتوح مباشرة. في العادة يغادر أندرو المنزل قبل أن تستيقظ جينيفر ويقود سيارته إلى صالة الألعاب الرياضية القريبة. يضم المسبح مبنى من الزجاج الأخضر محاطًا بطريق مزدحم بحركة مرور سريعة. يسبح أندرو صاعدًا وهابطًا تحت سطح الماء في ذلك المكان اللامع بلونه الأخضر الغريب مدة ساعة بالضبط، يسبح بلا أي فكرة عما يسبح نحوه. يشعر أحيانًا حينها أنه تحول إلى أبيه. يسبح عائدًا بين ذراعي أبيه وساقيه ومحاطًا بأنفاسه. قرأ ذات مرة أن الرُضَّع في الرحم يملكون خياشيم ويتنفسون الماء. ربما كانت ذكرى أمه هي مَا يسبح حقًّا باتجاهه، أم نحو أبيه مثلًا.

أما اليوم، فهو يفكر في الكاميرا ذات العدسة المُقَرِّبة التي أعطتها جينيفر لجوليان في عيد ميلاده الخامس عشر. كانت في الواقع كاميرا أندرو، وكانت جينيفر قد منحتها هدية لأندرو نفسه قبل سنوات في عيد ميلاده أيضًا، ولكن أندرو بالكاد أخرجها من صندوقها. كانت الكاميرا مزودة بعدسة قياسية مقاس 50 ملم، واشترت جينيفر عدسة تكبير جديدة مقاس 16-300 ملم

t.me/yasmeenbook

تناسب طرازها. كانت العدسة غالية جدًّا، تمامًا كعلاقة جينيفر وجوليان، ولكن على الأقل سيتم استخدام الكاميرا أخيرًا. الآن لا يمكن لأندرو التفكير في شيء يرغب في تصويره، أو في الحفاظ عليه ضد تسرب الوقت المستمر وجريانه؛ هو راضٍ عن السباحة عبر ضوء الزمرد شاعرًا كما لو أنه داخل رحم أمه لم يولد قط. أول كاميرا حصل عليها أندرو كانت هدية من أبيه.

كانت الكاميرا من نوع «بنتاكس»، النوع الذي يتم ربطه دائمًا بأخبار الطائرات والتقاط الصور الجوية. على الأقل، هذا ما قاله لهما الرجل في المتجر. عندما كانت الكاميرا لا تزال جديدة، أسقطها أندرو في تيار نهر دراكنسبرج في أثناء رحلة مدرسية. أنقذها بعدها، ثم هَزَّ عنها ما علق بها من مياه، ووجد أنها ما تزال تعمل بكفاءة تامة. لا يزال محتفظًا بالصور التي التقطها في تلك الرحلة إلى قمة الكاتدرائية؛ صور شاحبة باللون الأصفر والأزرق الباهت. جميع الأولاد الذين ظهروا في الصور قد اختفوا في العالم الواسع منذ فترة بعيدة، دُفِنوا عميقًا في مكان ما داخل أجساد منتفخة لرجال في منتصف العمر، ولكن الكاميرا ظلت على حالها في درج مكتبه. أخرجها مؤخرًا وفك غلافها الجلدي وأخذ يتفَقَّد أزرارها، التي سطعت ببريق لامع مشرق كما كانت في اليوم الأول الذي حملها فيه بين يديه وقلبها بهذه الطريقة، وشم رائحة الزيت والجلد. لا يزال يتذكر كيفية تشغيل الكاميرا. مقياس الضوء بإعداداته المختلفة، اعتاد أن يلتقط معظم الصور بمقياس 125، أو 250. تَفَقَّد أيضًا الزر الذي من المفترض النقر عليه لفتح العلبة التي تحمل الفيلم. أزال غطاء العدسة، وركز على نافذة مكتبه، المزدحمة زواياها بشجيرة الياسمين النجمية، والتقط صورة على الرغم من عدم وجود فيلم بالداخل. شعر فقط ببطء في حركة العدسة، وعندما نظر إليها من كثب، وجد أن بعض رمال الشاطئ عالقة بداخلها من آخر عطلة طويلة منسية. ربما لم تكن الكاميرات هي من شغلت تفكير أندرو هذا اليوم بقدر ما كانت تشغله صورته صبيًّا اعتاد السباحة مع أبيه كتقليد سنوي في وقت لم يحمل فيه أي هم. تُوفي أبوه منذ عشر سنوات، وما زال أندرو يشعر بحزن دفين لفقدانه. عُثِرَ على أبيه في حمام شقته وملابسه الداخلية تلتف حول كاحليه، ميتًا من سكتة دماغية مفاجئة. قال الجميع في ذلك الوقت إنها طريقة جيدة للرحيل عن العالم. مات قبل أن يتمكن من رفع سرواله. ولكن أندرو وجد طريقة موته

t.me/yasmeenbook

مؤلمة؛ هذه الخسارة النهائية للكرامة، والضعف والعجز في تلك الصورة. بحلول الوقت الذي وصل فيه أندرو لرؤيته، كان المسعفون قد وضعوه على أرضية الحمام ووضعوا فوقه بطانية قديمة. كان كل ما ظهر من جسده هو شعره الرمادي وساقاه الصفراوان الطويلتان في نهاية طرفَي البطانية.

عندما استدعى أندرو الشجاعة لسحب البطانية إلى أعلى لينظر إلى وجهه، كان لا بد من نزع قماشها عن خده، الذي ربما التصق عالقًا في دموع أبيه الجافة. بدا أبوه عجوزًا جدًّا، مستلقيًا هناك ووجهه عبارة عن جراب متجعد تخلى عنه صاحبه لقدمه. دون روحه التي جعلته راقدًا بلا حراك، لم يكن أبوه أكثر من شيطان مُرَوِّع من العالم السفلي. وجهه مسحوب إلى جانب واحد كما لو أنه جاء سابحًا بسرعة كبيرة عبر عمق غامض. يعتقد الناس أن السباحة رياضة نظيفة، لا تسبب بثورًا، أو تنتج عرقًا، يصير الجسم معها رمحًا ديناميكيًّا مائيًّا يخترق اللون الأزرق الفضي، ولكن أندرو يعرف خلاف ذلك. تمتلئ المياه بدوامات من البصاق والمخاط من السباحين الآخرين. عندما كان صبيًّا يسبح مع أبيه في السد أو البحر، كان دائمًا واعيًا للوحوش الرمادية غير الواضحة التي تدور حوله في الظلام، والتي تنجذب إلى كاحليه. أن تكون سباحًا هو أن تعيش في عالم ضبابي من اللاوعي، حيث لا توجد بداية ولا نهاية، ولا شيء يمكن فهمه تمامًا. ولكنه يحب الشعور بنفسه في المسبح، ويضمن دائمًا أن تكون لَفَّته الأخيرة باهرة. يبلغ عمره حاليًّا ضعف عمر معظم السباحين الآخرين، ويسعده دائمًا أن يدرك مدى سهولة تفوقه عليهم. نظرًا إلى أنه يكون بمفرده معظم الوقت خلال النهار –إلا في حالة انشغل مع أحد مرضاه– يحب أندرو أن يأتي إلى هذا المسبح، متذكرًا طعم طفولته، الذي يستشعره ذائبًا في الماء، حتى لو بدا المسبح أشبه بعينة بكتيريا ضخمة. بينما يغتسل بعد خروجه من الماء، يشعر بأنه يغسل جسد والده بذكرياته الحبيبة عنه، يشعر وكأنه رجل جديد، رجل متجدد، بحياة كاملة لا تزال أمامه.

يحاول العودة إلى المنزل فقط بعد أن يتأكد أن جينيفر قد غادرته. سيجد فنجان قهوتها راقدًا جنبًا إلى جنب مع كأس نبيذ الليلة الماضية ومنفضة السجائر في مغسلة المطبخ، وأحمر شفاهها ملتصقًا في علامة على الكوب

t.me/yasmeenbook

مثل العضة، ويحييه كلبا اللابرادور –واحد بلون الشوكولاتة والآخر أسود– كما لو كان آتيًا من رحلة طويلة. يكون المنزل في أفضل حالاته عندما تنطفئ الأضواء وتبدأ أشعة شمس يوم جديد في اختراق أوديته. في مثل هذه اللحظات، لا يملك المنزل أي لمحة تخص أصحابه. فيتنقّل أندرو من غرفة إلى أخرى وكأنه مشترٍ مُحتَمَل، متخيلًا أن السكان الحاليين قد غادروا بالفعل. ولكنه سرعان ما يعود إلى حياته القديمة بفضل أحد آثار جينيفر وتَدَخُّلاتها في المكان؛ عاكس الضوء الأزرق والفيروزي الذي اشترته من فرع «تيفاني» في جنوب إفريقيا، أو وعاء من الورود الصفراء لنبات متسلق ارتفع فوق المرأب، أو ملاحظة تركتها على الثلاجة لتذكيره لإخراج القمامة، وهو ما يفعله صباح كل جمعة دون أن يفوته ذلك ولا مرة. يستخدم هذا الوقت وحده لتغيير ملابس العمل. بنطلون جينز جيد وأحذية تشيلسي وقميص من الكتان، ثم يصنع لنفسه كوبًا كبيرًا من القهوة، ويدخل إلى متاهة شجيرات الورد المقطوعة في حديقة جينيفر عائدًا إلى مكتبه. يشغل المصباح على مكتبه، وإما أن ينظر إلى الأخبار الصباحية على جهاز الكمبيوتر، وإما أن يتفقد صفحات دفتر ملاحظاته لإعداد نفسه لمقابلاته اليومية مع مرضاه. أول مريضة سيراها هذا الصباح هي امرأة تدعى جانيت. رأى أندرو مؤخرًا زوج جانيت وهو يغادر بيتًا للدعارة في منزل بسيط في ضاحية قريبة. عرف أندرو أنه زوجها لأنهما حضرا صفًا لعلاج الأزواج بضع جلسات، وكان يعلم أنه بيت دعارة لأن مريضًا آخر لديه كان قد اعتاد الذهاب إلى هناك وذكر العنوان. كان زوج جانيت يخرج من منزله في سيارة بيجو رمادية قد أعاد تصميم هيكلها على هيئة قرش رملي. تتمتع جانيت ببنية شخصية تظن في نفسها باستمرار كونها يائسة وغير مرضية، وقد شجعها أندرو على إيجاد طرق لتصبح أكثر استقلالية. نظرًا إلى حاجة أندرو إلى أن يكون مفيدًا لمرضاه ورغبته في إصلاح كل شيء، كان يسمع نفسه أحيانًا بينما يمنح جانيت نصائح وَدَّ لو عملت بها جينيفر نفسها. رجل آخر حدد أندرو ميعاده هذا الصباح؛ مريض لطيف الحديث، يتحدث اللغة الإفريقية، يُدعى دانيال، وهو مُرَمِّم أثاث تعرض لاغتصاب وحشي عندما كان طفلًا، ومنذ ذلك الحين أوقف نشاطه الجنسي وعامله معاملة الكتب المحظور قراءتها. عندما يشعر دانيال بذروة متعته الجسدية، يُصابُ بالصداع النصفي الفوري الذي يمكن أن

t.me/yasmeenbook

يستمر مدة ثلاثة أيام، كما لو أن جسده يخبره أن الجنس، أو نشاطه الجنسي، هو خطأ بطبيعته.

يتحدث دانيال مع أندرو عن كل شيء ما عدا الجنس. ومع ذلك، يعرف أندرو أن هذا كل ما يفكر فيه. يعيش دانيال بشكل أساسي على الطعام الجاهز الذي يتم توصيله إلى منزله، ويبالغ جدًّا في التحقير من نفسه والإعلاء من شأن أندرو.

يحاول أندرو أن يصمم خطة علاج لدانيال للتأكيد على سلامة صحته النفسية والجسدية، وليوفر أيضًا إطارًا يمكنه من خلاله استكشاف رغباته، بما في ذلك انتقاله الجنسي إلى مرحلة السلامة النهائية. يأمل أندرو في بناء غرور دانيال إلى النقطة التي سيتوقف عندها عن الحاجة إلى تمجيد أندرو –والوجبات الجاهزة– وتعلم الطبخ بنفسه. يجد أندرو نفسه أحيانًا يعطي دانيال النصيحة التي يتمنى أن يعمل هو بها. ولكن مريضته الأخيرة في جدول جلسات اليوم الصباحية هي أكثر من يسبب له هذا الشعور بالقلق. في دفاتر ملاحظاته، سَجَّلَ أندرو اسمها: «ماريان إكس»؛ وهي طالبة في السنة الثالثة في الجامعة، وتدرس الأدب والفلسفة، ويشعر أندرو في غالبية الوقت وكأنها الابنة التي لم ينجبها هو وجينيفر قط. ماريان فتاة شاحبة ذات شعر أشقر، تقوم بلفه ورشقه بالدبابيس على رأسها المرفوع فوق رقبتها النحيفة كأعناق الراقصات. تجلس الفتاة عادة على الأريكة الجلدية رافعةً ساقيها، متحدثةً بمهارة عازف البيانو في الحفلة الموسيقية. ظَلَّت ماريان إكس أكثر طلبة صَفِّها تفوقًا منذ أن كانت فتاة صغيرة، وهي قادرة على أن تبدو دبلوماسية للغاية حين الحديث عن إنجازاتها، رغبة منها في أن يحبها الجميع. لديها صديق جاد ذو شعر طويل يعزف على الجيتار، بيد أنه لا يعرف شيئًا عن حياتها الداخلية. تَدَّعي ماريان إكس أنها غير قادرة على الشعور بأي شيء –لا الحب، ولا الخوف، ولا الحسد، ولا الاستياء– ومع ذلك فهذه هي المشاعر التي تخشاها أكثر من غيرها. تشعر أنها إن صادفت مثل هذه المشاعر في أي مكان قريب فسوف تلتهمها. مرت حياتها مثل عازفة البيانو في الحفلة الموسيقية؛ قادرة على عزف أي لحن وتحريك كل مستمع برِقَّة وعاطفية، بينما تظل هي منفصلة تمامًا. تُذَكِّرُ أندرو بالفتاة الصغيرة

t.me/yasmeenbook

يونج[1] ، التي كانت تبيع الكبريت في منتصف الشتاء، ولكنها ترفض دخول دفء منازل الآخرين. عُثِرَ على الفتاة الصغيرة ميتة في وقت لاحق في الثلج. يجد أندرو صعوبة متزايدة في تخفيف مشاعره تجاه هذه المريضة بذاتها. يجد نفسه يحاول أن يمنحها الكثير بلا وعي –الدفء الذي تخشاه وتتوق إليه– وربما هذا هو السبب في أنه غالبًا ما يشعر بأنها طفلته التي راحت عليه فرص إنجابها. يمكن للاثنين التواصل بشكل أفضل عندما يتحدثان عن مواضيع منفصلة عن اهتماماتها الحالية –مثل الأدب والفن المرئي–. وقد ارتكب أندرو مؤخرًا خطأ قبوله كتابًا صغيرًا من الشعر أهدته إليه الفتاة. يحظر تبادل الهدايا في سياق العلاج. من المفترض أن يوفر المعالج مساحة مستقلة للمريض، وليس من المفترض أن يكون متاحًا كشخص في العالم يمكن التعامل معه كشخص حقيقي ذي فعل ورد فعل. في ظل الظروف العادية، يمكن أن يكون هذا النوع من عبور الحدود ضارًّا بما يكفي بخطة العلاج، ولكن في حالة ماريان إكس قد يكون قاتلًا. في نهاية جلستهما الأخيرة، بعد فترة وجيزة من استلام أندرو الهدية –القصائد المختارة للراحل توماس ترانسترومر[2] – هددت ماريان إكس مرة أخرى بشنق نفسها. قالت إنها تعلم أنها ستنجح في هذا لأنها نجحت دائمًا في كل شيء. يلتقط أندرو كتاب القصائد وينظر إلى صورة الغلاف للشاعر نفسه، ذي الشعر الرمادي والمظهر الوقور، وعينيه ذاتي اللون الأزرق الخزفي، لون الغلاف الخلفي للكتاب ذاته. يفتحه على صفحة عشوائية ويقرأ:

«ها أنا آتٍ، الرجل الخفي، وُجِدتُ في الحياة بخطّة من ذاكرة أبدية لأعيش اللحظة الحالية.

أقود سيارتي أمام كنيسة بيضاء أغلقت أبوابها. بجوارها يقف قديس من خشب، مبتسم لكن عاجز، كما لو أنهم قد نزعوا عنه بصيرته».

يدرك أندرو الآن فقط أن الشاعر يشبه والده؛ الذي –مثل الرجل في الصورة– لم يكن في حاجة قط إلى ارتداء النظارات. هذه معلومة لم يكن

(1) «يونج» بائعة الكبريت، بطلة قصة الشاعر والكاتب الدنماركي هانز أندرسن.

(2) توماس جوست ترانسترومر، شاعر وطبيب نفسي ومترجم سويدي الأصل.

t.me/yasmeenbook

متاح لماريان إكس معرفتها. يحرص أندرو على إبقاء الأشياء في مكتبه فارغة من المعنى وغير شخصية قدر الإمكان. والمقصود منها أن تكون طوطمية ورمزية: الأريكة، والمصباح، والهاتف، والمفكرة، والقلم. اليوم سيعيد الهدية إلى ماريان إكس، وسيحاول إيجاد طريقة للتفكير في التواصل معها على نحو آخر دون أن يشعرها بأنه يرفض اقترابهما كأشخاص. كان يودِّع دانيال بعد انتهاء جلسته، عندما بدأ الهاتف في مكتبه الرنين. كان قد تبقى ساعة على ميعاد وصول ماريان إكس، التي اعتادت الحضور دائمًا في الوقت المحدد بالضبط.

القليل من الأشخاص يعرفون رقم هذا الهاتف. يحتفظ أندرو به لحالات الطوارئ، للمرضى الذين قد يحتاجون إلى الاتصال به في أي وقت من النهار أو الليل. رفع السماعة بينما يتوقع صوت ماريان إكس، فقط ليجد جينيفر تتصل.

- أندرو؟ سأعيد جوليان معي إلى المنزل اليوم.
- حسنًا.
- أودُّ أن تقضي بعض الوقت معه.
- عَفوًا؟
- أرغب في أن تتحدث معه قليلًا، زوجًا لخالته، رجلًا لرجل، لا محللًا نفسيًّا.
- ولكنني محلل نفسي بالفعل، إذا كان الصبي في حاجة إلى مساعدة متخصصة، يمكنني إحالته إلى زميل آخر بسهولة.
- أعتقد أنه يحتاج إلى التحدث إلى شخص يعرفه.

تتوقف هي عن الحديث قليلًا بينما تنفث دخان سيجارتها. تبدو جينيفر منزعجة أكثر من المعتاد.

- ماذا يحدث؟
- لدي شعور بأن هناك شيئًا يود أن يقوله لك.
- وما هو هذا الشيء؟
- هذا أمر عليك اكتشافه ومناقشته.

t.me/yasmeenbook

يجلس أندرو على كرسيه الآن. ينظر إلى اللوحة البيضاء التي رسمتها إيما عندما كان لا يزال طالبًا في لندن، وقد منحتها أندرو وجينيفر هدية زفاف. لطالما أحب اللوحة أكثر مما أحَبَّتها جينيفر، وعلى الرغم من أنها لم تكن تدور حول أي شيء –قالت إيما ذات مرة إنها تدور حول الوجود، حول الوجود في الوقت الحاضر– شعر أندرو دائمًا بعلاقة غريبة بينه وبين اللوحة. وضعها فوق الأريكة، حيث يمكن أن يراها هو بينما لا يستطيع مرضاه رؤيتها. يفكر أحيانًا في اللوحة على أنها نافذة صغيرة مخصصة له فقط.

- ما الذي يمكن أن نناقشه أنا وجوليان؟ نادرًا ما تحدَّثَ معي بأكثر من كلمتين. لماذا يريد التحدث الآن؟
- يمكنك التحدث إليه بنفسك لاكتشاف هذا كما قلت.
- هل يتعلق الأمر بالكاميرا؟ لأنني أستطيع أن أخبرك الآن أنه ليست لدي أي فكرة على الإطلاق عن كيفية استخدامها. لقد اعتدت استخدام الكاميرات اليدوية حيث تقوم بإجراء جميع تعديلات الضوء وضبط التركيز بنفسك. أنا متأكد من أن جوليان يمكنه البحث عن كيفية عملها على الإنترنت.
- لا يتعلق الأمر بالكاميرا، وإنما بجوليان نفسه.
- حسنًا.

استنفدت جينيفر ومؤامراتها صبر أندرو بعد وقت قصير من لقائهما أول مرة. قبل أن يتزوجا، كان يعتقد أنها ستستقر وتتعلم أن تثق به، وتنضج في هدوء، ولكن على مر السنين أصبحت شخصيتها أسوأ.

- متى عليَّ أن أتحدث معه؟
- ربما خلال استراحة الغداء؟
- لقد رَتَّبتِ للأمر كله بالفعل، أليس كذلك؟
- لم أرتب لأي شيء يا أندرو.

قال في نفسه بينما ينهي المكالمة: «وكأنكِ لا تفعلين ذلك دائمًا».

مَرَّت جلسته مع ماريان إكس بسهولة أكبر من المتوقع. قبلت عودة الهدية بلطف، بلا أي خيبة أمل واضحة، وأخبرته أنها تقدر موقفه المهني تمامًا.

t.me/yasmeenbook

غالبًا ما شعر بصمت يلفُّ الحوار بينهما ويملؤه يأسًا من طرفها، ولكن اليوم هناك شيء مختلف. تضع ماريان إكس الكتاب في حقيبتها الجلدية، وتبدأ في الحديث عن أمها –المحامية الناجحة التي كانت دائمًا بعيدة عن المنزل– بحديث سهل لم تتمكن من التحكم فيه من قبل. يهتم نهج أندرو محللًا نفسيًّا بكيفية تحول المؤثرات الخارجية –الأم، والأب، والمنزل، والكاميرا، وكتاب الشعر– إلى مؤثرات داخلية. يحاول أن يفهم كيف يتم تصور وتنظيم المشهد الداخلي لكل مريض. يمكن تحديد سيرة شخص ما من خلال استكشاف كيفية استبدال كائن داخلي بآخر، أو إزاحته، أو تعويض نقصه، أو عدم موثوقيته، أو في بعض الأحيان تكرار افتقاره إلى المنطق من أجل جعل الكائن البديل يبدو أكثر قابلية للتنبؤ بتصرفاته وأقل تهديدًا. غالبًا ما يمنح المريض الكائن المفقود الطابع المثالي، تعويضًا للذات بشكل مفرط عن خسارته، وإشارة إلى تركيزه على غيابه. تتلخَّص مهمة أندرو في استعادة تلك الأشياء المفقودة، والتي يسقطها المريض على مؤثرات خارجية حُرَّة الحركة، ذات طبيعة جامدة أو من لحم ودم. الأم ليست أمًّا فقط، هي أشخاص كثيرون لتعدد تأثيرها على نفسها والآخرين من الناس. كانت أم ماريان إكس امرأة باردة على ما يبدو، ولكنها بارعة؛ إذ أهَّلَتها نحو سلسلة من الأحداث أدت بها إلى أن تكون الشخصية المناسبة لتوقعاتها نفسها.

استطاع أندرو قرب نهاية الجلسة أن يكتشف أن ماريان إكس كانت تتظاهر بأنها أمها من أجل حماية نفسها من أن تكون الطرف المتلقي أفاعيل الشخصيات المشابهة لأمها. لقد اختارت صديقها ذا الشعر الطويل حتى تتمكن من عكس الديناميكية التي عاشتها عندما كانت طفلة، حيث يحاول الفرد المخلص والمحب الذي يشعر بأنه أقل مكانة من الطرف الآخر الوصول إليه وامتلاك احترامه من خلال تقديم المزيد من العطاء والعاطفة. كانت رغبة أندرو في إيصال رسالة إلى ماريان إكس تفيد بأنه من أجل أن تشعر بالحب فهي في حاجة أولًا إلى التعامل مع نفسها بكونها محبوبة بالفعل. قبل أن تكون قادرة على تقديم هدية أو عطية، فهي في حاجة إلى أن تكون قادرة على تلقي واحدة، ليس من أجل أن تمنح نفسها أهمية وخصوصية لدى الآخرين، ولكن من أجل رؤية نفسها بشكل أكثر وضوحًا؛ ليس فقط من خلال هذه الهدية الواحدة، ولكن من خلال مجموعة الهدايا والمنح التي حصلت عليها

t.me/yasmeenbook

على طول حياتها. ربما كانت أمها مخيبة للآمال، ولكنها قدمت لها هدايا لا حصر لها على مر السنين. لقد أهدتها جسدًا عندما ولدتها، وأهدتها اسمًا، لقد علمتها المشي والتحدث. بمجرد أن تعلمت ماريان السباحة، قادتها أمها إلى البحر، وأخذتها إلى دروس ركوب الخيل ودروس التنس، والباليه، والجمباز. اشترت لها كل زوجين من الأحذية التي كانت ترتديها عندما كانت طفلة، وأعدت لها ما لا يقل عن عشرين ألف وجبة –قام أندرو وماريان بحساب عدد الوجبات بحساب سنوات عمرها–، ووفرت لها دهانًا لكل جرح أصابها، والحبوب لكل صداع. كانت هناك عندما فقدت ماريان سنها الأولى، وكانت هناك عندما أُزيلت كل ضروس العقل تحت تأثير مخدر موضعي، واشترت لها كومة من الكتب في طريقها إلى المنزل تعويضًا. كان فم ماريان آنذاك لا يزال ممتلئًا بالأنسجة المبللة بالدم بينما تختار كتبها من جميع أنحاء المتجر. ربما كانت أمها غائبة في العديد من المناسبات؛ الحفلات الصباحية عندما فازت ماريان عمليًّا بكل جائزة أكاديمية، وفي المساء الذي كانت فيه ماريان تستعد لحفلتها الثانوية الراقصة، ولكن بين فترات الغياب تلك، تمكنت من تقديم وفرة عظيمة من الهدايا. من خلال تذكر ماريان هذه الهدايا، مهما كانت طفيفة ومهما كانت فترة تباعدها، يمكن أن تستعيد مشاعر حبها لأمها. أخبرها أندرو أن الهدية ليست وجهة في حد ذاتها، ولكنها وسيلة لتحقيق غاية؛ نقطة انطلاق نحو مكان آخر. ولكن في النهاية، عرف أندرو أيضًا أن ماريان إكس كانت أكثر ذكاءً منه. عندما سمح لها بالرحيل بعد انتهاء الجلسة، كان يشك في أنها كانت تخدعه بلطف فقط، لتجعله يشعر بنجاحه في تقديم الفكرة إليها حتى يتركها في سلام.

كان أندرو يمضغ قطعة من المانجو المجففة عندما وصلت جينيفر مع جوليان، وكان يرتدي سترته المدرسية على كتفيه بشكلٍ غير متساوٍ، وخصلة الشعر المصبوغة لا تتماشى تمامًا مع وجهه. يبدو كل شيء بشأنه مختلفًا ومرئيًّا من زاوية غريبة اليوم، كل شيء باستثناء نظرته حين يدخل الغرفة، كيانًا مترقِّبًا، مثل شخص يُطلَبُ منه الغوص في بركة مظلمة. لطالما كان جوليان صبيًّا ملتزمًا ومهذبًا ومتحفظًا، وغامضًا.

t.me/yasmeenbook

تقول جينيفر: «هذا هو مكتب العم أندرو. لا أعتقد أنك أتيت إلى هنا من قبل».

ارتدت جينيفر فستانًا أزرق باهت اللون وسترة محبوكة بألوان مختلطة تتدلى بشكل فضفاض للغاية على هيكلها. تبدو وكأن أعصابها اليوم على الحافة، وحركاتها متوقعة على غير العادة، ولكنها ما زالت قادرة على إضفاء النغمة الحماسية التي تحب أن تصدح بها حول الصبي.

يقول جوليان: «لا».

- حسنًا، تعال. اجلس على الأريكة يا جوليان.

ينظر جوليان إلى الأريكة بريبة. قصد أندرو أن تكون مريحة، ولكنها ذات هيئة جامدة بما يكفي لعدم تشجيع أي شخص على البقاء هناك فترة طويلة. يبدو جوليان صغيرًا جدًّا مقارنة بالأريكة الضخمة حين ينتحي مُنكَمِشًا في أحد أركانها، بينما ركبتاه اللتان خُدِشَت إحداهما مؤخرًا قد انحنتا إلى الأمام بطريقة تجعله يبدو مأخوذًا ومتوترًا، كما لو كان في أي لحظة قد يقرر الانسحاب من الغرفة. عندما نظر أندرو نحو الباب، كانت جينيفر قد رحلت بالفعل. تحب هي الوصول ومغادرة الغرف دون جلبة، وغالبًا ما تنسى إلقاء التحية أو الوداع. كان ذلك يزعج أندرو فيما مضى، ولكنه تعود، حتى إنه كثيرًا ما صار يفعل الشيء نفسه معها مؤخرًا.

- أحببت حفلة عيد ميلادك، وخاصة كعكة الشوكولاتة اللذيذة التي صنعتها والدتك، مع توت العليق وزينتها بالسكر والشوكولاتة المذابة على سطحها.

- لا أحب زينة السكر العادية، لذلك اخترتُ خلطة بالنكهات الأخرى.

في بداية زواجه، كان أندرو هو الذي يقوم بمعظم الطهو. لطالما كانت جينيفر هي الأكثر احتياجًا إلى التغذية. إحدى طرقها لممارسة السيطرة عليه كانت إما أن تطلب منه صنع وجبات لها وإما أن ترفض تناول الطعام الذي يصنعه، خاصةً لأنه أصبح أقل اهتمامًا بالمفاوضة معها فيما يخص علاقتهما.

t.me/yasmeenbook

- لقد تحسنت قدرات والدتك في الخبز على مر السنين، حين تعرفت إليها كانت تصنع كعكات يمكن إدراجها ضمن نطاق الكوارث. أفتَرِضُ أنها لا تملك الكثير من الوقت لإتقان حسابات كل تلك المقادير.

كان جوليان جالسًا ينظر إليه بتشوُّشٍ واضح، لطالما كان أسهل عليه الجلوس برفقة أمه أو خالته. يجلس أندرو على كرسيه مزيلًا بإبهامه خيط المانجو المجفف العالق بين أسنانه، على أمل ألا يلاحظ الصبي ارتباكه، ولكن هذا الطفل لا يفوِّتُ أي شيء.

يقول أندرو بينما ما يزال يأكل المانجو: «الخامسة عشرة مرحلة عمرية مهمة. أنا مثلًا أبلغ من العمر ثلاثة وخمسين عامًا. لا شيء مهم في عمري هذا، أليس كذلك؟»

يبدو الصبي جادًّا جدًّا، كما لو أنه هنا فقط في أثر مزحة يمارسها شخص بالغ سقيم. يحاول أندرو أن يبتسم مانحًا إياه بعض التشجيع، ولكن جوليان يطلق زفيرًا عاليًا وكأنه على وشك الضحك، أو ربما البكاء.

- لا يحدث شيء في سن الثالثة والخمسين، إلا إنْ كان الحدث يخص طلاقًا، أو مرضًا خطيرًا، أو ربما سكتة دماغية مفاجئة. ولكن في سن الخامسة عشرة، أنت في مرحلة تحاول فيها تنحية طفولتك جانبًا، إذ بدأتَ في اختبار الرجل الذي ترغب في أن تصبح.

يعلم أندرو أنه يبدو مملًّا للغاية كناظر مدرسة. الحقيقة هي أنه تمامًا كجوليان، يشعر بالراحة أكثر في التعامل مع النساء، وعادة ما يحقق نتائج طيبة مع مريضاته من النساء أكثر مما يفعل مع الذكور. كان أندرو مترددًا دائمًا في لعب أنواع الأدوار التي يتوقعها منه معظم الرجال الآخرين. تقول جينيفر إنه لا يحب المرضى الذكور لأنه لا يستطيع مغازلتهم، وإنه لا يعرف كيف يتفاعل مع المرء دون مغازلته، ولكنه يرى أن رأي جينيفر ينبع من كونها لا تعرف من الأصل ما هي المغازلة. كانت تفتقر بشكل فريد إلى البراعة المطلوبة للمرح أو الفكاهة. يحاول أندرو الآن تَحَمُّلَ امتعاض جوليان؛ إذ يمارس معه طريقةً استخدمها من قبل مع مرضاه الأصغر سنًّا، أو الأكثر شراسة، حيث يصير التعامل معهم أسهل بمجرد أن يتخلوا عن حذرهم فور أن ييأسوا منه ظانين فيه الحماقة.

t.me/yasmeenbook

لاحظ أندرو أن انتباه الصبي قد تشتت بالفعل.

- أهم ما في كونك قد بلغت الخامسة عشرة هو أنك ستتذكر تلك الفترة بقية حياتك، ستعود إلى ذكرياتك عنها دائمًا، لتنظر إلى أحداثها من زوايا مختلفة، وتختبر نفسك في مواجهة تفسيراتك المتطورة دائمًا عنها. (يُكمِلُ أندرو مطلقًا مزحة متوقعة) أما إن كُنتَ في عمري، فسوف تبذل قصارى جهدك لتنسى ما يحدث حولك.

كانت ابتسامة جوليان طفيفة للغاية، حتى إنك لتظنه عابسًا لا مبتسمًا. يتقلَّبُ في مكانه مجاهدًا صلابة الأريكة، محاولًا إيجاد زاوية أفضل يمكنه من خلالها تحمل الدقائق الثلاثين التالية. لطالما تمتع جوليان بأثر ورثه من جمال أمه، بدا الاثنان منزعجين كأنهما قد قضيا للتو ليلة من النوم المتقطع.

- ماذا أهدتك والدتك؟

- عفوًا؟

- في عيد ميلادك. ماذا كانت هديتك؟

- هاتفًا جديدًا.

- هل كان هذا ما أردت؟

- كنت أريد كاميرا، ولكنها قالت إن الهاتف به كاميرا أيضًا.

- ولكن أليس هذا ما أهديناه نحن إليك؟

- أهدَتني خالتي جين كاميرا بعدسة تكبير.

يقول «تكبير» بطريقة تعطي الكلمة أهمية أكبر مما يمكنها تحمله، فيقمع أندرو الابتسامة. لا يزال الصبي بعيدًا عن تنحية طفولته جانبًا، هذا الصبي –الذي لا يزال في سن الخامسة عشرة– يريد كعكة بالشموع يمكنه النفخ فيها بينما يتمنى تحقيق أمنيته.

- لماذا تعتقد أن والدتك تريد أن يكون لديك هاتف؟

- لتشجيعي على التحدث مع أصدقائي ربما؟ أعتقد أنها قلقة لأنه ليس لدي أي أصدقاء. على الرغم من أنها هي تحديدًا لا تملك أصدقاء.

t.me/yasmeenbook

أومأ أندرو برأسه لإخفاء دهشته. كان يعتقد دائمًا أن إيما تحظى بشعبية. تمتلئ حفلات افتتاح معرضها بمجموعات متنوعة من الأفراد، صغارًا وكبارًا، ومشهورين وذوي سمعة سيئة، وقد بدا الأمر وكأنهم جميعًا حريصون جدًّا على الترحيب بها وطمأنتها على نجاح العرض. كانت إحدى شكاوى جينيفر الدائمة أن إيما تستمتع بصحبة أصدقائها وعُشَّاقِها، وأنها يمكنها أن تنفرد بهم بعيدًا عن جينيفر، أو تسرقهم منها متى أرادت.

- على الأقل لديك صديق واحد مُقَرَّب؟

- أفترض أن لدي روبرت.

- كيف يبدو؟

لم يسمع أندرو من قبل عن روبرت، على الرغم من حضور الكثير من زملاء جوليان في حفل عيد ميلاده الأسبوع السابق. كانوا جميعًا متشابهين في نظر أندرو؛ بشعرهم الناعم ومظهرهم الخادع، كما لو كانوا على وشك الرحيل بعيدًا عن الجمع بغرض إشعال سيجارة. فقط جوليان بدا مختلفًا، بصمته وشعره الأرجواني، ووجهه الطويل. عندما أطفأ شموعه وتمنى أمنيته، بدا حينها فقط أشبه بالصبي الصغير الذي يتذكره أندرو.

- أعتقد أن روبرت جادٌّ للغاية. ليس لدينا الكثير من القواسم المشتركة.

- ألا تعتقد في نفسك الجِدِّية؟

حضر أندرو تقريبًا كل حفلة عيد ميلاد أقيمت لجوليان، ومع ذلك، يشعر أنه بالكاد يعرف الصبي. على الرغم من أن أمه وخالته رغبتا طوال الوقت في فرض التواصل بينهما، فإنهما قد تدخلتا في كل فرصة ووقفتا كحاجز بينهما، تمامًا مثل الموقف الحالي، الذي رُتِّبَ بمعرفتهما.

- لَستُ جادًّا مثله. يريد روبرت أن يصبح محاميًا عندما يكبر.

- وأنت؟

- أريد... لا أعرف، أريد فقط أن يتركني الجميع لحالي؟

بدت تلك كطعنة موجَّهة داخل مزحة. ابتَسَمَا بعدها، وربما كانت تلك أولى علامات التقدم في حديثهما.

- لا أعتقد أنني قابَلتُ روبرت في حفلتك.

t.me/yasmeenbook

- كان مسافرًا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. يملك والداه منزلًا بجوار البحر.
- وهل اتصلت بروبرت بهاتفك الجديد؟
- ليس بعد.
- فيم استخدمته إذن منذ حصلت عليه؟
- الهاتف؟ لم أستخدمه كثيرًا. أنزلتُ بعض الموسيقى والكتب.
- فعلًا؟ أي نوع من الموسيقى؟
- باخ.
- حسنًا، والكتب؟
- رواية لنابوكوف.
- أيهم؟
- اسمها «الهدية».
- نعم.
- لا أظنني مع هذا سأكون قادرًا على إتمامها، الرواية الوحيدة التي استطعتُ إنهاءها على الإطلاق ضمن مؤلفاته كانت تسمى «ضحكة في الظلام».
- لا أعتقدُ أنني سمعت عنها.
- تحكي عن جريمة قتل؛ أطفال يقتلون رجلًا عجوزًا يعمل مؤرِّخًا فنيًّا. ينحدر الأطفال القتلة من الجيل الألماني الذي أرسل اليهود لاحقًا إلى غرف الغاز. إنه نوع من التحذير بخطر مستقبلي. على الأقل هكذا فَسَّرت الأمر.
- مثير للإعجاب. هل ناقَشتَ الكتاب مع خالتك؟
- لا.

إنه حَقًّا صبي غير عادي. بينما أدمن العالم التعامل مع هواتفهم يهتَمُّ هذا الصبي بتحميل كتب لنابوكوف وسيمفونيات لباخ.

- هل لديك حسابات على فيسبوك وانستغرام؟

t.me/yasmeenbook

- كان لدي لفترة قصيرة.

- ولكنك لا تتفاعل عليها باستخدام هاتفك الجديد حاليًّا؟

- لا.

- أخبرني المزيد عن الكاميرا التي أهديناها إليك، الكاميرا مع العدسة المُقَرِّبة.

ينظر جوليان إلى أندرو مرة أخرى ويهز كتفيه، مُحاطًا مرة أخرى بحائط من الملل يحميه من الرجل الذي أمامه.

- ما الأشياء التي تهتم بتصويرها؟

- الطيور ربما؟ أعرف أسماء جميع طيور جنوب إفريقيا، باستثناء بعض الطيور البنية الصغيرة، والأخرى الموجودة بجانب البحر. يبدو لي أحيانًا أنه لا فائدة من معرفة أسماء الطيور البحرية عندما يكون البحر بعيدًا جدًّا عن هنا.

- ولكنك تذهب إلى البحر أحيانًا في العطلات.

- مَرَّت سنوات بالفعل منذ آخر زيارة.

- أتذكر أنك كنت تخاف البحر.

- حقًّا؟

- ثم ذات يوم في إحدى العطلات قررتَ فجأة اقتحامه، حتى بَدوتَ وكأنك قد قضيت العطلة بأكملها بين الأمواج.

لم يتفاعل جوليان على الإطلاق مع تصريح أندرو الأخير. يجلس مُحَدِّقًا إلى الفراغ بلا تعبير على وجهه.

- لقد صادَقتَ أحدهم في تلك الرحلة؛ فتاة. ماذا كان اسمها؟

- كلاريسا. أرادَتْ أن يدعوها الناس كلير في الواقع.

- نعم، صحيح، لديها عائلة لطيفة كما أتذكر.

شاعرًا بحماقَتِه، تَذَكَّر أندرو الآن فقط حادث السيارة. تذَكَّرَ أنه –وخلافًا لنصيحته– اتفقت إيما وجينيفر ألا يخبرا جوليان بأي شيء عنها. قالتا إنهما تريدان حمايته، ولكن أندرو جادل بأنه من الأفضل له أن يعرف الحقيقة. فَكَّر

t.me/yasmeenbook

أندرو حينها في فرضية أن يحاول جوليان الاتصال بالفتاة وألا يتلقى رَدًّا. سيعتقد حينها أنها تتجاهله، أو أنها نسيته. كان جوليان سيظل باحثًا عن شخص لم يعد هناك.

- تُشارِكُ أخت كلير الصغرى في مسرحية مدرستنا.
- هل أنت متأكد؟
- اسمها إليزابيث، ولكن الناس ينادونها ليزي. تلعب دور توبتم، الخادمة التي من المفترض أن أحبها. سيكون عَلَيَّ تقبيلها في مرحلة ما في الأحداث.
- رائع. وهل تتذكرك؟ من تلك العطلة!
- لا أعتقد ذلك.

يتركه أندرو ليفكر قليلًا.

يقول جوليان: «لم تذكر شيئًا عن موت أختها».

يسأل أندرو متظاهرًا بالجهل: «أختها ماتت؟ تقصد كلاريسا؟»

- نعم، كان هناك حادث سيارة، حدث في أثناء عودتنا من تلك العطلة. اصطدمت سيارتهم بشاحنة في أثناء صعودهم التل في مكان ما بالقرب من بيترماريتسبورج.

أومأ أندرو.

- تعطلت فرامل الشاحنة وسحقت بالكامل النصف الأمامي من سيارتهم. كانت كلير تجلس مع والدها في المقدمة، وماتت على الفور. على الأقل هذا ما قالته أمي. كانت والدة كلير نائمة في الكرسي الخلفي مع أولادها الآخرين؛ الفتاة والصبي، ولم يمسهم سوء.

لم تتحرك عضلة في وجه جوليان بينما يحكي، كما لو أنه يحكي عن أناس لا تربطهم به أي علاقة. ولكن أندرو لا ينخدع بهذه السهولة. على الرغم من وقوع الحادث قبل نحو أربع سنوات، فإن رواية جوليان تحمل قدرًا كبيرًا من العاطفة، قدرًا كبيرًا من العنف والغضب والحزن الخام يرقد هناك بداخله.

يسأله جوليان: «ألم تعرف شيئًا عن هذا؟»

t.me/yasmeenbook

- أعتقد أنني سمعت عن الأمر ذات مرة.

قال جوليان سامحًا لكلماته بأن تُعَبِّرَ بمزيد من السخرية والألم الدفين: «حسنًا، لم أكن أنا أعرف شيئًا عنه على الإطلاق. أخبروني بذلك فقط في اليوم السابق لعيد ميلادي مباشرة، بينما كانت أمي تحاول صنع كعكتي».

- أوه.

- لا أعرف لماذا لم تخبرني من قبل.

- ربما لم تكن تريدك أن تشعر بالانزعاج.

- من يعرف السبب؟

- وهل أحببتها؟ تلك الفتاة كلير؟

- بالتأكيد فعلت.

- هل تقصد أنها كانت أول صديقة حقيقية لك؟

- عرفتها فقط بضعة أيام.

- أعتقد أنها كانت أكبر منك بعامين، أليس كذلك؟

- عامين أو ثلاثة، نعم.

- ومع هذا بَدَوتُما صديقين لا يفترقان.

- فقط لأنه لم يكن هناك أي شخص آخر في الفندق لتلعب معه.

لسبب ما أثَّرَت تلك الفكرة في جوليان، وسبحت عيناه في الدموع في أثرها. سمح له أندرو مرة أخرى بالجلوس هناك بهدوء، وقد امتد الصمت مُغَلَّفًا ببعضٍ من تعاطف عبر الغرفة.

- هل أحببتها كثيرًا؟

نظر جوليان إلى النور ومسح وجهه.

- أفتَرِضُ أنك ما زلت تفكر فيها أحيانًا؟

- لا أستطيع حتى أن أتذكر كيف كان شكلها.

- تقصد أنك لا تملك صورًا من تلك العطلة؟

- أعتقد أن والدتي كانت منشغلة للغاية لتأخذ لنا أي صور.

t.me/yasmeenbook

بدا الأمر مزعجًا، كما لو أن الصبي يريد أن يشير إلى أن أمه مسؤولة بطريقة ما عن وفاة الفتاة.

- حسنًا، تملك الآن كاميرتك الخاصة بعدسة مقربة. (يمزح أندرو) سيكون عليك أن تصبح مصور العائلة نيابة عنا.

نظر جوليان إلى خلفه متناسيًا أن يبتسم.

- أعتقد أنها تساعد حقًّا في تذكر الأشياء. اعتَدتُ التقاط الكثير من الصور بالكاميرا عندما كنت صغيرًا، مثلك. كانت لدينا غرفة مظلمة في المدرسة، وكنت أقوم بتظهير الصور بنفسي. تعاملت فقط مع الأفلام باللونين الأبيض والأسود. أفترض أن الأفلام المُلَوَّنة كانت باهظة الثمن، أو أن الحصول عليها كان صعبًا للغاية.

- ربما لم تتمكن عائلة إليزابيث من تظهير صورهم. هذا هو السبب في أنها لا تتذكرني.

- أو ربما تلك أوقات لم ترغب في أن تتذكرها.

يقول جوليان كما لو أنه يريد إغلاق الموضوع نهائيًّا: «نعم، أنت مُحِقٌّ غالبًا».

يتابع أندرو متظاهرًا أنه يكمل فكرة جوليان حول التصوير: «مشكلة الصور هي أنها يمكن أن تصبح في كثير من الأحيان الذاكرة الفعلية. كل شيء آخر حدث ولم يتم تصويره يصير ببساطة أقل أهمية من الأحداث التي وَثَّقها التصوير. إن قَضَيتَ إحدى العطلات –مثلًا– ولم تشعر في أثنائها بأي من سعادة، فقد تجعلك صورك السعيدة فيها تنسى أنك لم تكن حقًّا سعيدًا آنذاك. ألا تظن ذلك؟»

- نادرًا ما وَثَّقت أمي أي شيء في حياتها بالصور، لذلك لن أعرف حقًّا.

- أفتَرِضُ أنها كانت مشغولة للغاية في صنع صور خاصة بها.

- ذاكرتها أيضًا سيئة للغاية.

- تقصد... مثلك؟

- لم أقل ذلك قط. ذاكرتي في الواقع جيدة جدًّا.

- ولكنك تقول إنك لا تستطيع تذكر وجه كلير؟

t.me/yasmeenbook

- أتذكره فقط عندما أحلم بها.

- هل ما زِلتَ تحلم بها؟

- لا أفكر فيها أبدًا مؤخرًا.

يعرف أندرو أن الكثير مما يقوله جوليان هو محض كذب، ولكنه معتاد ذلك. يشعر أندرو بأنه قد وصل إلى غايته عندما يتفوَّه المريض بكذبات صريحة؛ يعني هذا أن هناك حقيقة أخرى يحاول المريض تجنبها، أو حمايتها من الظهور على السطح.

- إذا كُنتَ لا تحلم بكلير، فبِمَ تحلم هذه الأيام؟

- لا شيء حقًّا. لا أتذكر أحلامي كثيرًا.

- ولكن على الأقل لا بد أن هناك حلمًا ما تتذكره لتكراره أكثر من مرة؟

- ربما.

- أخبرني عن ذلك.

ينظر جوليان إليه مرة أخرى بينما يجلس الصمت بينهما.

- حسنًا، هناك حلم واحد تكرر من قبل. أعني أكثر من مرة.

- ما هو؟

- كنت في المنزل، أقف في الحديقة، مُحاطًا بشجيرات الأعشاب الطويلة؛ تلك التي تستخدم لطهو لحم الضأن؟

- شجيرات الروزماري؟

- طالت في الحلم كثيرًا عن حالها في الحقيقة، حتى إنني لم أتبين المكان خلفها. لم أستطع رؤية منزلنا، أو استوديو أمي، ولم يكن لدي أي فكرة إلى أين أذهب.

- وماذا فعلت؟

- كان عليَّ أن أبدأ في كسر الأغصان، وكانت تتكَسَّر بسهولة. ولكن بعد فترة، وجدتُ يدي ملطخة بالدماء.

- تقصد أنك جرحت نفسك؟

t.me/yasmeenbook

- كانت الفروع هي التي تنزف، وليس أنا على الإطلاق. على الرغم من أنني اعتقدتُ في البداية أنها جروحي أنا.
- كانت الشجيرات حية؟
- بدماء في عروقها.
- ماذا فعلت عندما لاحَظتَ الدم؟
- عادة كنت أستيقظ عند تلك النقطة. في المرة الأولى التي حدث فيها ذلك، أضأتُ النور ونظرت إلى يدي. كنت أتوقع أن أجد الدم في يدي.
- يبدو أنك ارتحت إلى تلك النتيجة.
- ولكن هذا لم يجعل الحلم أقل واقعية. صار الحلم أشبه بذكرى لأمر حدث لي بالفعل، على الرغم من أن الدم لم يبقَ بعدها لإثبات حدوثه.

لم يحلم أندرو مؤخرًا بأي شيء مثير للاهتمام على الإطلاق. ترك هذا الأمر لجينيفر، التي كانت تحلم بتكرارٍ أَبَدِيّ ببحيرات يطفو على سطحها أطفال ميتون، وسلالم متاهة دون أبواب أو نوافذ، وغرف نوم تحت الماء، حيث تخرج كائنات بحرية ذات مجسات متشابكة من تحت السرير لتفحصها وتلتهمها. قال أحد أساتذة أندرو ذات مرة إن أحلام المعالجين غالبًا ما تكون مملة لأنهم قاموا بقمع شياطينهم عبر التحليل الذاتي. ولكن أندرو يخشى أنه أصبح ميتًا إلى درجة أنه لم يعد يحلم بعد الآن. يقضي المحللون الكثير من وقتهم منغمسين في الحياة الداخلية للآخرين، بحيث يمكنهم بسهولة تجاهل ذواتهم.

- هل تعلم لماذا أرادَتْ إيما وجينيفر منا التحدث اليوم؟
- أفتَرِضُ أنهما تريدان مني أن أتحدث عن مقالاتي.
- ماذا عن مقالاتك؟
- أفترض أن المعلمين في سانت فرانسيس بدؤوا يعتقدون أنني أعاني مشكلةً ما.
- هل تعتقد أنهم على حق؟

يبتسم جوليان لسؤال أندرو، ويعتقد أندرو أنه سيُسهِبُ في إجابته، على الرغم من أنه ليس بالضرورة في الاتجاه الذي سيفيده بأي شيء.

t.me/yasmeenbook

- إذا كان هناك أمرٌ سيئٌ يحدث لي، أليس من المفترض أن أكون آخر من يعي هذا؟ أليس هذا ما يحدث عندما تكون على غير ما يُرام؟ تمامًا مثل الجنون؛ أنت لا تعرف أنك مجنون، وتعتقد أنك طبيعي، ولهذا لا يمكن لعقلك أن يعود أبدًا من حالة الجنون؛ لأنك لا تعرف إلى أين من المفترض أن تعود. تشعر بأنك تائه بشكل ما، تشعر بالتيه تجاه نفسك وكل شيء من حولك، كما لو كُنتَ تتحدث بلغة لا يفهمها أحد.
- هل هذا ما تشعر به؟ هل تتحدث بلغة لا يفهمها أحد؟

يهز جوليان كتفيه، كما لو أنه استنفد كل أفكاره في حديثه. تلك أطول جملة كَوَّنَها منذ وصوله. يشعر أندرو بأن جوليان أصبح مهتمًّا بشكل متزايد بالحديث عن نفسه، كما يفعل مرضاه عادة. في النهاية، لا أحد يستطيع أن يقاوم إغراء التحليل، حتى لو كانت المحادثة تتم في أغلبها من طرف واحد، مجرد تغيُّرٍ طفيف على هامش علاقتهما المقيدة.

- في حلمك هذا، عندما تكون عالقًا في الحديقة، هل كنت تطلب المساعدة؟
- لم أجرب ذلك قط.
- ماذا لو جَرَّبت أن تفعل ذلك في المرة القادمة؟ فقط لترى ما قد يحدث.
- ماذا لو لم يحدث شيء؟
- وماذا لو حدث شيء؟

يبدو حلم الصبي حلمًا حَدِّيًّا كلاسيكيًّا تمامًا. غالبًا ما تتميز هذه الأحلام بالدماء والعنف، ولكن هكذا هي أحلام المراهقين عمومًا. هذا هو السبب في أنه لا ينبغي أبدًا منعهم من حكي أحلامهم.

يسأل جوليان: «هل يزورك الناس لهذا السبب؟ لأنهم يشعرون بالضياع؟»

- يزورني الناس لأنهم يتألمون، يجدون صعوبة في عيش حياتهم بالطريقة التي يرغبون. على العكس منك، يشعر مرضاي أنهم لا يستطيعون المضي في حياتهم دون التسبب في ضرر لأنفسهم أو لأشخاص آخرين.
- لا أعتقد أنني أريد أن أؤذي أمي، ولكن لا يوجد في حياتي شخصٌ آخر قد أؤذيه، أليس كذلك؟ ربما باستثناء خالتي جين.

t.me/yasmeenbook

- هل تعتقد أن أمك قد تأذّت من مقالك الأخير أو وجدته مؤلمًا بأي شكل من الأشكال؟ حَكَيتَ في القصة عن أم تموت موتًا بطيئًا ومؤلمًا، قبل أن يشعل الابن النار في سريرها ويحرق منزلها.

قرأ أندرو مؤخرًا بعض المقالات المهمة التي تتحدث عن العلاقة بين الأطفال وقوة النار، ولكن هذا ليس المكان المناسب لاستكشاف هذه الفكرة بشكل أعمق. قد يستفيد جوليان من مناقشة الأمر مع محلل لا تربطه به علاقة، ربما تحديدًا مع محللة أنثى؛ لتمثل له صورة مختلفة عن صورة أمه في حياته. إذا استطاع جوليان التواصل مع امرأة أخرى على هذا النحو من الوضوح، فقد يجد التعامل مع أمه وخالته أسهل فيما بعد.

- كتبت المقال بدافع إرضاء أمي وليس أذيتها.

- ماذا تقصد؟

- ربما كنت أحاول فقط أن أظهر لها مدى إبداعي، كما لا بد أنك تعلم كيف سيرضيها ذلك. ربما كان المقال مجرد نوع من الخدعة.

ابتسم جوليان مرة أخرى، واستطاع أندرو أن يرى أنه لا يصدق ما قاله لتَوِّه. تربى جوليان على الاعتقاد بأنه موهوب ومختلف عن جميع الأطفال الآخرين من حوله؛ هذه إحدى الهدايا التي قدمتها إليه أمه وخالته، رغم أنها منحة، ربما أصبحت الآن أقرب إلى لعنة.

يقول أندرو: «أعتقد أن أي عمل من أعمال الخلق والإبداع هو كذبة، أليس كذلك؟ يمكنك حتى أن تقول إن كل إبداع هو نوع من الخدعة، تجربة لرؤية ما سيحدث بعد ذلك، نوع من الاستفزاز نفعله بشبه قصد، أو معتقدين أننا نبحث من ورائه عن معنى».

أومأ جوليان برأسه ليُظهِرَ أنه يفهم ويستَحِقُّ لقب الطفل الموهوب.

يكمل أندرو: «أظن أن الفنانين ربما هم أكثر الكذابين إنجازًا على الإطلاق. يصنعون الشخصيات ويضعونها في مواقف من أجل التلاعب بنا، وجعلنا نفكر ونشعر بأشياء ليس لدينا نية في التفكير والشعور بها. يضعون الأفكار في رؤوسنا ويحاولون تحويلنا إلى أشخاص آخرين. ولماذا؟ يعتقد بعض الناس أن الفنانين يتصرفون فقط من خلال نوع من العصاب. يحاولون جعل

t.me/yasmeenbook

مرضهم مقبولًا للجمهور. ليس هذا فقط، ولكنهم يتوقعون منا أيضًا أن نتغيَّرَ بما يتناسب مع إبداعاتهم، كما لو كانوا هم النموذج الصِّحِّيَّ الذي على الجميع اتباعه».

يسأل جوليان شاعرًا ببعض الأمل: «إذن أنت لا تُقَدِّرُ الفنانين حقًّا؟»

- لم أقل ذلك قط. تكمن الفكرة في أن الآخرين يحملون نظرةً أكثر تفاؤلًا مني بكثير إلى الفنانين والفن. يعتقدون أن الفنانين يمكنهم الوصول إلى الحقائق التي لا يمكن لبقيتنا الوصول إليها؛ عالم النماذج الأصلية، أو اللاوعي الجماعي.

ينتهز جوليان هذه اللحظة ليلقي نظرة على اللوحة البيضاء خلفه على الحائط، ويدهش أندرو من كون الصبي يعلم بوجود لوحة هناك؛ إذ لم يظهر عليه ما يدل على رؤيته إياها عندما دخل الغرفة لأول مرة.

يقول جوليان ساخرًا: «هل من المفترض أن تصل تلك الصورة إلى الحقائق التي لا يمكن لبقيتنا الوصول إليها؟»

- لماذا تسأل عن تلك اللوحة بالذات؟

- لأن أمي رسمتها، عندما كانت لا تزال طالبة على الأرجح. لدينا الكثير منها في جميع أنحاء منزلنا، راقدات على الجدران. لم تحدث أيها أي فرق في أي شيء.

- تقول إن هذه الصورة لا تجعلك تشعر بأي شيء؟ هل تنظر إليها بشكل محايد بلا مشاعر كما تنظر إلى مرآة مثلًا أو سلة قمامة؟

- أظنها تجعلني أشعر أن أمي تجلس هنا وتنظر إلينا.

- ألا يمكنك أن تكَوِّنَ رأيًا عنها بمعزل عن وجهة نظر والدتك؟

- لا أعرف. هل يمكنك أنت؟

قضى أندرو معظم حياته المهنية في استقبال الأسئلة التي تفضح شيئًا ما في نفسه. يُحَوِّرُ إجابته لمعرفة المزيد حول ما يشغل بال الشخص الذي يطرح السؤال. سيسأله شخص يفكر في الطلاق عما إذا كان متزوجًا، أو قد يسأله إنْ كان لديه أي أطفال، بالنظر إلى أنه يتوق في سِرِّه إلى أن يكون لديه طفل.

t.me/yasmeenbook

- هل أخبرتك والدتك قبلًا عن يومها الأول في الحضانة؟
- تَقصِدُ عندما رَسَمَتْ على الورقة البيضاء بقلم التلوين الأبيض؟ بالتأكيد. غالبًا ما تروي هذه القصة في المقابلات الصحفية. لا أعرف لماذا تفعل ذلك، أراه اختيارًا غبيًّا.
- لماذا تراه اختيارًا غبيًّا؟
- لأن القصة غبية، تجعلها تبدو خائفة.
- وأنت لا تريد أن تفكر فيها باعتبارها شخصًا خائفًا؟
- إنها أقل شخص خائف قابلته على الإطلاق.

أومأ أندرو برأسه عند سماعه الجملة الأخيرة؛ إنه يفهم بالضبط ما يعنيه الصبي. قد تكون إيما خجولة –تحب أن تطلق على شعورها ذاك رُهابًا اجتماعيًّا– ولكنها أكثر ثقة بنفسها مما كان عليه أندرو أو جينيفر يومًا. حتى يومها هذا، لا تزال مدعومة بما تسميه جينيفر «حب والدها الأثير».

- هل أهدتك أمي تلك اللوحة أم اشتريتَها منها؟
- كانت هدية زفاف، إليَّ وإلى جينيفر.
- لماذا تُعَلِّقُها في مكتبك إذن؟
- لأنني أحببتُ اللوحة جدًّا.
- وخالتي جين لم تحبها؟
- أعتقد أنها تظنُّها مجردة للغاية. إنها تفضل اللوحات التي تتظاهر بما ليس فيها. في حين أن هذه اللوحة تفصح عن محتواها بوضوح، لا تحاول أن تكون أي شيء آخر غير نفسها.
- أعتقد أن اللوحة تحمل إحدى وجهات نظر أمي، التي لا تريد خالتي إبقاءها حولها في المنزل.
- لا أعتقد أنها تفكر في اللوحة بهذا الشكل.

على الرغم من أن جوليان ربما يكون على حق. هناك روح فوضوية يحملها الصبي اليوم تُذكِّر أندرو بإيما، تعرَّف عليها في إيما عندما قابلها أول مرة، وهذا هو سبب ظَنِّه حينذاك أن جينيفر هي الأكثر أمانًا من الاثنتين،

t.me/yasmeenbook

الأكثر مَنحًا الطمأنينة فيما يخص شخصيتها وأفعالها. ولكنه مؤخرًا أصبح يتوق إلى روح الفوضى هذه؛ القدرة على التحرر من بيئته، وتمزيق شجيرات إكليل الجبل حتى وإن تلطخت يداه بالدماء، بلا أي تفكير في أن يطلب أي مساعدة بأي شكل.

- إذا كانت والدتك لونًا، فما هو اللون الذي تعتقد أنها ستكون عليه؟

يمنحه جوليان مرة أخرى تلك النظرة القاتمة، كما لو كان الصبي هو الشخص البالغ الوحيد في الغرفة.

- ليس اللون الأبيض بالتأكيد.

يسأل أندرو، متظاهرًا بأنها مباراة حوارية: «وإن كانت حيوانًا؟»

- ليست يربوعًا بالتأكيد.

- وأي نوع من المنازل ستكون؟ منزلًا كبيرًا؟ أم صغيرًا؟ بنوافذ مفتوحة؟ أم مغلقة؟

- منزلًا كبيرًا، بينما كل شيء مفتوح؛ النوافذ والأبواب، وجميع الخزائن.

مرة أخرى يشعر أندرو برغبة الصبي الكامنة في التحدث، ويشعر أن أمرًا خطيرًا يحدث بينهما، ومع ذلك، فإن الإثارة التي يمنحها الحديث عن إيما لا يمكنه مقاومتها، وعليه أن يستمر.

يتابع: «وإذا كانت حديقة، أي نوع من الحدائق ستكون؟»

- حديقة ضخمة، مُهمَلة قليلًا.

- لا أعتقد أن لديها الكثير من الوقت لتمضيه في الاعتناء بالحديقة. لا يبدو أنها قد لاحظت النباتات هناك. تذهب إلى هناك فقط لتقطف الزهور عندما تستقبل الناس وتريد هي أن تضفي بريقًا من جمالها على المنزل. تذهب إلى الحديقة كما لو أنها وجدت هناك فجأة. تُفاجئها الأزهار دائمًا، كما لو كان شخصٌ آخر قد زرعها.

- هل اصطحبتك إلى الحديقة من قبل؟

- لا. اعتَدتُ اللعب هناك وحدي منذ أن كنت طفلًا.

t.me/yasmeenbook

يقول محاولًا الانسحاب قليلًا من مجرى الحوار الأخير: «يذكرني منزلكما بأحد تلك المنازل على البحر؛ تلك الطريقة التي يظهر فيها كل شيء تقريبًا حاملًا خطوطًا بيضاء وزرقاء، خاصة أن الأثاث كله مُوَجَّه نحو المنظر الخارجي. كل مرة وجدت نفسي في منزلكما وأردتُ فتح النافذة، أتوقع في كل مرة رؤية البحر خارجها».

يقول جوليان بنبرة عادت لتكون عدائية بعض الشيء: «هذا لأن أمي ترسم كل شيء باللون الأبيض».

- أعلم أنها أرادت دائمًا أن تعيش بجانب البحر. لماذا تعتقد أنها لم تتمكن من تحقيق أمنيتها تلك؟

لطالما بدا المنزل كما لو كان راقدًا في مقرِّه المؤقت، هناك على ذلك التل الصخري، كما لو أنه تم وضعه هناك مؤقتًا حتى يظهر مكان آخر أكثر ملاءمة. لم تكن هناك مساحة كبيرة للحديقة بين كل تلك الصخور، فقط مساحات متدرجة غير مستوية، حيث يمكن للورود وأشجار الزيتون وشجيرات إكليل الجبل أن تتسلق وتنتشر.

- تقول إننا سننتقل بمجرد أن أنهي المدرسة.

يقول أندرو وهو يشعر بصدمة وقلق يأكل باطنه: «هل قالت ذلك فعلًا؟» لم يسمع بهذا الأمر من قبل. يمكن لأندرو أن يرى نظرة الانتصار على وجه جوليان، وكأنه يقصد أن يُشعِرَ أندرو بذلك في أثر تصريحه الأخير، وكأنه يريد أن يزعجه ويهزَّ مشاعره، ويدفعه مرة أخرى لينحبس داخل صندوق الزواج.

يضيف جوليان بفظاظة: «لا تريدك أنت أو خالتي جين أن تعرفا ذلك».

- هل أخبرتك بذلك فعلًا؟

تلمع عينا الصبي بتألق بالغًا هدفه، راغبًا في أن يكمل المباراة، ولكنه فجأة قرر ترك الأمر عند هذا الحد.

- لماذا تريد الابتعاد عنا؟

- من يعرف؟

t.me/yasmeenbook

صارت فجوة بينهما الآن، نوع من الصدع، كما لو أن الأرض قد انفتحت عند أقدامهما.

- أعتقد من الأفضل أن نتوقف هنا.

- نتوقف عن ماذا؟

- عن إكمال هذه المحادثة.

هَزَّ الصبي كتفيه وانزلق أعمق في الأريكة.

- حسنًا.

لا يزال الصدع بينهما هناك، وأندرو يقف راغبًا بشدة في الغوص في أعماقه، شاعرًا بأنه مُغرٍ جدًّا، ومع هذا، محظورٌ عليه الاقتراب منه، تمامًا كالحقيقة.

أما بالنسبة إلى جوليان، فقد بدا مرتاحًا في تلك المرحلة من المحادثة أكثر مما كان في بدايتها، بدا مرتاحًا كما في منزله تمامًا.

- لماذا تسأل عن حديقة أمي؟

- عفوًا، ماذا قلت؟

- هل تسأل بسبب حلمي؟ أم هو شيء آخر؟

- لَستُ متأكدًا مما تقصد.

- لأنك لَستَ الأول.

- عفوًا؟

- أول من يدخل عبر الباب الأحمر ويسير في طريق الحديقة.

يحدق إليه أندرو مأخوذًا بما يشبه الرهبة المألوفة. تُلَوِّنُ إيما الباب الذي يؤدي من الشارع إلى الحديقة بلون مختلف. يبدو الأمر كما لو أنها تريد ترسيم كل عام بلون جديد، بمعنى جديد. كانت هناك سنة اللون الأصفر، والسنوات الكوبالت الأزرق والأرجواني، والسنوات الفحمية، والسنوات الخضراء الجيرية. في بداية هذا العام، وتَحَسُّبًا لمعرضها القريب، رسمت الباب باللون الأحمر ذي الطابع الشرقي، الذي من المفترض –على الأقل وفقًا لفنج شوي– أن يعزز احتمالات ثروتك. قالت إيما مازحةً إن هذا سيكون غاية تخطيطها المالي

t.me/yasmeenbook

للعام المقبل. كان الباب محاطًا بسياج من الزهور، ولأول مرة، يتماشى لون الأزهار تمامًا مع لون الباب.

- أنا آسف يا جوليان، ولكن ليست لدي أي فكرة عما نتحدث عنه.

ينتظر جوليان كما لو أن هناك إشارة ينتظرها من الكون، أو كما لو أن المحادثة تمتثل إملاءات بعض المقطوعات الموسيقية التي لا يستطيع أندرو سماعها.

- يأتي زائروها فقط عندما تتأكد أمي أنني بالخارج؛ كأنني في المدرسة مثلًا، أو في تمرين العزف، أو درس البيانو. ولكن في اليوم الذي رأيتك فيه، كان مدرس البيانو مريضًا، فعُدتُ إلى المنزل.

يقول أندرو مثل رجل يحاول أن يتلمس طريقه نحو شيء حاد يقف في مواجهته في الظلام: «حسنًا. ومن هم هؤلاء الناس الذين يأتون للزيارة؟»

صمت جوليان مرة أخرى، مثل شخص يحاول أن يتذكر سلسلة من الأحداث –أو العبارات– التي تَدَرَّب عليها.

- رأيتُ كل شيء من نافذة الحمام.

- ما الذي رأيته؟

- هل تعرف نافذة الحمام في الطابق العلوي؟ التي تطلُّ على الحديقة والاستوديو؟ رأيتهما راقدين على بطانية حمراء بجوار البركة. في البداية اعتقدتُ أنه كان يحاول خنقها. صَرَخْتُ لأجعله يتوقف، ولكن النافذة كانت مغلقة، أو إن الرياح كانت تهب في الاتجاه الخاطئ، أو إنهما لم يتوقعا سماع صوتي.

ينظر أندرو إلى الطفل الغريب وقد أصابه غثيان.

هناك شيء مزعج جدًّا بشأنه، أو سيئٌ جدًّا بداخل عقله، حتى يبدو كمن يستمتع للغاية بوصف المشهد. تملك نبرته في الحكي النغمة الحادة نفسها من البهجة التي تعلو عبر مقالاته المدرسية الأخيرة، نغمة أشبه بجرس إنذار حاد يطغى على جميع الأصوات الأخرى، جهاز إنذار حريق قادر على حرق منزل بأكمله. لم يعد أندرو يرى الصبي جوليان ذاته الذي يعرفه، ولا يرى في حديثه أي أثر لإيما التي يعرفها. يبدو كطائر الوقواق الذي قد حَلَّ من

t.me/yasmeenbook

السماء وجلس مكان جوليان الصبي. أليس هذا ما تطلقه عليه جينيفر أحيانًا؟ «طائري الوقواق. طفلي الوقواق».

- هل تتحدث عن أنك قد رأيتَ أمك مع رجل آخر؟

يتحدث جوليان بنبرة من يبلغ عن أمه المتزوجة، ليس من جوناثان، ولكن كأنه يقصد أنها متزوجة من أندرو نفسه.

- نعم، هذا ما أقوله.

- وهل رأيتَ وجهه؟

- نعم.

- وهل تعرفه؟

- أعرفه.

- حسنًا، من هو؟

- أنت.

قالها جوليان بينما ينظر إلى خلفه بغير اهتمام، أما أندرو، فقد وقف بلا حراك.

إنه يعرف البركة التي يشير إليها جوليان –هذا إذا كان بالإمكان الإشارة إلى تلك البقعة المهجورة من المستنقع والملآنة بالضفادع على أنها بركة– ويمكنه حتى تخيل تلك البطانية التي ربما هي سجادة الترتان حمراء اللون التي جلبتها إيما منذ عام من إدنبرة. ولكنه يعرف أيضًا أن القصة محض كذب، أو في أحسن الأحوال مُطَعَّمَة ببعض الخيال؛ لأنه لم يرقد قط مع إيما فوق أي بطانية بجانب أي بركة.

- لا بد أنك مخطئ. لم أجلس قط مع أي شخص بجوار تلك البركة.

يقول جوليان بإصرار: « لم يكونا جالسين هناك فقط».

- مهما كان ما يفعلان، لم أكن أنا أحدهما.

يبدو أن جوليان قد استمع إلى نبرة اليقين في صوت أندرو، وعليه تَغَيَّرَ الموقف في عينيه، ومض بينهما نوع جديد من التواصل، يبدو الأمر كما لو أن

t.me/yasmeenbook

شعاعًا كثيفًا من ضوء الشمس قد دخل الغرفة ليكشف عن كل الأمور، واصلًا إلى أطرافها. كان التأثير مخيفًا ومثيرًا للاشمئزاز.

- ولكنك تحب أمي، أليس كذلك؟

قبل أن يفكر في كذبة أخرى، وجد أندرو نفسه يلجأ إلى الحقيقة: «نعم، أنا أحبها».

حَدَّق إليه جوليان بخيبة أمل. ربما كان جزء منه يأمل في أن يخترع أندرو كذبة ما ويبدو لحظة أنه لم يعد لديه ما يطلبه ولا شيء آخر ليقوله. قد تكون الحقيقة الهائلة، وقد تكون صعوبة شؤون البالغين أمرًا في النهاية يفوق احتماله. تعثر جوليان في أرض مجهولة تمامًا، كان دليله فيها بضع كلمات مختارة جيدًا، واجتهاد بسيط من حدسه.

- ولكن لم يحدث بيننا أي شيء يسيء إلى وضعنا. أستطيع أن أؤكد لك ذلك.

أومأ جوليان برأسه، ولكن كما لو أنه يؤكد بعض الأفكار التي يحملها داخله، والمنفصلة بشكل ما عن هذه المحادثة.

يسأل أندرو: «إذن ما الذي جعلك تحكي تلك القصة؟»

يقول جوليان دون اقتناع: «لأن ذاك ما رأيته».

- حسنًا، إذا كُنتَ فعلًا قد رأيتَ ذلك، فأنا آسف. لا بد أنه كان مزعجًا للغاية.

ينزلق الصبي إلى الأمام مرة أخرى عائدًا إلى وضعه الأول على الأريكة، الوضع المتحفظ الذي كان موجهًا لصنع فجوة بينهما.

- عَمِّي أندرو، هل يكذب كل البالغين؟

- أخشى أن هذا صحيح.

- هل ستُطَلِّقُ خالتي جين؟

- على الأغلب لا.

- عمي أندرو، هل أنا ابنك؟

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل السادس

طفلي الوقواق

جينيفر - جوهانسبرج

مر وقت طويل بعد منتصف الليل، ولكن المنزل كله كان مُضاءً تحت مصباح الشارع. لم يشعر ديفيد بأي شيء بينما يقف في الحديقة الأمامية يشاهد النيران وهي تأكل منزل عائلته. كان يعلم أن الحريق قد اندلع في غرفة نوم أمه، تمامًا عند سريرها؛ لأنه هو الذي أشعله. منذ رحيل أمه، لم يعد ديفيد يحب زيارة غرفتها، ذات رائحة الأعشاب المنتشرة في كل مكان. قبل وفاتها، أزال الأطباء ثدييها، وتساقط شعرها كله. تلك معلومات غير مهمة، لأن كل ما تبقى من جسدها مات على أي حال. أما الآن، فالدليل الوحيد على أنها عاشت يومًا هو ديفيد نفسه، وملابسها في الخزانة، وقطتاها اللتان لا تزالان تبحثان عنها في كل ركن من أركان المنزل، والصور، التي وضعها والده في الردهة في الطابق السفلي حتى يعتقد الزوار أنه لا يزال يحبها. لم يعد بإمكان ديفيد أن يتذكر شكل أمه، ولم يعد يتذكر صوتها. فقط إحساسها هو الذي بقي مثل تيار كهربائي في كل مكان حوله، يسحبه إلى أسفل كما لو كان يتراجع إلى الأبد نحو قبر. كان والده يحضر حفلة مع صديقته الجديدة عندما قرر ديفيد حرق المنزل. كان منزلهم يقع على قمة تل، وعندما عاد والده إلى المنزل وجد النيران مرتفعة حَدَّ السماء. في أثناء الحريق، وقف ديفيد وجليسة الأطفال في الحديقة بجانب المسبح، والقطتان تختبئان بين أرجلهما. في تلك اللحظات

t.me/yasmeenbook

وقف ديفيد مشغولًا بالتساؤل عن المكان الذي سيعيشون فيه الآن حيث لم يكن هناك منزل، وكان يأمل أن يكون المكان الجديد في مكان ما بالقرب من البحر. عندما رأى ديفيد والده يقترب منه، بدا وكأنه والد شخص آخر. بدأ والده ينادي اسمه على الرغم من أن ديفيد كان يقف أمامه مباشرة. فقط عندما مر والده مباشرة عبر جسده –كما لو كان مصنوعًا من الهواء– أدرك ديفيد أنه مات، وأن جسده كان لا يزال هناك يحترق مثل شمعة سوداء في مكان ما داخل المنزل.

استيقظت ذلك الصباح وهي تعاني من صداع يختفي في أدنى نقطة في جمجمتها. شَكَّت لحظة في كونها آثار الشراب، لأنها لم تشرب أكثر من الكمية المعتادة من النبيذ الليلة الماضية. تعَلَّمَت التحكُّم في الكمية التي تستهلكها من الشراب كما تتحكم في حياتها كلها على مدار اليوم. هناك مرحلة ما تحددها في ذهنها، عندما تصل إليها تبدأ في منع نفسها، وتتصرف حينها بأكبر قدر ممكن من الكفاءة. بشكل عام، تحاول أن تسكر حتى تصل إلى درجة ما من اللامبالاة، وليس إلى الدرجة التي قد تدفعها مرة أخرى إلى الاهتمام بالعالم، فحينها يبدأ وجودها بالكامل في التأرجح، وتشعر بأنها مضطرة إلى الدفاع عن نفسها بالعنف، الحالة التي عادة ما تأخذ شكل هجوم على زوجها. عندما تزوجت هي وأندرو، خَطَّطا لامتلاك مجموعة راقية من زجاجات النبيذ، ولكن بمرور الوقت، فاقت شهية جينيفر للنبيذ كَرَمَ أصدقائهما. تخلَّص أندرو من رف النبيذ المنسي منذ فترة طويلة في المرأب مؤخرًا، واستخدم خشبه لإشعال النار في الشتاء، لأن جينيفر لا تزال تصر على إشعال النار كل مساء في فترة الشتاء. إنها تحب الجلوس هناك مع كوب من البينوت نوير الجيد، وتفقد روحها هائمة بين ألسنة اللهب. تعيد ذكرى ليلة قضتها بالشكل نفسه ذات مرة مع والدها في المنزل القديم في جراهامستاون؛ المنزل الذي سارت القطة تستطلع زواياه عند وصولهم إليه واختفت بعدها للأبد. بالنسبة إلى شخص يدعي أنه عاش طفولة غير سعيدة، تقضي جينيفر وقتًا طويلًا تتمنى استعادتها. يعتقد أندرو أن منشأ رغبتها تلك هو أمنيتها بأن تعود إلى الماضي وتتدخل في بعض اللحظات الحاسمة، أو تمامًا في اللحظة التي شعر والدها فيها بأنه غير راضٍ عن قاطني منزله؛

t.me/yasmeenbook

زوجته المريضة وطفلتها اللطيفة الجالسة بجانب المدفأة، وجاءته حينها الرغبة في استبدال أشياء أخرى بهم.

ربما أرادت جينيفر أيضًا استبدال نسخة أخرى من نفسها بتلك الفتاة المُتَخَلَّى عنها، نسخة كانت ستحاول بذل مجهود أفضل لتحتفظ بحب والدها. يحب أندرو الحديث عن الشظايا الخشبية في نفوس الأشخاص. يتمكن الأشخاص الأصحاء نفسيًّا من العيش مُتَّصِلين بشظاياهم الداخلية. عندما ينفصل شخص ما عن نفسه، يكون ذلك بسبب تمزق حدث في الماضي وأرسله إلى الاتجاه الخاطئ. تَعَرَّفت جينيفر إلى هذا الشعور عندما التقت أندرو أول مرة، كانت حينها تكتب قصصًا قصيرة.

عندما تفقد القصة زخمها وسلاستها، فإنما يحدث ذلك عادةً بسبب خطأ ما حدث في أثناء مرحلة الكتابة، تلفيق أو اختصار في الأحداث، أو لحظة من الرضا عن الذات، أو الوعي بالذات. في حالتها، حدث الخطأ في وقت أبكر مما كانت تتخيل؛ في مرحلة كانت تعتقد أن القصة تسير على ما يُرام. صارت مؤخرًا تخطط لكتابة رواية عن صورة جميع أفراد عائلتها في عيونها. سوف تخرجهم من رضاهم الذاتي عن أنفسهم وتفسد صورتهم المتألقة في أعينهم. عندما قابلت أندرو أول مرة، أخبرته بالفعل أنها كاتبة. ألم تنشر بعض القصص في مجلتين جامعيتين؟ أخبرته أنه يذكرها بالشاعر المولود في يوركشاير؛ تيد هيوز. كان رجلًا ضخمًا وصعب المراس، يتنقل عبر العالم، ولديه نظرة مثل العدسة المُقَرِّبة وكأنها ترى في الأماكن التي لا يمكن للآخرين الوصول إليها. قالت إن تفكيره كان دائمًا منحسرًا في اتجاه واحد؛ إما كله لعقله وأفكاره، وإما كله للجنس، وإنه كان يتنقل بين الاثنين بطريقة مثيرة لا يمكن التنبؤ بها. عرضت عليه قصصها، وكأنها إحدى مرضاه –الواقعة في حُبِّه– قد قررت مشاركته أحلامها. كان أندرو ينظر إلى تفاصيل حياتها عبر هذه القصاصات من حياتها الداخلية ويفسرها بطريقة لم تكن لتتخيلها قط. للمرة الأولى والأخيرة في حياتها، شعرت كأنها فنانة، فنانة قادرة على التفوق على أختها الحالمة حاصدة الجوائز. ظلت تتخيل حينها بضعة أشهر –لأن هذه هي المدة التي استغرقتها في التعرف إليه– أنها ستكون سيلفيا بلاث أخرى. ولكن في النهاية، ظلت جينيفر تبتعد شيئًا فشيئًا عن تفاصيل حياتها الحقيقية في قصصها، شظاياها الخشبية، كما يحاول الفرد الاختفاء عن ظله

t.me/yasmeenbook

رهبة من ظلامه. قبل ثلاث سنوات –وربما في محاولة للعودة إلى الفتاة التي كانت عليها، وإلى الرجل الذي اعتقدت أنه يحبها يومًا وقد صار الآن زوجها– سجلت للحصول على درجة الدكتوراه في الجامعة نفسها التي التحقت بها هي وإيما ذات مرة. تجولت في الحرم الجامعي عبر بحر الطلاب الصاخب، وحاولت أن تتخيل ما سيكون عليه الأمر عندما تعود شابة حُرَّة متغطرسة كما كانت يومًا. وجدت مقعدًا في المكتبة، وشاهدت الطلاب الآخرين يتسكعون في حديقتها، يتبادلون السجائر والضحك والقبلات كما لو كان لديهم كل الوقت في العالم. حاولت التقاط المشهد في دفتر ملاحظاتها، ولكنها بدت بعيدة عن الصورة، متطفلة عليها. بعد أن ملأت صفحة كاملة، أرادت تمزيق الدفتر والانفجار في البكاء، ولكن القيام بمثل تلك الحركات الدراماتيكية لم يعد متاحًا للأسف، لذا قامت ببساطة بإغلاق دفتر الملاحظات ووضعه مرة أخرى في حقيبة يدها، وعادت إلى اتجاه سيارتها. من المفترض أن تتناول أطروحتها للدكتوراه تأثير كتابات سيلفيا بلاث على كتابة تيد هيوز. لطالما أيَّدَ النُّقَّاد النقطة المعاكسة، مؤكدين على تأثير هيوز المهم على كتابات بلاث، خاصة في سنواتهما الأولى معًا، عندما اعتادا كتابة مسودات من القصائد والقصص الجديدة على ظهر مخطوطات بعضهما بعضًا. اعتقدت جينيفر أنها كامرأة ستكون قادرة على إعادة تأكيد التوازن لصالح بلاث. ألا ينصُّ الافتراض على أن هناك امرأة عظيمة وراء كل رجل عظيم؟ ولكن كلما قرأت جينيفر أعمالهما زاد تعقيد حجتها. صار الكاتبان متشابكين للغاية في خيالها –قبل موت بلاث وحتى بعده– لدرجة أنه أصبح من المستحيل فصل إنتاجهما تمامًا. هل كان محتوى كتاب هيوز الضخم عن شكسبير على سبيل المثال –الكتاب الذي ادَّعى هيوز أن تأثير كتابته قد تسبب له في سرطان القولون الذي قتله– تأمُّلًا مارَسَه حول تأثير سيلفيا بلاث الذي ترك أثرًا كالحرق على حياته؟ هل كانت بلاث قوة الفناء الجديدة التي دخلت أرض هيوز الخضراء والممتعة وهددت بهدمها؟ هل كانت شظايا سيلفيا بلاث الخشبية هي صورة لإنجلترا البروتستانتية الجديدة، أو ملفوليو[1]، أو شخصية هاملت الانتحارية؟

(1) إحدى شخصيات مسرحية «شكسبير» «الليلة الثانية عشرة»، مثّلت شخصية ملفوليو الالتزام والنظام وقد أشار الكثير من النقاد الإنجليز إلى إنه كان رمزًا لمجتمع البيورتن، الذي امتاز بتقاليده الخاصة وأصوله في الحياة.

t.me/yasmeenbook

وهل كانت الشظايا الخشبية لتيد هيوز تمثل إنجلترا الكاثوليكية وفكرة الغابة الساحرة حيث تنبعث ذكرى الظل والصمت في ظل شجرة التفاح؟ إذا كان كل النقد شكلًا من أشكال السيرة الذاتية، فهل يمكن تطبيق هذه الفكرة، ليس فقط على نقد هيوز شكسبير، ولكن أيضًا على نقد جينيفر تيد هيوز نفسه؟ هل كان من الممكن أن تكون درجة الدكتوراه مجرد استراتيجية لإقناع نفسها بأنه لم يكن أندرو هو الذي رسم شخصية جينيفر –بمعنى فلسفي– ولكن جينيفر هي التي رسمت حدود شخصية أندرو؟ رغمًا عن كون أندرو ولا شك يملك تفسيرًا مغايرًا للأمر. لم تكن أطروحة الدكتوراه عن تيد هيوز، أو حتى أندرو، بل كانت عن والد جينيفر وإيما. مات والدهما عندما كانت جينيفر في الخامسة عشرة من عمرها وإيما في الثانية عشرة. قبل أن تجتمعا في أثناء الدراسة في الجامعة نفسها، عاشت الشقيقتان حياة منفصلة كلٌّ في مكان؛ جينيفر في جوهانسبرج في منزل صغير من الطوب الأصفر مع أمها، وإيما في المنزل الكبير في جراهامستاون مع تلك الساحرة المغتصبة التي سرقت والدها. شجع أندرو جينيفر دائمًا على فصل تفكيرها في نفسها وإيما عن أمها ووالدة إيما، أخبرها أن والدها لم يرفض حبها قط، وحقيقة أنه أحب والدة إيما أكثر لا يعني أنه أحب إيما أكثر. ولكن جينيفر كانت هناك، وكان لديها تفسير آخر: لقد أحب إيما بدافع الحب، وجينيفر بدافع الشعور بالذنب، وسيظل الحب دائمًا عاطفة أكثر ثباتًا واستدامة من الشعور بالذنب. أما عن أندرو، فقد كان على حق –على الأقل إلى حد ما– في رأيه حول أطروحة الدكتوراه شبه المهجورة. انجذبت جينيفر إلى أندرو لأنه ذكرها بتيد هيوز، وانجذبت إلى تيد هيوز لأنه ذكرها بوالدها. كان والدها أيضًا أكبر من أن تحتويه الحياة، كان يحب الصيد وتَعَقُّب الحيوانات وأكلها. دفنت ذكراه، واختلطت بذكرى الحيوانات التي قتلها. أمضى والدها معظم وقت فراغه في الصيد قبالة ساحل الكاب الشرقية، أو على ضفاف البحيرات الشاطئية. كانت جينيفر مساعدته الصغيرة، تختبئ من ضوء الشمس بالوقوف في ظله، وعلى استعداد للإمساك بأي سمكة يصطادها ويرفعها في خِفَّة خارج الماء. أرادت جينيفر أن تكتب عن تيد هيوز لأنها أرادت أن تفهم والدها بشكل أفضل، وربما لتفهم الحياة الداخلية الغامضة للرجال بشكل عام. أرادت أن تصدق أن مثل هذا الرجل يمكن أن يرتب حياته كلها لتدور حول حبه لامرأة ما، امرأة

t.me/yasmeenbook

سارقة يجلس الموت في قلبها حيث وجبت الأمومة أن تكون لتطهره. أرادت أن تصدق أن نسختها الخاصة لتيد هيوز يمكنها أن تحب نسختها الخاصة من سيلفيا بلاث بطريقة لم يحبها بها والدها قط. تبتلع اثنين من مسكنات الألم وتنظر إلى وجهها. ترتخي عيناها ويصير فمها أثقل عند حوافه، فيرتسم على وجهها تعبيرٌ أشبه بالفزع المتصاعد. أما شعرها الذي أصبح مموجًا أكثر في الآونة الأخيرة، فيحتاج إلى غسل. تدرك أنها لم تنظر إلى جسدها جيدًا منذ أسابيع، وربما شهور.

عادة ما تشعر بالسعادة كلما نظرت إلى نفسها في المرآة، وتكون ممتنة لأن طفلًا ما لم ينتزع جمال جسدها كما حدث لإيما. لطالما حظيت جينيفر بشخصية أفضل من أختها، خاصة مع مرور السنين. ولكن جينيفر تعرف أن الناس ينسون وجهها، بينما يظلون يتذكرون إيما. يحوي الحمام الخاص بهما نوافذ كبيرة تلتف حولها أوراق شجرة الزيتون. تطفو الغرفة في ضوء غامق خلال هذه الساعة من الصباح، كما لو أن الأرض تسبح في المياه بينما السقف كله انعكاس لها. تشعر بقليل من الألم يأتي من اتجاه قلبها؛ قد يكون عسر الهضم، أو ربما نذير شيء أكثر فتكًا، مثل أمراض القلب. مع تقدمها في السن، صارت تعاني من ظهور آلام غامضة في جميع أنحاء جسدها، ولكنها تعلمت العيش مع آلامها كضيف عشاء غير مرحب به. ومع ذلك، في غضون نصف ساعة، سيسري مفعول الكودين في جسدها. يبدو كصباح رقيق مُغَلَّف ببعض الضباب، وهو أمر غير معتاد في هذه المدينة. عندما تنظر إلى الأغصان ذات الحواف الحادة للنباتات المتسلقة، التي تمتد متشابكة صاعدة نحو السماء، تتخيل لحظة أنها في أوروبا، ولكنها بعيدة جدًّا عن أوروبا. في الواقع، كل تلك الأشجار منشغلة عنها بعلامات حتفها القريب. كل واحدة منها تحمل علامة منطبعة على جذعها تعلن وجود خنفساء الحفار، تلك التي جاءت من جنوب شرق آسيا وأصابت هذه الأشجار بفطر قاتل. تمتلئ كل شجرة حاليًّا بملايين اليرقات التي تتغذى على الفطريات. لا يمكن قطع الأشجار لأن ذلك قد ينشر العدوى في المناطق المحيطة؛ لهذا لم يبقَ أمامهم سوى الوقوف هكذا، عطشى للماء، باكيات. تركن سيارتها في الطرف البعيد من المتاجر المحلية، حيث يقف رجل كونغولي يبيع لوحات برتقالية وزرقاء زاهية. اللوحة الرديئة نفسها التي تنتشر في كل مكان، إلا إن الرجل تمكَّنَ بشكل ما طوال السنوات

t.me/yasmeenbook

الفائتة من الحفاظ على موقعه ومشروعه المزدهر. في الآونة الأخيرة، بدأ في رسم المشاهد من كتب تان تان. الصاروخ الأحمر والأبيض الهابط على سطح القمر، والغواصة على شكل سمكة قرش، والعلجوم العملاق. ظَلَّت جينيفر فترة طويلة تفكر في شراء واحدة منها هدية لجوليان؛ إذ يحاول الصبي حاليًّا قراءة جميع كتب تان تان باللغة الفرنسية. تدخل إلى المقهى المحلي الخاص بها وتحيي صف الموظفين بالاسم –إفرايم، ومارجريت، وثامو– بينما تتجه نحو طاولتها المفضلة في الزاوية البعيدة. تنتشر رائحة البنزين من خلال نافذة مفتوحة. السقف مُحَدَّب مثل سرداب المعبد؛ الأمر الذي يسمح لأصوات الحاضرين في المكان بالتردد كصدى حول رأسها، بدقات متتالية كضرب الطبول. على الرغم من أن لديها الكثير من المهمات، ولهذا السبب أخبرت زملاءها أنها ستأتي في وقت متأخر عن المعتاد اليوم. أخرجت أحدث مقال لجوليان من حقيبتها الجلدية. كانت مدرسة جوليان السيدة فيش، مدرسة اللغة الإنجليزية قد سَلَّمتها إياه بالأمس. تَدَّعي السيدة فيش أنها قلقة على الصبي وتريد معرفة ما إذا كانت هناك حاجة إلى نوع من «التدخل». وعدت جينيفر بإلقاء نظرة فاحصة على المقال والتحدث إلى والدة جوليان حول هذا الموضوع. تشعر السيدة فيش بنوع من الخوف –المنطقي إلى حد ما– تجاه والدة جوليان، التي أوضحت خلال المقابلة الأخيرة بين الوالدين والمعلمين أنها تعتقد أن السيدة فيش حمقاء.

«مر وقت طويل بعد منتصف الليل، ولكن المنزل كله كان مضاءً تحت مصباح الشارع. لم يشعر ديفيد بأي شيء بينما يقف في الحديقة الأمامية ويشاهد النيران وهي تأكل منزل عائلته. كان يعلم أن الحريق قد اندلع في غرفة نوم أمه، تمامًا عند سريرها؛ لأنه هو الذي أشعله».

كُتِبَ المقال بقلم حبر أسود. تبدو الكتابة مثل تلك الخطوط التي تظهر على شاشة جهاز كشف الكذب للوهلة الأولى، سطورًا يصعب فك شفرتها من النظرة الأولى. منذ عام واحد فقط كانت كتابات جوليان أكثر وضوحًا، أما هذا النمط الجديد فهو شيء استحضره مؤخرًا. تُذَكِّرُها سطور جوليان بعض

t.me/yasmeenbook

الشيء بخط يد جون كيتس[1] ، الذي رأته أول مرة في خزانة عرض زجاجية في منزل في هامبستيد؛ حيث استأجر كيتس غرفة قبل أن يُرسَلَ مَنفِيًّا إلى إيطاليا، ومن بعدها الموت. من المحتمل أن تكون قراءتها المقال بالأمس قد تسببت في هذا الصداع الذي تشعر به الآن، الذي بدأ في التراجع مُخلِّفًا ما يبدو كألم كدمة في رأسها. قصة مؤلمة؛ قصة أم تحتضر وأب لا يهتم وصبي لا يدرك أنه قد مات بالفعل. كما إن غياب شخصية جينيفر عن القصة مزعج أيضًا. حتى الآن، فشلت في الظهور في أيٍّ من مؤلفات جوليان. ما لم يكن من الممكن ربطها بإحدى الأمهات البديلات في هذه القصة الحالية –جليسة الأطفال، أو صديقة الأب– اللائي يظللن مجهولات الهوية وبلا دور فَعَّال. لا يسعها أيضًا إلا أن تشعر بالاستياء من مهارته الأدبية، وهو أمر رائع بالنسبة إلى صبي بلغ لتوه من العمر خمسة عشر عامًا. عندما تنظر إلى كتاباته، تفكر في الوشوم؛ القلم والإبرة، والصفحة التي يترك قلم الصبي الأسود علاماته الأبدية فوقها. تشعر جينيفر دائمًا بأن محاولاتها في الكتابة محاولات هَشَّة، ستمحوها العاصفة الرعدية التالية كأن لم تكن.

«فقط عندما مر والده مباشرة عبر جسده –كما لو كان مصنوعًا من الهواء– أدرك ديفيد أنه مات، وأن جسده كان لا يزال هناك يحترق مثل شمعة سوداء في مكان ما داخل المنزل».

تلتقط كوب القهوة الذي وصل في مرحلة ما في أثناء إعادة قراءتها القصة، وتحرق شفتيها بالسائل الساخن. تدفع جينيفر الصفحة بعيدًا كما لو كانت رسالة مزعجة من هيئة حكومية. ليست القصة هي المزعجة –من الشائع بدرجة كافية أن يتخيل المراهقون وفاتهم أو وفاة والديهم– ولكنها اللغة المتقعّرة، والمبالغة، والمتعة في وصف الشمعة السوداء المشتعلة داخل المنزل.

تتعرف على هذا الصوت لأنه الإحساس المظلم نفسه الذي يمر عبر نثرها كلما كتبت. تتساءل عما إذا كانت هي التي أثارت فيه شهيته للظلام. ربما لا تدور هذه القصة حتى حول إيما؛ إيما لطالما كان لديها ما يكفي

---

(1) «جون كيتس»، شاعر إنجليزي، صار واحدًا من شعراء الحركة الرومانتيكية الإنجليزية المهمين في مطلع القرن التاسع عشر.

t.me/yasmeenbook

من الحليب في ثديها، والشعر الغزير فوق رأسها. ربما تدور هذه القصة حول وفاة جينيفر نفسها؛ جينيفر التي لم تنجح قط في صنع أي حليب، التي يواجه شعرها غير المغسول حاليًا خطر التساقط. قررت تسليم المقال إلى أندرو. ربما استطاعت أن تجعل الصبي يذهب ويتحدث إليه. قد يكون أندرو زوجًا مخيبًا للآمال، ولكنها تعتقد أنه لا يزال محللًا نفسيًا جيدًا. يبدو أن لديه طريقة للتعامل مع المرضى الأصغر سنًّا، على وجه الخصوص، وقد عرفت دائمًا أنه إذا كان مُنِحَ نصف فرصة ليكون أبًا، فلربما صار أبًا لطيفًا وملتزمًا للغاية. تميل إلى إلقاء اللوم على عقمهما، ولكنها تشتبه سِرًّا في أنها هي السبب وحدها، تُرجِعُ الأمر إلى عش البيض الميت الذي كانت قد خزنته داخل رحمها. بينما تنظر إلى الصفحة بكتابتها العنكبوتية السوداء، لاحظت أول مرة الاسم الذي اختاره جوليان لنفسه: ديفيد. تتساءل من هو جالوت[1] بالنسبة إليه. كل الكبار في عالمه المختزل؟ أم واحد منهم فقط؟ هل هي إيما؟ أم جينيفر؟ أم أندرو؟ ربما والده الغائب؟ أو شخصية قوية أخرى لا تعرفها جينيفر؟ من الجائز جدًّا أن يكون خصم جوليان هو خصم داخلي. هذا أمر شائع بدرجة كافية في عالم الخيال. غالبًا ما تبدأ رحلة البطل من نقطة التفكير في أن العائق الذي يواجهه خارج نطاقه، وحتى تمام الإدراك بأنه ربما كان العائق في الحقيقة داخليًّا فقط؛ ولهذا يؤمن بأنه يستطيع مواجهته وحل العقدة. قررت لقاء جوليان في وقت لاحق من اليوم لإخباره بذلك. ربما سيكونان حينها قادرين على الاتفاق على أنه لا يوجد أي جالوت عليه هزيمته من الأصل. يقع فصلها في الجزء الخلفي من المدرسة فوق حقلٍ أجرد، وصَفٌّ من الأشجار الموبوءة بالخنافس، والتي صارت تشبه صَفًّا من الأيدي الهيكلية الملطخة بالدماء. نصبت المدرسة أعمدة لعبة الرجبي، وجلست جينيفر تنظر إلى بعض الأولاد وهم يركلون الكرة بينما تُحَضِّرُ خططها لفصول اليوم. على عكس أمها، التي كانت تدرس الفتيات فقط، لم تُدَرِّس جينيفر سوى في مدارس للصبية. تعلمت على مر السنين إخفاء انزعاجها منهم. عندما كانت أصغر سنًّا، اعتادت أن تشعر بأعينهم تتجول فوق جسدها كما لو كانت تبحث عن داعٍ لإطلاق بعض النكات الخفية، ولكنهم في هذه الأيام يعرفون

(1) جالوت هو أحد الملوك الجبارين من أعداء بني إسرائيل، وقد وردت قصته في القرآن الكريم، حيث قتله داوود القائد اليهودي الشاب. (المحرر)

t.me/yasmeenbook

أنه من الأفضل لهم ألا يحدقوا إليها بينما تمر. قررت أن شخصيتها في الفصل الدراسي يجب أن تكون بسيطة وساخرة. تضمن جينيفر في كل مرة أن تسبق أفكارهم بخطوة، وتعيد روح الدعابة إليهم قبل أن يجدوا طريقة لإزعاجها. ولكنها في النهاية تفضل الأولاد؛ تجدهم أكثر تسامحًا من الفتيات. تشعر أحيانًا في الفصل أنها تقف على منحدر تل والرياح تعبث في شعرها، محاطة بطلابها الأشبه بتجمع صاخب من الثيران؛ متوحشين جدًّا، تملؤهم الحرية والعفوية. لم يرغب جوليان يومًا في التكيف مع القطيع. غالبًا ما تراه يتجول حول حدود الحقل عبر نافذة الفصل الدراسي، ولا يبدو أنه يخطر بباله أنه يمكنه مشاركة الجمع في أنشطتهم، كما يبدو أن الأولاد الآخرين قد جُبِلوا على تَحَمُّلِه في حالة لم يتقَبَّلوه تمامًا. على حد علمها، لم يتعرض قط للتخويف أو الإيذاء. اعتاد جوليان النظر مباشرة إلى أعين محدثيه، الأمر الذي كان يجعلهم متحيرين بشأنه. في غرفة الموظفين مؤخرًا، أشارت السيدة فيش إلى أنه «غامض جنسيًّا»، وهي عبارة لا معنى لها، ولا تهدف إلى شيء محدد. ألم تكن كل أنواع الجنس غامضة؟ ولكن جينيفر تعرف ما تعنيه السيدة فيش. لاحظت جينيفر عدم مبالاة جوليان بحياة الأولاد من حوله؛ بالطريقة التي تجعل نظرته إليهم تعبر أجسادهم الشفافة بالنسبة إليه كما لو كانوا بالكاد موجودين. لقد رأت أيضًا الطريقة التي يمكن بها لفتاة ما أن تضيء حياته؛ الطريقة التي تنير فيه شعلة عنيدة تشبه تلك التي تلمع عبر الأحجار الكريمة، والتي يمكن أن تستغرق أشهرًا حتى تنطفئ. وجدت جوليان في أثناء الاستراحة الثانية جالسًا على مقعد تحت شجرة من الأشجار المريضة النتنة بلا أوراق.

غالبًا ما يأتي إلى هنا للقراءة. يتمسك اليوم بكتابه كما لو أنه مجرد لافتة يحملها لإخبار الآخرين أنه لا يريد أن يزعجه أحد. ومع هذا، يشعرها وضعه بأنها مضطرة بالفعل إلى إزعاجه.

- تبدو مُتعَبًا.

يُبرِزُ شعره المصبوغ مؤخرًا الضوء على شفتيه الداكنتين والظلال تحت عينيه، واللتين –مثل أمه– تتغيران بتغير اتجاه الضوء. ينظر إلى الأعلى كما لو كان يتوقع قدومها، أو أنهما قد رتبا للقاء ها هنا. لا يحبها أن تَخُصَّه بالحديث خلال ساعات الدوام المدرسي، ويتظاهر دائمًا بأنه لا يراها، ولكنه

t.me/yasmeenbook

اليوم يبتسم بارتياح واضح ويضع كتابه، وهو رواية كتبها كاتب إفريقي ذو اسمٍ طويل وغير مألوف.

يقول: «أنهينا لتَوِّنا حصتين متتاليتين للمادة نفسها». كما لو كان هذا تفسيرًا كافيًا لشعور الإرهاق الواضح عليه.

- الفيزياء؟

يهز رأسه فقط.

تقول: «لطالما كَرِهتُ الفيزياء أيضًا». على الرغم من أن هذه كذبة؛ لأنها لا تتذكر شيئًا عن دراسة الفيزياء في المدرسة، إذ قَضَت تلك السنوات في التحديق من نافذة مدرستها.

أومأ برأسه مرة أخرى، ربما ليشير إلى أنه سمع كل هذا من قبل. تنتهز الفرصة لتجلس بجواره على المقعد، الذي لُوِّنَ مؤخرًا باللون الأخضر ولا يزال لَزِجًا قليلًا حتى يجلس أحدهم فوقه. عبر صف الورود، يمكنها أن ترى جرس المدرسة البرونزي، المعلق تحت قوس أبيض عليه شعار مدرسة سانت فرانسيس: فلور دي ليز. دق الجرس هو أحد التقاليد التي لا تزال تؤيدها المدرسة، وتوكل مهمة قرعه كل يوم إلى صبي مختلف. لم يتبقَّ سوى بضع دقائق قبل أن تنتهي الاستراحة؛ لذا ستضطر جينيفر إلى بدء مهمتها بسرعة.

- قرأت قصتك الأخيرة؛ سَلَّمَتني إياها السيدة فيش.

يقول بنبرة غير مؤيِّدة للأمر: «حسنًا. هل أعجبتك؟»

- أعتقد أنها مكتوبة بشكلٍ جيد جدًّا.

- شكرًا.

لا شك أنه يفضل إيقاف المناقشة عند هذا الحد؛ فمن الأسهل عليه قطعًا أن يجلس ما تبقى من الاستراحة محدقًا إلى بقايا ورد الصيف الماضي. ولكن جينيفر –كالعادة– تُصِرُّ على الضغط عليه. طبقًا لتجربتها، فعلى الفرد أن يبذل مجهودًا مستمرًّا مع الأولاد. إذا فقدت إصرارك لحظة تشتت انتباههم، وحينها سيجب عليك مضاعفة جهدك لاستعادتهم.

- هل كانت تلك المسودة الأولى؟

t.me/yasmeenbook

- الثانية. في المسودة الأولى كررتُ كلمة «مميز»، وأخبرتنا السيدة فيش أن درجات التقييم تنخفض بتكرار استخدام الكلمات ذاتها في النص.
- هذا إذا كنت تستخدم التكرار بشكل أساسي.
- قالت السيدة فيش أيضًا إنه عليَّ أن أخفي أهم المعلومات وأطلقها فقط في الوقت المناسب حتى أحصل على التأثير الأكثر دراماتيكية. لذا، في المسودة الثانية أخفيتُ المعلومات التي قد تفيد بأنني ميت بالفعل.

قالت: «فكرة جيدة للغاية». وهي تلاحظ انزلاقه للتعبير عن بطل القصة بضمير المتكلم.

يحمل الصبي في القصة شيئًا من نفس جوليان، حتى إنه يعرف هذا عميقًا في عقله. ينحني ممتنًا لمجاملتها، وهي لفتة اعتادها منذ طفولته المبكرة، كما لو كان يريد أن ينحني تحت مديحها، أو ربما يجربه على كتفيه مثل معطف جديد.

- من أين أتيت بفكرة حرق المنزل؟
- طلبت منا السيدة فيش أن نكتب شيئًا يتعلق بعناصر الطبيعة. اخترتُ النار لأنه لا يوجد الكثير من الرياح أو المياه في جوهانسبرج، وقد صارت الأرض جرداء مؤخرًا.
- لاحظتُ أنك قد اخترت للأم في القصة موتًا طويلًا وصعبًا.
- هناك صبيٌّ في صفنا ماتت أمه بالطريقة نفسها. هل تعرفين سيمون سبنسر؟

تومئ برأسها، رغم أنه لا يرى إيماءاتها ولا حتى يحاول النظر إلى إجابتها. علم المعلمون كُلُّهم بوفاة والدة سيمون في حينها.

مَرَّت من أمامهما امرأة طويلة ونابضة بالحياة ترتدي معطفًا أرجوانيًّا من الستان، وواصلت السير على الطريق من حجرة الدراسة وانتهاء بموقف السيارات بأوشحتها الحريرية وعصاها الطويلة.

- حسنًا، لقد استعنت بما قاله سايمون عنها.
- هل قرأ سايمون قصتك؟
- طلبت السيدة فيش مني قراءتها في الفصل.

t.me/yasmeenbook

- كيف كان رد فعله؟

نظر جوليان إليها بإدراك مَن اكتشف أنه ربما يكون قد فعل شيئًا خاطئًا. يشبه إيما تمامًا في تلك النقطة؛ يقرر كلاهما التعامل بحرية في استخدام ما يحلو له من حياة الآخرين إذا كان يخدم «فَنَّهما». قد تكون نظريتهما تلك أكثر تَقَبُّلًا إذا كان لديهما بعضٌ من الاحترام للاحتفاظ بإبداعاتهما لنفسيهما، كما فعلت جينيفر دائمًا، إذا كان لنا أن نصف تدوينات دفتر ملاحظاتها بوصفٍ رفيع مثل الفن.

- إنها مجرد قصة. لقد كتبتها في اليوم السابق لعيد ميلادي، بينما كانت أمي تصنع كعكة الشوكولاتة الخاصة بي.

- هل قرأت إيما قصتك بعد؟

تعرف جينيفر بالفعل الإجابة عن هذا السؤال، ولكن شيئًا ما بداخلها يريد إثارة الأمور. إن رضا إيما وابنها عمَّا يفعلان هو ما يزعجها في أغلب الأحيان؛ السهولة التي ينغمسان بها فيما يسمى موهبتهما بينما لا يهتم أيُّهُما بالعواقب المترتبة على آلام الآخرين.

- لا.

تقول جينيفر بهدوء: «ربما عليك أن تجعلها تقرؤها». من الأفضل إخفاء خيانتها بتسريبها القصة لإيما بالفعل.

- لماذا؟

- لأنها جيدة.

يهز رأسه في غير اقتناع، بينما تشعر هي أنه يبتعد عنها بذهنه. لم يكن يعجبه قط أن تتحدث جينيفر عن أمه، حتى وإن بدا ما تقوله مجاملة لها. مارست جينيفر هذه الحيلة مرارًا بينما يتحدثان هو وهي كفردين في القبيلة كما لو كانت علاقتهما مقدسة. تكمن مشكلة جوليان في أنه لطالما عرف الكثير عن شؤون إيما، والمشكلة الأكبر هي أنه لم يفهم تفاصيل أيها على الإطلاق.

- لا تتحدث قصتك عنها بأي شكل من الأشكال، أليس كذلك؟

t.me/yasmeenbook

يفاجئها جوليان بعطسة. كان أنفه عرضة للنزيف دائمًا، خاصة خلال أشهر الشتاء الجافة في جوهانسبرج. يمكن لأدنى خبطة أن تجعل أنفه ينفجر بالدم في الملعب، فينتشر الدم المخملي الداكن على قميص الرجبي متسللًا حتى إلى قميصه. عادة ما يتبع ذلك نظرة ارتياح على وجه الصبي؛ إذ يصبح لديه حينها سبب مشروع للانسحاب من المباراة.

يقول بينما يختبر أنفه بطرف إصبعه: «لا». ولكنه لا يجد دماء.

تقول جينيفر بلا مشاعر: «جيد. لأنك قد مارست عُنفًا شديدًا نحو الأم».

- أتعتقدين ذلك؟

- يحرم الراوي الأم من ثدييها وشعرها في بداية القصة.

يحتجّ جوليان: «ولكن الراوي يُحِبُّها. إنه لا يحرمها هذه الأشياء، هم من يحرمونه منها... أعني يحرمونه منها بالكامل. هو لا يستطيع العيش دونها في القصة. أظن أن القصة إنما تحكي في الواقع عن الحب».

لم تصل جينيفر إلى هذا التفسير حين قرأت القصة، وقد أزعجها التفسير. لطالما جادلها أندرو قائلًا إنها تشعر بالغيرة من الحب بين جوليان وأمه، ومع ذلك لم يحاول يومًا فعل أي شيء لمساعدتها على الخروج من هذه الحالة. مثل تبني طفل، خاصة بعد أن بدا أنهما غير قادرين على إنجاب طفل بنفسيهما.

كان كل ما استطاعت أن تردَّ به هو: «لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة».

ظَلَّا هناك بلا حراك بينما كان صبيٌّ صغير يركض عبر الحديقة باتجاه جرس المدرسة. يتوقف تحت الممر ويستشير ساعته. الطريقة التي يسقط بها ذراعه بلا جزع توحي لجينيفر أنه لا يزال أمامهما بضع دقائق.

- هل تعلم أنني لم أتحدث قط عن الأشياء التي نناقشها أنا وأنت مع إيما أو أندرو؟ لطالما حافَظتُ على خصوصية محادثاتنا.

يقول ويبدو كما لو أنه لم يحافظ على ذاك العهد: «أعرف ذلك».

- هل يمكننا أن نعد بالحفاظ على ما بيننا دائمًا بالطريقة ذاتها؟

يقول بالتسليم ذاته: «حسنًا».

- عليَّ أن أضيف أنني أحب أمك كثيرًا.

t.me/yasmeenbook

ينظر إليها بتسامح، مُشتَبِهًا في أن أفكارها قد اضطربت، في أنها قد صارت مُشَوَّشة التفكير. ولكن ما لا يعلمه، أن ذاك قد حدث بالفعل منذ وقت طويل جدًّا؛ قبل وقت طويل من التقاط هذا الطفل الغالي الثمين أنفاسه الأولى.

تقول مُفَسِّرَة: «كلانا يحبها. لهذا يمكننا التحدث عنها بحرية، كما نفعل في بعض الأحيان».

ينتظرها لمواصلة الحديث، ينتظرها بيأس الأطفال، أولئك الذين لا يملكون التصرف في حياتهم بعد ويتعين عليهم التكيف مع تقلبات الكبار غير المفهومة.

- تقول إن قصتك تدور حول الحب، ولكنها تتعلق أيضًا بخيبة الأمل والخسارة. ألا تشعر بالخذلان على الإطلاق يا جوليان؟

- تقصدين من طرف أمي؟

- من طرفها... أو من طرف أيٍّ منا؟

يقول مستبعدًا جينيفر تمامًا من حديثه: «أرى أنها تبذل قصارى جهدها دائمًا تجاهي».

تقول جينيفر وهي تقوي نفسها على الحديث رغمًا عن النصل الصغير داخل قلبها: «مع هذا، أشعر أحيانًا بالقلق. يُقلِقُني أنك تعتقد أن الصبي في القصة لا يمكن أن يعيش لأن أمه لم تعد موجودة. وتُقلِقُني الطريقة التي يوجه بها الصبي مشاعره العنيفة نحو والديه تجاه نفسه».

يسألها محاولًا أن يظهر نفسه على قدر من الغباء الذي لا يملكه حقًّا: «تقصدين لأنه انتهى به المطاف ميتًا؟»

- حسنًا، نعم.

- لأنني قلت هذا في القصة؟ كان هذا مجرد تطور في الحكاية. قالت السيدة فيش إننا يجب أن نجد ما وصفته بالحبكة نهاية مثيرة.

تبتسم جينيفر بتسامح.

- أنت ولد ذكي يا جوليان. لطالما كُنتَ ماهرًا في إيجاد طريقة للتنصل من الحوار. ولكن لا تنسَ أنني أعرفك منذ لحظة ولادتك.

مرة أخرى يحتمل الحديث صامتًا.

t.me/yasmeenbook

- أشعر (ليس فقط عبر هذه القصة، ولكن عبر العديد من الأشياء التي تقولها وتفعلها) أنك تحاول دائمًا لوم نفسك بطريقة ما.

- عَلامَ ألوم نفسي؟

- على انفصال والديك، على مغادرة والدك. ولكني أريد أن أخبرك أنه لم يكن خطأك. لم يكن يومًا ذنبك.

- من يتحمل الذنب إذن؟

- اللوم شيءٌ معقد. هناك دائمًا سبب وراء حدث ما، وسبب وراء السبب، وهكذا، حتى تعود بكل الأحداث إلى زمن آدم وحواء.

- إذن هل كان الثعبان في الفردوس هو السبب في طلاق والِدَيّ؟

على الجانب الآخر من شجيرات الورد العارية، نظر الطالب إلى معصمه مرة أخرى، ولكنه لم يتحرك بعد لقرع الجرس.

- في هذه الحالة، من المحتمل أن السبب كان شخصًا من داخل المنزل.

- حقًّا؟

- هكذا كانت إيما دائمًا، لا يمكن الاعتماد عليها.

يُشيحُ جوليان بنظره عنها وقد نفث غضبًا أو نفاد صبر من فمه.

- تقولين إن ترك والدي لنا كان خطأ أمي؟

- لقد خانَته، بالتأكيد تعرف ذلك.

- عفوًا؟

- وخانتني أنا أيضًا.

يبدو الحوار سخيفًا، في نظر كل منهما.

- خانتكِ؟

تنهار ملامحه محاولًا الاختفاء داخل زوايا عقله لاستيعاب الموقف.

- أنا واثقة من أنك تعرف بالضبط ما أتحدث عنه.

يسري تيار مظلم عبر جسدها الآن؛ التيار نفسه الذي يتماوج عبر مقال جوليان، يخلق شعورًا من الإثارة كذاك الذي تسببه العلاقات الحميمية.

t.me/yasmeenbook

لطالما ربطت جينيفر بين الموت والعلاقات الحميمية، التي تؤصل للعنف في جذورها، وأن الموت أمرٌ مُحَرَّم مرغوب.

- من الأفضل أن تعود إلى الصف؛ آخر شيء أريده هو أن تتأذى، بأيٍّ من هذا.

يفاجئها بإمساك يدها.

- خالتي جين، يمكنكِ أن تخبريني بالحقيقة. أعدك ألا تعرف أمي ما يجري بيننا.

تحترق الدموع في عينيها بينما تقول: «ولكنني لا أعلم إنْ كان عليَّ أن أخبرك بهذا». ربما هذا من أثر لمسته المفاجئة، يده المتعاطفة بحرارتها في كفها، صارت كأرنب وقع بلا أمل في الفخ.

يقول بكل براءة: «مهما كان ما ستقولين، سيكون كل شيء على ما يُرام».

تبدأ في الحديث وهي تشعر بالسم البارد يسري إلى كَفِّه عبر كلماتها: «كما ترى. إنها تؤصل فينا ولاءنا لها، بينما هي لا تلقي للوفاء نفسه بالًا. لطالما كانت لها قواعد لنفسها مختلفة عمَّا تطلبه من الآخرين».

- أظنني أعرف من الذي تتحدثين عنه.

- تعرف؟

- نعم، طبعًا.

تفكر أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا، ولكنها تومئ برأسها على أي حال، وتمسح الدموع عن وجهها المبلل بيدها الحَرَّة.

- نحن نعرفُ دائمًا أكثر مما نحن على استعداد للاعتراف به.

رقدت يده في يدها بلا حرارة، ولكنها ظلت تمسك بها، بينما كان هو يحدق إلى ركبتيه المدببتين اللتين صارتا الآن ترتعشان كما لو كان يحاول جاهدًا التركيز في الحديث المفاجئ.

- رأيتها ذات مرة.

- ماذا تقصد بذلك؟

- رأيتها مع رجل آخر.

t.me/yasmeenbook

تنتظر جينيفر منه إكمال حديثه بدافع من لياقة.

يُكمل جوليان: «في آمهالانجا روكس، رأيتها مع والدها».

- عفوًا؟ والد مَن؟

- كلير، الفتاة التي ماتت. الفتاة التي قُتِلَت في حادث السيارة.

- أوه.

- رأينا أمي وأباها يفعلان ذلك في غرفتنا. دخلنا إلى الغرفة وكانا هناك.

- تقصد أنك رأيت إيما... في السرير؟

- رأيتها معه. كلانا فعل. أصابني المشهد بالغثيان.

منعت جينيفر نفسها من الضحك بصعوبة. كانت الفرصة مثالية للغاية، لم يكن لها أن تخطط للأمر بأفضل من ذلك وإن حاولت. كيف يمكنها أن تقول له الحقيقة؟ خاصة بعد أن ظل يعتقد طوال الوقت أن إيما هي من كانت في السرير تلك الليلة؟

- ألهذا كُنتَ مستاءً جدًّا في نهاية تلك العطلة؟

- ألقت كلير باللوم عليّ. قالت إنها لا ترغب في رؤيتي مرة أخرى.

- أنا آسفة.

- اعتَقَدَت دائمًا أن والديها زوجان مثاليان.

- صدقني، لا يوجد شيء كمثل هذا الذي تصوَّرَت الفتاة.

كان والد كلير يُدعى جون. اسمٌ جيد، يمنح شعورًا بالطمأنينة، غير مميز بحال. ربما كانت جينيفر ستحاول مقابلته في جوهانسبرج بعد انتهاء العطلة لو لم يمت في طريق عودته إلى المنزل. تساءلت حينها عما إذا كان حادث السيارة خطأها أم لا. هل كان البالغان في السيارة يتجادلان؟ هل كان جون يفكر فيها بينما يجدر به الالتفات إلى الطريق؟ مع هذا، فإن صورة زوجته النائمة مع طفليها في المقعد الخلفي –الصورة الأشبه بعودة هانسل وغريتل[1] إلى أمهما المفقودة منذ فترة طويلة– تدفع إلى بالها بكثير من

(1) قصة من التراث الشعبي الألماني، عن هانسل وغريتل اللذين فقدا الطريق إلى بيتهما واستطاعا العودة إليه عن طريق فتات الخبز الذي أسقطه هانسل من البيت وحتى منزل الساحرة.

t.me/yasmeenbook

الراحة. من المرجح أن الحادث لم يكن له علاقة بجينيفر على الإطلاق. لم يكن جون هاملتون براون هو الشخص الوحيد الذي أقامت جينيفر علاقة معه في أثناء زواجها. كان هناك اثنان آخران: مدرس العلوم في سانت فرانسيس، العلاقة التي استمرت مدة عام، حتى انتقل المعلم مع زوجته وأبنائه إلى مقاطعة أخرى، وصديق قديم لأندرو، الذي أراد هجر زوجته من أجلها بعد أسابيع قليلة فقط من علاقتهما، وهكذا أنهت جينيفر الأمر. شرط وحيد فرضته جينيفر على علاقاتها، هو أن يكون الرابط بينهما لحظيًّا وبلا تَعَلُّق. لم تُقِم علاقة قط مع رجل لأنها تبحث عن الحب تعويضًا عن زواجها الذي يفتقد الحب. أحبت جينيفر زوجها كثيرًا –يمكن لأي شخص أن يرى ذلك– ولكن على مر السنين أصبح أندرو غامضًا للغاية، لدرجة أن الطريقة الوحيدة للنجاة من ألم البعد هذا هو أن تصير هي الأخرى غامضة قدر الإمكان في جواره. عاش الاثنان معظم حياتهما مثل شبحين رزينين، ولم ينجحا إلا مرات معدودة في إعادة الشغف إلى علاقتهما الحميمية، فكان دور الأحباء في حياة جينيفر يتلخص في إعادة الدم إلى عروقها مرة أخرى، وأن يُذَكِّرَها أنه لا تزال هناك حياة في داخلها. لم يعرف أحد عن هذه العلاقات ولا حتى إيما منذ بدايتها –على الأقل على حد علمها–، ووصولًا إلى جون هاملتون براون. لطالما شعرت إيما وأندرو بعظيم من الذنب والأسف تجاهها، لم يعرفا أنها ربما مارست الجنس في السنوات العديدة الماضية أكثر من كليهما مجتمعين. كان ذلك هو أحد الأسباب التي جعلتها تحتفظ بتدويناتها في دفتر يومياتها لنفسها. يتحدثان نيابة عن شخص لا يعرفه أيٌّ منهما. ولكن عجرفتهما هي أكثر ما يسيء إليها. فكرة أن جسمها جسد مهمل يستحق الشفقة. إيما وأندرو يستحقان بعضهما بعضًا في الواقع؛ مخلوقات لطيفة وحسنة النية لا تفكر سوى في نفسها.

أما جوليان، الذي يحدق إليها ظانًّا أنها شاردة من أثر الصدمة، فجلس يملؤه القلق، ذاك الذي يواجه الغزلان حين يتلفتون في حصارٍ بحثًا عن ثغرة للهرب منها. ومن ثم قررت أن تخبره عن الحلم الذي رأته مؤخرًا؛ كان بالأحرى كابوسًا، بدا وكأنه حقيقة تعيشها.

– في المرة الأولى لاكتشافي السر، ظننته بالفعل مجرد حلم سيئ.

t.me/yasmeenbook

- أي سر تقصدين يا خالتي جين؟

تتنهد كما لو كانت تنفث دخان سيجارة وهمية.

- تصادف أنني كنت أقود سيارتي بجوار منزلك، عندما رأيت سيارته بالخارج. كان الوقت قريبًا من يوم ميلادي، ولذا اعتقدتُ –بسخافة مطلقة– أنهما ربما جالسان لمناقشة حفلة مفاجئة، أو هدية عيد ميلاد جماعية. ولكن بعد ذلك جاء عيد ميلادي، ولم يكن هناك أي حفلة مفاجئة أو هدية جماعية. كل ما منحتني إياه إيما هو رسمٌ تخطيطيّ لجسد رجل، رجل عجوز جدًّا لا يمكن بالطبع أن يكون هو نموذجها لرسم اللوحة.

حاول جوليان الجالس على المقعد سحب يده، ولكنها أصرت على الاحتفاظ بها في قبضتها.

- لذلك عاودتُ المرور على منزلكما بسيارتي، في انتظار رؤية سيارته مرة أخرى. مررت بالفعل ذات صباح، عندما كان من المفترض أن يحضر مؤتمرًا ما في الجامعة. أوقفتُ سيارتي عبر الشارع، تحت شجرة البلوط الكبيرة تلك، وجلست هناك وانتظرت. لم يحدث شيء مدة طويلة، حتى نفد صبري، ونزلتُ من السيارة وعبرت الشارع إلى الباب الأحمر. عندما جَرَّبتُ المقبض، فتح. كالعادة، نَسيَت أمك إغلاق القفل.

كان جوليان يتنفس بوتيرة مضاعفة، كأنما يتنَفَّس مرة عنه ومرة عنها.

- فَكَّرتُ أن أجرب زيارة الاستوديو الخاص بها أولًا؛ إذ إنني أعلم أنها تحب البقاء هناك، خاصة في أثناء فترة وجودك في المدرسة في هذا الوقت من كل يوم. كما العادة، لا ترغب في أن يزعجها أحد بينما هي مشغولة جدًّا بعملها، ولكنني لم أُبالِ بذلك. كنت أصعد الطريق إلى المنزل عندما سَمِعتُ صُراخًا. عَلِمتُ على الفور أنه صوت أمك، وظننتُ في البداية أنها تتعرض لهجوم ما. كان الصوت قادمًا من مكانٍ بعيد داخل الحديقة، لذلك تسللت إلى هناك، بأكبر قدر من الهدوء استطعته، حتى رأيتهما. كانا هناك بجانب البركة، كان يرقد فوقها. في البداية، اعتقدتُ أنه كان يهاجمها بالفعل، كما لو كان يحاول خنقها. ولكن

t.me/yasmeenbook

بعد ذلك رأيت ما يحدث وفهمت. لم أستطع قول أي شيء أو فعل أي شيء، لم أستطع سوى الوقوف هناك، غير قادرة على الحركة، أو حتى التفكير.

- ولكن... من كان الرجل؟

- أعتقد أن كلينا يعرف إجابة سؤالك.

استعاد جوليان يده الآن، ولكن فقط لأنها مَكَّنَته أخيرًا من تحريرها. دَلَّكَ جوليان راحته، محاولًا ربما إعادة بعض الدم إليها. عند الجرس، ألقى الطالب نظرة أخرى على ساعته.

- أعتقد أحيانًا أن إيما تتوقع من الجميع هجرانها، مثلما فعل والدنا بموته في سن مبكرة، ومثلما فعل والدك، أو اضطر في النهاية إلى فعل ذلك. لذا، ما تفعله هو أنها تحمي نفسها مقدمًا من خلال إبقائنا بعيدًا، بحيث عندما نتخلى عنها أخيرًا، حينها لن تتأذى.

كانت جينيفر تصف نفسها أكثر مما تصف أختها، ولكن جوليان لا يعترض، ظانًّا أنه صار لا يعرف أيًّا منهما على وجه الحقيقة بما يكفي للاعتراض على ما يُقال. ربما هناك أجزاء كاملة من شخصيات أمه وخالته لم يلمحها حتى.

تواصل جينيفر: «ولكن إيما دائمًا دقيقة. لن تسمع أمك أبدًا تقول كلمة قاسية عن أي شخص. إنها تتظاهر دائمًا بأن لديها قلبًا دافئًا ومُحِبًّا. لسوء الحظ ليست تلك شخصيتها الحقيقية. أعتقد أحيانًا أن لديها شيئًا مفقودًا في إنسانيتها. تلك النقطة البيضاء في العين في اللوحة التي تجعلها تبدو بشرية».

عبر حديقة الورد، ترى جينيفر أطفالًا يركضون نحو مبنى الفصل الدراسي. لا بد أن الجرس قد دق ولم تسمعه حتى؛ فالضجيج داخل رأسها ضخم للغاية، واندفاع الإندورفين الآتي بعد كل جريمة قتل، بعد كل طقس يتضمن التضحية بطفل.

t.me/yasmeenbook

تُكمِلُ جينيفر: «لا يعني هذا أن إيما لا تحبنا، أنا واثقة من أنها تحبنا بطريقتها الخاصة. بعد هذا العمر الطويل بجوار أختي، أعرف أنك إن استمررتَ في البقاء حولها فترة كافية فسوف تعود إلينا دائمًا».

لا يتحرك جوليان من مكانه، ولا حتى في اتجاه الصف مع الآخرين. ربما فاته صوت الجرس أيضًا. أم إنه ببساطة يشعر بالضياع الشديد؟

- وفي خضم كل هذا يا طائري الوقواق الصغير، ما يزال لدينا بعضنا بعضًا، أليس كذلك؟

تقترب لالتقاط يده مرة أخرى، فيمنحها إياها من جديد.

- على الأقل والدك لا يزال هناك، على قيد الحياة في مكان ما من العالم. عندما كنت أصغر منك ببضع سنوات، أُصيبَ والدي بنوبة قلبية. أعتقد أنك سمعت هذه القصة، أليس كذلك؟

- القليل منها.

كان وجهه كلون الرخام الأبيض.

- لا شك أنك سمعت رواية إيما. ربما أخبرك بنسختي من القصة يومًا ما.

لا يزال جوليان جالسًا بجوارها، بوجه جامد كالفَزَّاعة.

- كان يجب أن تكون طفلي أنا منذ البداية.

يختفي الأولاد القلائل من حولهما داخل مبنى الفصل الدراسي. الطالب الصغير لا يزال واقفًا تحت الجرس؛ لقد قرع جرس التحذير فقط، قبل الميعاد بدقيقة واحدة. سيأتي الجرس الأخير في أقل من دقيقة.

تواصل جينيفر: «كما تعلم، كنا أنا وأندرو في المستشفى عندما ولدت. سمحت لي الممرضة بأخذك بين ذراعي. كُنتَ ملفوفًا بإحكام شديد، مثل هدية عيد الميلاد. أردتُ أن يلتقط أندرو صورة لنا نحن الاثنين فقط، ولكن إيما منعتني. قالت إنها كانت متعبة، وإنك في حاجة إلى الراحة، ولكنني عَرَفتُ حينها أنها كانت تغار. تغار من علاقتي بك. لذلك سَلَّمتك إليها كما لو كُنتُ الأم الحقيقية التي تتخلى عن طفلها. لم تشبه يومًا أيًّا من والديك. في الواقع أنت تشبه أندرو أكثر؛ بشرتك داكنة مثله. وقواق صغير، طفلي الوقواق».

t.me/yasmeenbook

ينظر إليها جوليان بعينين واسعتين. فكرت لحظة أنه سينفجر في البكاء وينهار بين ذراعيها، فجلست جاهزة، على استعداد لالتقاطه حين يسقط. بدلًا عن ذلك، تسقط قطرة من الدم ببطء من أنفه.

يقول جوليان بينما يمسح الدم عن وجنته: «هل تعلمين يا خالتي جين؟ العنف في قصصي لا يأتي أثره من أمي، بل من أثرِكِ أنتِ».

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل السابع

كعكة شوكولاتة كثيفة مرشوشة بالسكر

إيما - جوهانسبرج

عانت أعياد ميلاد جوليان من سلسلة طويلة من الكعكات الفاشلة، حتى الكعكات الجاهزة كانت مخيبة للآمال. وصلت كعكة الآيس كريم ذات مرة وقد طُبِعَت عليها سنوات عمر جوليان بشكل خاطئ، وفي عيد آخر جاءت الكعكة المزينة بصرح من الفانيليا الشاهق المصنوعة من كريمة فاسدة. مرة واحدة نجح الأمر؛ استعانت إيما بامرأة تتحدث اللغة الإفريقية تُدعى آنا عملت في مكتبة محلية مستقلة في جوهانسبرج، صنعت السيدة ذات مرة كعكة جزر لذيذة في عيد ميلاد جوليان، ولكنها للأسف تزوجت من مزارع أغنام وانتقلت إلى غراف-رينيت. كان السبب الرئيس في فشل الكعكات التي صُنِعَت بالمنزل هو إيما شخصيًّا. في منتصف عملية الخبز، قد تزورها قطتها برتقالية اللون لتُذَكِّرَها بأن تضع الطعام لها، وفي الوقت الذي تعود فيه إيما إلى الخبز تكون قد نسيت بالفعل ما أضافته للمزيج وما يحتاج إليه بعد. ناهيك بأن ميزان المطبخ لم يعد يعمل بشكل دقيق منذ المرة التي حاول جوليان فيها استخدامه في معرفة وزنه، أما الآخر الرقمي، فيظلُّ مُكَوَّمًا تحت معدَّات الخبز؛ مما يعني أنه عندما تأتي لحظة بدء الخبز، ستكون البطارية ميتة بالفعل، تاركة الأمر لتقدير إيما السيئ. لم تكن الرياضيات قط نقطة

t.me/yasmeenbook

قوتها، وعندما كانت في المدرسة طُلِبَ منها في النهاية التوقف عن الجدالات الرياضية؛ لأن أسئلتها لم تكن تربك الطلاب فحسب، بل كانت تربك المعلمة نفسها. ما يجعل الموقف أكثر خطورة هو أن جوليان لم يشتَكِ يومًا بسبب أيٍّ من كعكات عيد ميلاده. كان يحرص كل مرة على منحها الابتسامة الممتنة نفسها، المغلفة بقليل من خيبة الأمل المُحَيِّرة؛ إذ إنه كان يبذل قصارى جهده في التظاهر بأنه أحب الكعكة بالفعل. حتى عندما نَفَرَ جميع أصدقائه من كعكة الفانيليا الفاسدة، التقط هو قطعة وأكل طبقة الفانيليا فوقها كاملة بشوكته. كانت إيما تتدرب منذ فترة على صنع كعكة كثيفة من الشوكولاتة مرشوشة بالسكر، وهي واثقة من أن جوليان سيحبها. منذ واقعة كيكة الفانيليا، ظَلَّ جوليان يتفادى طبقات الحلوى المسكرة الصناعية، لذلك لَفَتَتَ هذه الوصفة انتباه إيما على الفور. لم يبدُ في بداية المحاولة أن الكعكة ستتطلب أكثر من كوب من الماء، وبيضتين، وما قد يصل إلى 45 دقيقة للخَبز. ولكنها اتبعت التعليمات بأكبر قدر ممكن، وبعد محاولتها الثالثة تمكنت من تحقيق شيء من «كثافة الزنجبيل» الموصوفة في كتاب الوصفات. اليوم هي مستعدة تمامًا. اشتَرَت أفضل المكونات: توت العليق من ماركة «تورينوس»، وشوكولاتة «كوت دي أور» المفضلة لدى جوليان، وسكر «موسكوفادو»، الموصى به في الوصفة التي تضفي على الكعكة «طعمها اللزج بالكراميل». لقد سخنت الفرن سابقًا، وأطعمت الأميرة بيكلز، ووضعت بطاريات جديدة في الميزان، ومنحت متسولًا عند الباب الأحمر إحدى قفازات جوناثان، وأغلقت هاتفها، وأفرغت بقية فترة ما بعد الظهر من جميع الالتزامات الأخرى.

- ماذا تفعلين؟

كانت تُذيبُ 225 جرامًا من الزبدة، وتضيف 100 جرام من الشوكولاتة الحلوة والمرة عندما ظهر جوليان في المدخل. بالأمس فقط صبغت شعره من أجل مسرحية المدرسة، ولحظةً اعتقدت أن صبيًّا آخر قد استولى على صوت ابنها.

- أوه، مرحبا يا حبيبي. أنا أخبز كعكتك.

يبدو جوليان حذرًا بعض الشيء لسبب مفهوم.

- لماذا لا تطلبين واحدة جاهزة؟

t.me/yasmeenbook

- لأنني وجدتُ وصفة كعكتك المثالية، وأودُّ أن أصنعها بنفسي.

أزاح جوليان كرسيًّا عن طاولة المطبخ، وجلس يشاهدها وهي تكسر البيضتين في الوعاء وتعيد تسخين الماء في الغَلَّاية. هذه المرة ستتطور عملية الخبز مثل رقصة تَدَرَّبت عليها جيدًا، وهي سعيدة بوجود جوليان هنا ليشهدها.

سألت إيما: «كيف حال المسرحية؟» وألقت نظرة أخرى على ابنها بشعره الأرجواني. «كيف حال أغانيك؟»

- جيدة، ولكن لا يمكنني الوصول إلى النغمات العالية، لذلك قرروا خفض النغمة. ولكن هذا يعني أنني لن أستطيع الوصول إلى النغمات المنخفضة، وسأبدو كما لو كنتُ أعوي طوال المسرحية. الحقيقة يا أمي هي أنني بلا فائدة حقيقية في المسرحية.

تقول إيما بينما تضيف 375 جرامًا من السكر إلى المزيج: «هذا محض هراء». وتُقَلِّبه بالملعقة الخشبية الكبيرة التي ورثتها عن أمها. «أنا واثقة من أنك أفضل المشتركين في العرض، بل والممثل الحقيقي الوحيد هناك».

- ولكنني لا أظهر على المسرح إلا لتأدية أغنيتين فقط.

كان لجوليان صوت رقيق رخيم، قبل أن ينكسر فجأة. كان فردًا من الجوقة المدرسية منذ صغره، وفي المدرسة الإعدادية كان يغني أحيانًا منفردًا أمام المدرسة. تتذكر إيما أنه وقف ذات يوم على المسرح يغني أغنية «O Holy Night»، وقد تأثرت بها أكثر من أي قطعة موسيقية أو عمل فني واجهته على الإطلاق. اعتقدت أن جزءًا عظيمًا من تأثرها بغنائه آتٍ من كونها أمه، ولكن في نهاية الفقرة كانت القاعة بأكملها تبكي. منذ أن بدأ صوت جوليان في الانهيار، كان من الصعب معرفة ما إذا كان سينتهي به الأمر إلى أن يكون تينورًا[1] ، أو جهيرًا، أو مجرد صوت عادي بين أفراد الكورس.

- ماذا عن الفتيات في المسرحية؟ هل يوجد بينهن من تَظُنُّها لطيفة؟

(1) نوع من الأصوات الغنائية الرجالية، والذي يُعتَبَر أعلى الأصوات الرجولية في الطبقة المتوسطة بين الكورس الغنائي.

t.me/yasmeenbook

ظَلَّت إيما تأمل أنه من بين الفتيات في العرض من ستحظى بإعجاب ابنها. تساءلت فترة طويلة عما إذا كان عليها إرسال جوليان إلى مدرسة مختلطة. وافقت فقط على مدرسته الحالية بعد شهور الإلحاح من طرف جين.

يقول بتلك الطريقة المراوغة التي يفعلها الأولاد أحيانًا: «لا أعتقد. ولكن هناك فتاة واحدة في المسرحية نعرفها بالفعل».

- حقًّا؟

- هل تتذكرين تلك العائلة التي قضينا معها العطلة قبل بضع سنوات في آمهالانجا روكس؟

- مَنْ؟

- كانت لديهم ابنة تُسَمى كلاريسا.

ينظر إليها بنوع من المرارة، التي يتغير وجهها في أثرها لسبب ما. تضيف نصف ملعقة صغيرة من مسحوق حبوب الفانيليا، التي تعلمت بالفعل إزالتها من الأسطوانة البلاستيكية باستخدام خلَّة أسنان رفيعة. تخلط المسحوق مع 200 جرام من الدقيق، مما ينتج عنه مادة شبيهة بالطين، تنتج عنها رائحة مُبَشِّرة للغاية. تعرف إيما بالضبط ما يتحدث عنه جوليان؛ هاملتون براون. لا يزال سماتي يتحدث عن صديقه جون الذي مات في حادثة مع ابنته كلاريسا. كانت واحدة من تلك الأحداث المروعة التي غَيَّرَت الكون تقريبًا أسابيع عِدَّة أتت بعدها. كانت قاسية للغاية الطريقة التي استمرت بها الحياة، سرعان ما تبعت المأساة الصغيرة مأساة أخرى، ثم مأساة أخرى، تاركة شبح الفتاة ووالدها واقفين على جانب الطريق، حيث لن يفكر أحد في التوقف من أجلهما.

قالت وهي تحاول جعل صوتها ثابتًا قدر الإمكان: «بالطبع أتذكرهم. اعتدتما التسلل أنت وكلاريسا إلى الغابة لتبادل القبلات معتقدين أن أحدًا لا يعرف شيئًا عن الأمر».

كان دوره ليتغير لون وجهه، ولكنه لم يُشِح بنظره عنها.

قال محاولًا التحكُّم بنبرة صوته: «نعم، فعلنا. حتى إن أختها كانت تقف بعيدًا لتذكرنا بالوقت».

t.me/yasmeenbook

تبتسم إيما بانزعاج مُقَرِّبَةً الوعاء إلى جوليان عَلَّ رائحة المزيج تتسرَّبُ إلى أنفه. على الرغم من أنه لا يسعه إلا أن ينظر إليه بمزيد من الاهتمام، فإنه يجد نفسه عاجزًا عن غمس إصبعه فيه ليتذوقه كما كان يفعل حينما كان صغيرًا.

تسأل إيما بينما تمسح قالب الكيك بالزبدة وقد أسقطت أحد مكعبات الزبدة على الأرض مانحًا احتمالية أن ينزلق أحدهما في أثره وتنكسر رقبته: «إذن نتحدث عن أختها الصغيرة؟ هي زميلتك في المسرحية؟»

- اسمها إليزابيث. تلعب دور توبتم، الخادمة التي من المفترض أن أقَبِّلَها.

- يا إلهي!

- صحيح.

- وهل تتذكرك؟

- لا أعتقد ذلك.

- و... هل قالت أي شيء عن تلك العطلة؟

- ولماذا تفعل؟ كان ذلك منذ سنوات طويلة مضت.

يبدو الأمر أقرب إلى ذاكرة إيما، ولكن في عمر جوليان فإن بضع سنوات هي وقت بعيد جدًّا، كان صبيًّا مختلفًا تمامًا في ذلك الوقت. ربما كانت ليزي في عمر التاسعة أو العاشرة في ذلك الوقت. لم تقل قط أي شيء لجوليان عما حدث في نهاية تلك العطلة. من الواضح أنه كان مغرمًا بكلاريسا، وبدا حزينًا على فراقها أسابيع تلت نهاية العطلة، على الرغم من أن كل ما يعلمه عنها هو مغادرتها الفندق، وليس الموت في حادث سيارة. تتذكر إيما رغبتها في إخباره، ولكن جينيفر... أم إنه أندرو؟ قد أصَرَّا على تجاهل الأمر. اتفقوا –مخطئين في الغالب– على أن ما لا يعرفه جوليان لن يؤذيه. تُصدِرُ الغلاية صفيرًا على موقد الغاز، ترفعها إيما وتبدأ في إضافة 250 ملليلترًا من الماء المغلي إلى المزيج.

قالت وقد دفعت الوعاء في اتجاهه: «هل يمكنك مساعدتي في تقليب الماء داخل الخليط؟ فقط حَرِّكه ببطء».

t.me/yasmeenbook

يأخذ جوليان الوعاء ويبدأ في تقليب الماء حسب إرشاداتها. سرعان ما يبدو المزيج رطبًا، مثل خليط الفطائر، رطبًا أكثر مما يناسب مزيج الكيك، ولكن الوصفة غريبة جدًّا في العموم.

هكذا عاد هاملتون براون إلى حياتهما، وسرعان ما ستشاهد قاعة ملآنة بالناس جوليان وإليزابيث هاملتون براون وهما يتظاهران بتبادل قبلة. حتى لو لم تكن ليزي تتذكرهما، فإن إيما تعلم أن الأم ستفعل بالتأكيد، وأن القصة حول ما حدث في نهاية تلك العطلة ستصل أخيرًا إلى جوليان. فَكَّرَت أنها تستطيع التظاهر حينها بأنها لم تعرف بأمر الحادث، ولكن جوليان لن يصدقها، لديه أنف حساس جدًّا للكذب، خاصة عندما يأتي من طرفها.

تقول مُحَاوِلةً أن تُبقي صوتها عاديًّا قدر الإمكان: «حبيبي، هناك شيء لا أعتقد أنني أخبرتك به من قبل». بينما تعدل درجة حرارة الفرن من 180 إلى 175 درجة؛ نظرًا إلى أن فرنها دائمًا ما يكون أكثر سخونة مما يفترض أن يكون.

تُكمِلُ إيما: «حسنًا... كان هناك حادث سيارة في طريق العودة من تلك العطلة. تُوفيت كلاريسا، وكذلك والدها. أعتقد أن اسمه كان جون».

- أوه!

- لا أعرف ما إذا كُنتَ تتذكر، عُدنا بالطائرة بعد انتهاء العطلة. ولكن هاملتون براون قاد سيارته الجديدة، عائدًا وعائلته إلى جوهانسبرج في سيارتهم الجديدة، مرسيدس بنز فضية. في الواقع أعتقد أنك قد ركبت معهم ذات مرة لمشاهدة أسماك القرش.

- لم أذهب إلى تلك الرحلة.

- حسنًا، حدث الأمر على التل فوق بيترماريتسبورج. هذا الجزء من الطريق غالبًا ما يكون ضبابيًّا جدًّا، والتل نفسه شديد الانحدار، لطالما شهد أكثر الأحداث فظاعة.

أضاف جوليان بالفعل كل الماء إلى الوعاء، ولكنه كان لا يزال يحمل الغلاية الفارغة مُحَدِّقًا إليها.

t.me/yasmeenbook

تُكمِلُ إيما: «على ما يبدو كانت شاحنة الأخشاب تهبط من التل بسرعة كبيرة وتعطلت مكابحها، فاصطدمت بسيارتهم. كانت كلاريسا ووالدها جالسين في المقدمة، بينما الأم والطفلان الآخران نائمون في الخلف. وعلى الرغم من أنهم كانوا في سيارة من المفترض أن تكون أكثر السيارات أمانًا على الطريق، فقد قُتِلَت كلاريسا ووالدها. مات كلاهما على الفور. مأساة مروعة. أعتقد أنني حينها لم أعرف كيف أخبرك».

تأخذ الغلاية من يده وتسكب المزيج السميك في قالب الكعكة. بينما يجلس هناك، وضعت إيما القصدير على صينية معدنية تَحَسُّبًا لتسرب الخليط. ضَبَطَتْ المؤقت ووضعت الكعكة في الفرن.

قال جوليان بصوت مرتعش: «كان عليكِ أن تخبريني».

قالت شاردة بينما تصبُّ التوت في وعاء خزفي: «أنا آسفة يا حبيبي. أعرف كم كُنتَ مغرمًا بها، وكان خطأً مني ألا أخبرك. ولكني أعتقد أنني أردتُ حمايتك». فهي تعلم تمام العلم بأنها لا يمكنها حمايته. نحيا عبر العالم، بينما توجه إلينا الحياة وابلًا من السهام لا يمكننا تفاديه. ربما أساءت إلى جوليان بما فعلته أكثر مما نفعته حين حاولت حمايته. لطالما أساءت إدارة هذه المعجزة، هذه الهدية؛ ابنها القَلِق دائمًا.

- ربما عليك ألا تذكر الأمر أمام ليزي، ربما يفسد الأمر عليكما المسرحية. أعني، إذا لم تتعرف عليك فعلًا، فربما يكون من الأفضل ترك الأمر عند هذا الحد. وإذا كانت قد تعرفت عليك، فمن المحتمل أنها لا تريد التحدث عن ذلك. لن ترغب في العودة إلى تلك الذكرى. هل تفهم؟

عندما واجه صمت جوليان سؤالها، أضافت: «هل تبدو سعيدة؟ هل تبدو ليزي فتاة سعيدة؟»

يندفع جوليان بعيدًا عنها: «أنا آسف يا أمي، ولكن عليَّ أن أذهب».

- الآن؟

- لدي قصة باللغة الإنجليزية عليَّ أن أسلمها غدًا ولم أبدأ كتابتها بعد.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل الثامن

الأخت غير الشقيقة

جينيفر - آمهالانجا روكس

- أبي!

تجمد الرجل في مكانه. في الخلفية كان صوت البحر، ومروحة السقف التي تهتزُّ بشدة، بينما ينبض قلبه تحتها كشريانٍ أوشك على الانفجار. كانت الكلمة التي سمع هي كل ما يعنيه له اسمه، جون. هذا الرجل العاشق لرائحة الليمون والمسك، والحلوى البيضاء التي ما يزال يحبُّها منذ الطفولة، قد انزوى بعيدًا أمام الكلمة، وعاد شخصًا يحتاج أحدهم إليه، الأمر الذي جعله متعجلًا مرتبكًا سخيفًا بعض الشيء. ربما كان ينتظر مرور اللحظة. ربما كان في البداية خائفًا من الاستسلام لإحساسه الجديد الذي يبدو مثل موجة زجاجية مجيدة تجري تحت الغرفة، التي من شأنها أن ترفعهما وتلقي بهما على شاطئ غريب منكوب. ناهيك بالكارثة الأخرى التي تفوقت بالفعل على الأولى: دخول طفلته إلى غرفة يعلم أنها كانت مغلقة بالفعل.

- كلير؟

عندما استطاع أخيرًا الخروج من السرير، قذرًا كطفلٍ وُلِدَ لتوِّه، كانت الفتاة قد اختفت منذ فترة. كان الباب المغلق بإحكام فيما مضى مفتوحًا الآن على مصراعيه، مما يعني أنهما لم يتخيَّلا دخول الفتاة إلى الغرفة.

t.me/yasmeenbook

- اللعنة، آسف، عليَّ أن أذهب لأبحث عنها وأشرح لها الأمر.

- تشرح؟ ماذا ستشرح لها؟ تظن أنها لم تفهم ما قد رأته بالفعل بعينيها؟

- ومع هذا عليَّ أن أفعل.

خرج من السرير، لافًّا الغطاء حول جسده كأنما يخفي عاره.

تُفَكِّر جينيفر أن ما يفعله متأخرٌ جدًّا. لا تقول هذا، وإنما تسأله: «هل رأتني؟»

- ليست لدي فكرة.

- وجوليان؟ هل كان معها؟

- ليست لدي فكرة. (يمرر يده عبر شعره الأشقر السميك) كيف دَخَلَت الغرفة بحق الجحيم؟ قُلتِ إنكِ أغلقتِه.

- فعلت. كم مرة عليَّ أن أؤكد لك هذا؟

- لا بد إذن أنها كانت تحمل مفتاحًا.

مما يعني أن جوليان كان معها، وأنه رآها أيضًا. لا بد أن ذلك سيُنئيه عنها، بتعريف جديد عنها في عقله، أمه هي بطلة العرض، أما خالته فعاهرة.

تسأل جينفر كمزحة ربما: «هَلَّا أنهينا ما بدأناه على الأقل؟»

- ماذا؟ هل فَقَدتِ عقلكِ؟ كيف تفكرين؟

هكذا هم الرجال المتزوجون على كل حال، ينقلبون عليكِ في اللحظة التي يشتبهون فيها بأن أمرهم على وشك أن يُكتَشَف، كما لو أن كل ذنبهم قد انتقل إليكِ الآن.

- لا داعي للصياح.

تستدير لإشعال سيجارة، بلا اهتمام بالنظر إليه بينما يُدخِلُ ساقيه في سروال السباحة ويرتدي قميصه، الذي انطبعت عليه لوحة لمشهد عطلة مثالي. مشهد يصوِّرُ مكانًا قريبًا ربما لموقع عطلتهم الفعلي، بصخوره السوداء ومنارته الشاهقة، وموج البحر الثائر بلا هوادة.

تقول: «عاصفة باردة على وشك الهبوب». بغير أن توجهها إلى شخص ما على وجه التحديد، ثم تتابع: «هناك توقعات الليلة بهطول الأمطار». تأخذ

t.me/yasmeenbook

وقتها حتى تغادر الغرفة. ترتب السرير بأفضل ما تستطيع، وتقف تحت دش فاتر، حيث تجد إحدى خصلات شعر إيما ملتصقة بقالب الصابون. يميل الأطفال –وخاصة الأطفال المنظمون مثل جوليان– إلى الاشمئزاز من هذا النوع من الأشياء؛ لذلك تزيله من أجله. إجمالًا، كانت نصف ساعة غير عادية.

كانت العلاقة الحميمية عنيفة وبلا أي مشاعر، وهو ما تفضله هذه الأيام. لا تحب جينيفر أن ينحني الرجل ويطلب موافقتها في كل مرة يبدأ فيها شيئًا. في حالاتٍ كتلك، تُفَكِّرُ أن العلاقة أشبه بعلاقتها مع زوجها. ظَلَّ جون هاملتون براون صامتًا منذ أن التقيا في الغرفة. صدرت الكلمة الأولى في الغرفة من حنجرة ابنته؛ الأمر الذي جعل الاستمرار فيما يفعلان مستحيلًا. سألته فقط عما إذا كان يريد «إنهاء» ما بدأ لأنها بحلول ذلك الوقت كان كل ما تشعر به نحوه هو الازدراء، نحو ذلك الرجل الذي جاء إلى هنا على أمل العثور على إيما وقرر أن يقيم علاقة أخيرًا مع الأخت غير الشقيقة بدلًا عنها. وجدت إيما مستلقية بجانب مسبح الفندق تحت إحدى تلك المظلات المخططة، ترتدي الفستان الذي قدمته لها جينيفر في عيد الميلاد الأخير، والمزين بزهور الكركديه القرمزية الزاهية. على عينيها نظارة شمسية، وفوق رأسها قبعة، وكلتاهما غير مناسبة لوجهها أو رأسها بحال، ترتديهما كما لو كانتا قناعًا تختفي خلفه.

ربما لم يعرفها أحد حقًّا في الفندق، بينما تتصرف هي مثل شخص مشهور، لم يكن الجميع سيتساءلون عن جينيفر في كل الأحوال، مهما كان حجم نظارتها الشمسية أو قبعتها.

- هل طَردتِهِ؟

- عفوًا؟

- جون.

تجلس جينيفر على كرسي التشمس المجاور، الهارب من ظل المظلة، والذي تحرق سخونته فخذيها حين تجلس. تميل إلى الكذب، ولكن الحقيقة مثيرة للغاية، على الأقل النصف الأول منها. رؤية الطفلين لها هو شيء تفضل إخفاءه، على الأقل حتى تتمكن من تعقب جوليان وتقييم نظرته إلى الأمر.

- أخشى أن ما حدث كان مخالفًا لما تظنينه قد حدث.

t.me/yasmeenbook

تخفض إيما نظارتها الشمسية لإلقاء نظرة أفضل على أختها. مع أحمر شفاهها وبشرتها الشاحبة –ونفحة من رائحة تشبه خشب الصندل– تبدو إيما كأنها جزء من هذا الفندق الفاخر. من خلفها تقف المنارة بلونيها الأحمر والأبيض تحدق إليهما إلى الأبد.

- هل فعلتِ؟

- آسفة، هل يزعجكِ الأمر؟

تفكر إيما قليلًا، ثم تقول حاسمة في النهاية: «بالطبع لا». على الرغم من ذلك، تستطيع جينيفر أن ترى تيارًا يسري داخل عينَي إيما يُكَذِّبُ إجابتها. تفكر إيما في تاريخ جينيفر الكامل من تَعَدِّي الحدود المفروضة عليها، ومحاولتها الدائمة أخذ ما ليس لها، والرغبة دائمًا بعدها في التباهي به. ولكن إن كانت هذه هي الحال، فلماذا أرسلتها إيما إلى الغرفة لمقابلة جون إن كانت تعرف جينيفر جيدًا وتعرف جون نفسه؟ وكالعادة، رغبت جينيفر في أن تفعل الشيء ذاته الذي لم تكن لدى إيما الشجاعة لفعله.

- أنا فقط أشعر بالأسف من أجل أندرو.

- أندرو؟

فشلت جينيفر في إخفاء المفاجأة في صوتها.

- زوجك، أتتذكرينه؟

ترغب جينيفر فجأة في الضحك. الحقيقة هي أنها لم تفكر فيه مرة واحدة، لا في أثناء العلاقة ولا بعدها.

- مهما حدث يا جين، لا يجب أن يعرف. هل تعدينني بذلك؟

- لماذا؟

- سيؤذيه الأمر كثيرًا.

- أتعتقدين؟ في الواقع أظن أنه سيشعر بالارتياح.

- كيف يمكنك قول ذلك؟

- سيكون حُرًّا، أليس كذلك؟ سيتمكن أخيرًا من تحقيق أمنيته الأثيرة.

- وما هي تلك الأمنية؟

t.me/yasmeenbook

ولكن جينيفر لا تميل إلى الإجابة عن هذا السؤال. بدلًا عن ذلك، تغلق عينيها وتتمدد على الكرسي تاركة ذكرى جون هاملتون براون تشعل فيها النار من جديد. ستتصل به بمجرد عودتهما إلى جوهانسبرج؛ تود رؤيته مرة أخرى. وهذه المرة لن ترتكب خطأ إخبار إيما بأي شيء. فقط عندما يغادر هاملتون براون في سيارته في صباح اليوم التالي تستدعي جينيفر شجاعتها للاقتراب من جوليان. وجدته جالسًا على حافة المسبح وقدماه تتخبطان في الماء مثل سمكتين يراقبهما وكأنهما لا تخصانه. يبدو شعره ألطف في العادة، ورقبته أخف من أن تحمل رأسه الثقيل الذي يميل بشدة نحو الماء.

- جوليان!

في الطرف البعيد من المسبح توجد نسخة أصغر عمرًا وأسمن قليلًا من جوليان، يرتدي ما يبدو أنه نظارات جوليان. يقف الصبي الصغير هناك كما لو كان ينتظر جوليان ليرفع رأسه ويشاهد غطسته التالية، ولكن جوليان ضائع بين أفكاره، تائه تمامًا.

- طفلي الوقواق، هل كل شيء بخير؟

يرفع عينيه إليها كما لو أن كل ما يتوقعه منها هو امتداد لخيبة أمله. يمكنها أن ترى على الفور أنه لا يعلم شيئًا عن ذاك الذي خشيت أنه قد عرفه؛ بدا وكأنه يعتقد أن جينيفر كانت بعيدة حينها عن الغرفة وكل ما يخص هذا الرجل على الإطلاق. يبدو أنه ليس لديه شك في أن جينيفر لم تكن هناك فحسب، بل أنه واثق من أن شيئًا لا يربطها بتلك المأساة بأي قدر. هل هذا يعني أنه يلوم إيما؟ وهل هذا ما أوصله إلى هذه الحالة المشوشة؟

- هل تفتقد صديقتك؟

- أي صديقة؟

- كلاريسا.

يهزُّ كتفيه كما لو أنه لم يهتم بالفتاة يومًا على أي حال، ولكنها تستطيع أن ترى أنه كان يبكي، حتى لو توقفت الدموع منذ فترة طويلة.

- هيا بنا يا طفلي الوقواق، ما رأيك في نزهة على الشاطئ؟

t.me/yasmeenbook

تهبُّ الريح بالفعل كما أخبرت جينيفر قبل قليل. تنزع المظلات الحمراء والبيضاء حول المسبح حبالها وتهدد بالسقوط على الأرض. ما وراء المنارة، يمكن لجينيفر رؤية العاصفة قادمة، مثل فكرة قاتمة عبر البحر. قررت أن تأخذ الصبي في نزهة في مواجهة العاصفة. بينما ينزلان عبر الدرج الخشبي في اتجاه المنارة، تنزلق يده الصغيرة الباردة في يدها، وتستقر السحابة الأولى لتخفي الشمس خلفها.

t.me/yasmeenbook

الفصل التاسع

مباراة تنس

أندرو - آمهالانجا روكس

في اليوم الثالث من العطلة، يوافق أندرو على الذهاب للعب التنس. يستعيران المضارب والكرات من الاستقبال، حيث يقف هو والصبي مُحاطَين بقوس ضخم من الأسماك الاستوائية المُحَنَّطَة. بعدها يقود الصبي على طول مسار الحديقة الخضراء باتجاه الملعب. لا يزال أندرو في حالة من التشتت في أثر تناول الشمبانيا على الغداء، الأمر الذي جعله مَرِحًا قليلًا ومتهورًا، مُتَطَلِّعًا إلى فرصة لتجديد نشاطه. لا يكلف نفسه عناء التحدُّث إلى الصبي. يعلم أنهما هنا فقط لإرضاء المرأة التي يحبانها. منذ طلاقها، كانت إيما حريصة على العثور على أي ذَكَرٍ آخر ليحلَّ محلَّ زوجها –على الأقل الدور الذي كان على زوجها أن يتولاه–، وكان أندرو سعيدًا بتولي هذا الدور. ومع ذلك، فهو يعلم أن هناك فرصة ضئيلة حاليًّا لأي تواصل حقيقي بينه وبين جوليان. على جوليان أن يرغب في تحرير نفسه من أمه بطريقة ما، لم يكن مستعدًّا للقيام بها بعد. ويعرف أندرو جيدًا أن عليه ألا يتدخل في هذا الأمر بأي شكل؛ لأن ذلك من شأنه أن يجعل الصبي يتوجس منه، كمصدر يهدد مكانته لدى أمه. لهذا، اختار أن يكون حاضرًا وغائبًا في آنٍ واحد، مثل تلك المخلوقات البحرية في فُسَيفِساء الفندق، التي تخفي نفسها أمام مرأى ومسمع الحاضرين، متخفية في صورة قطعة من المرجان. عندما

t.me/yasmeenbook

أعلنت إيما وجوناثان خطبتهما، كان أندرو وجينيفر متزوجين بالفعل منذ عشر سنوات، لم تُقدِم إيما على الأمر إلا لأنها كانت حامِلًا. شجعتها جينيفر على الفور على إجهاض الطفل. حقيقة أن إيما كانت حاملًا لم يكن سببًا كافيًا للشروع في زواج لم تتحمس له بالقدر الكافي. ولكن إيما أرادت طفلًا، ولم تكن لديها الرغبة في أن تصبح أمًّا عَزَبَة. كما إنها شعرت أنها تحب جوناثان بما يكفي لتتزوجه، على الرغم من تحفظاتها. كان سهل المراس وطموحًا، وكانت إيما تعلم أنه سيتركها تمارس شؤونها كما تريد. آخر شيء أرادته هو شخص يستاء من ارتباطها بطفلها وفنها. احتاجت إلى رجل يأتي في المرتبة الثالثة مكتفيًا بنفسه، بحيث لا يزعجه ألا يلاحظه أحد. كان الحمل في مرحلة متقدمة بالفعل عندما تزوجا. أُقيم الحفل في كنيسة صغيرة بيضاء في بلدة على حافة المدينة. تماوجت رياح خفيفة عبر بستان الزيتون خارجها، وكان كل الحاضرين الجالسين في ضوء الشموع المرتعش لتلك الغرفة هم أندرو وجينيفر والكاهن، وجوليان داخل رحمها، مُلتَفًّا مثل سرخس في مكان ما تحت فستان إيما الأزرق بلون السماء. كانت لدى أندرو نظرية مفادها أن الجنازات تبرز أفضل ما في الناس، بينما تبرز حفلات الزفاف أسوأهم؛ تسلط حفلات الزفاف على حسدهم، وأسفهم الشديد. لم يكن هذا العرس استثناءً من قاعدته، في أثناء رحلة عودتهما إلى جوهانسبرج، أَقَرَّ هو وجينيفر أن هذا الزواج لن يستمر حتى نهاية العام. كان جوناثان رجلًا مبهرجًا فارغًا، مثل تلك الطرود التي تُمَرَّرُ إلى المدعوين لفَضِّ غلافها في حفلات أعياد الميلاد، في حين لا تحوي سوى بضع ورقات مالية بداخلها. بحلول ذلك الوقت، كان جوناثان قد اشترى بالفعل منزلًا لعائلته الجديدة، الذي يشبه منزل والد إيما في جراهامستاون. ملأه بالأثاث الجامد نفسه، وأوصى بصناعة استوديو من الزجاج والخرسانة لإيما في أعلى نقطة في الحديقة في آخر الدَّرَج. على عكس ما هو متوقع، أثبت جوناثان أنه أبٌ واعٍ. أرسل جوليان إلى أفضل المدارس، وعَلَّمَه بصبر كيف يركب دراجة، ويلتقط كرة الكريكيت، وكان يصحبهما مَرَّةً كل عام إلى عطلات فاخرة؛ رحلات كان يبدو أنها قد رُتِّبَ لها فقط من الكون لتشعر جينيفر –التي لم تكن تذهب حينها إلى أي مكان خارج البلاد– بالغيرة. ولكن مهما كان جوناثان يمارس دوره ظاهريًّا زوجًا مثاليًّا، فقد رأى أندرو أنه لم يكن شريكًا حقيقيًّا لإيما على الإطلاق. لا يمكن

t.me/yasmeenbook

لأي رجل أن ينافس والد إيما المتوفى، ويبدو أن فقدانه جعل إيما مستقلة عن الرجال إلى الأبد. الرجال الوحيدون الذين تخيَّلَ أنها قد لاحقتهم بأي اهتمام حقيقي هم تلك الشخصيات الغريبة التي تَعَرَّفَت إليها عبر دنيا فَنِّها؛ رجال أنصاف ملائكة وأنصاف وحوش، ليس بينهم بشريٌّ صحيح. لم يكونوا قط أفرادًا يعيشون في العالم الواقعي مثل جوناثان –الذي كان لمجال عمله علاقة بالاستثمارات–، وسرعان ما جنى قدرًا كبيرًا من المال من خلال إعادة استثمار أمواله، هذا بالطبع قبل مغادرته إلى دبي مع حبيبته الأصغر. على الرغم من أن أندرو لم يعترف بهذا قط لأي شخص، فقد قدم بهدوء على مر السنين كل إيماءة ممكنة لمضاعفة شعور جوناثان المتزايد بأنه مظلوم في علاقته بإيما. لم يرتكب أندرو قط خطأ انتقاد إيما علنًا، كما إنه لم يرتكب خطأ التوقف عن مدحها قط. ولكن عندما أبلغ جوناثان أندرو أخيرًا أنه كان يخطط لترك زوجته غير المهتمة إلى الأبد، لم يكن ذلك مُفاجِئًا؛ لقد كانا يتباحثان حول هذا الأمر بالفعل سنوات مضت.

عندما يصل هو وجوليان إلى ملعب التنس، يجدان فتاة نحيلة تضرب الكرة بالحائط، كما لو كانت الكرة فكرة غير مريحة تستمر في العودة إليها. تبدو الفتاة شخصية من فيلم فرنسي من خمسينيات القرن الماضي، بالبيكيني المخطط وذيل الحصان الذهبي؛ مظهر يحمل تأثير أمها في الغالب. رأى أندرو هذه الفتاة من قبل؛ كانت تجلس في مكتب الاستقبال مثل طائر محبوس في قفص من الخيزران عندما كانت عائلتها تسجل الوصول. عرف أندرو على الفور أن العائلة من جوهانسبرج. بدت العائلة كصورة جميلة جامدة بلا عيوب، وتصرفوا كأنهم معتادون بالفعل المكان. ذَكَّرَت الأم أندرو بواحدة من حالاته المستعصية؛ امرأة أمضت كامل عمرها تعيش حياة مخالفة تمامًا لشخصيتها، ذلك أنها لم تعرف يومًا من تكون حقًّا. أما الأب، فلم يكن ينظر في الغرفة إلا إلى النساء، وحين التقت عيناه عيني أندرو، نظر إليه وكأنه درفة باب. عندما دخل أندرو إلى الملعب، رفعت الفتاة عينيها إليه بحدة ولمحة من خوف.

- أعتقد أننا حجزنا الملعب الساعة القادمة.

t.me/yasmeenbook

عندما قال «حجزنا»، نظرت الفتاة إلى جوليان، وبدا أن نظرتها تحمل نوعًا من الاهتمام، على الرغم من حقيقة أن الصبي أصغر عُمرًا منها بشكل ملحوظ. تبدو الفتاة وكأنها نسخة مُصَغَّرة من أمها. أمل أندرو ألا تنتهي بها الحال مشتتة كما أمها، رغم حقيقة أن ألطف الأبناء قد يأتون من نسل آباء سيئين، أو رغمًا عن كل الجهود التي يبذلون لإفسادهم.

قال أندرو آمِلًا في إقناعها: «يمكنكِ الانضمام إلينا إذا رَغِبتِ».

لربما ينشغل الطفلان معًا، مما سيتيح له الفرصة في التسلل والبحث عن إيما. يعلم أندرو أن جينيفر تقضي فترة ما بعد الظهيرة في قيلولة تساعدها عليها زجاجتا نبيذ ما بعد وجبة الغداء، ما يعني أنه سيتمكن من التحدث إلى إيما منفردًا بها.

تقول الفتاة التي تبدو راغبة في الرحيل بلا صبر: «شكرًا، ولكن عليَّ أن أعود».

تستغرق المباراة قرابة الساعة. يتحرك جوليان حول الملعب أسرع مما توقع أندرو، وتمكن بالفعل من تسجيل بعض التسديدات الأرضية الممتازة. يسعد أندرو باكتشاف ميزة تنافسية في الصبي، ولكنه يلاحظ بين الحين والآخر أن جوليان يلقي نظرة خاطفة اتجاه الفندق. تبادل هو والفتاة بعض الكلمات عندما كانا يجمعان الكرات مُعتَقِدَين أن أندرو لم يكن يسمع، وتخيل أندرو فترة وجيزة أن جوليان كان يحاول التَخَلُّص منه.

يسأله أخيرًا: «هل بدأت تشعر بالتعب؟»

يهز جوليان كتفيه وكأن هذا لم يخطر بباله.

يُكمِلُ أندرو: «ربما يمكننا التدرُّب على ضربات الإرسال؟»

يقف أندرو على بعد خطوات قليلة خلف خط الأساس وكأنه لا يتوقع تسديدة جيدة أو قوية من الصبي، ولكن جوليان لا يزال يفاجئه بسرعة ودقة إرساله. وصلت كرة أندرو إلى الشبكة وهبطت بعيدًا عن خط الأساس. في المرة التالية التي نظر فيها جوليان اتجاه الفندق، لاحظ الاثنان أن الفتاة عادت ووقفت تراقبهما خلف ظل شجرة، بقصَّة شعر مختلفة وفستان بلون التفاح الأخضر مُزَيَّن بالزهور. يستغرق الأمر دقيقة حتى يدرك أندرو أن تلك

t.me/yasmeenbook

كانت أخت الفتاة الأولى الصغرى، وأنها كانت نسخة من أختها الأكبر، التي هي بالضرورة نسخة عن أمها، كما لو كانت الفتاة التي تراقبهما الآن هي الأخيرة في سلسلة من الدُّمَى الروسية. على كل حال، لم تكن هي من كان جوليان يبحث عنها بعينيه الناظرتين اتجاه الفندق.

بعد دقائق تبدأ طاقة جوليان التنافسية في الظهور بوضوح، وبحلول الوقت الذي قررا فيه أنهما لعبا بما يكفي، كانت الفتاة المراقبة قد اختفت.

وجد إيما خارج غرفتها بالفندق، ترسم شجرة ضخمة، جذوعها مجموعة متشابكة من الثعابين الرمادية المُحَمَّلة بالثمار. كانت إيما منغمسة تمامًا في مهمة رسم الشجرة، حتى إنها لم تلاحظ وصول أندرو إلا عندما تقاطع ظله مع دفتر رسوماتها.

- إيما!

- أوه، مرحبًا.

لا شك أنها كانت تأمل رؤية جوليان واقفًا إلى جواره وقد تواصلا بالفعل أخيرًا، سعيدين بالمباراة.

- أين جوليان؟

- ذهب للسباحة.

- وماذا عن التنس؟

- كانت مباراة جيدة. جعلني أركض كثيرًا.

تضحك إيما في أثر جملته الأخيرة، راضية عن الصورة التي تخيَّلَت عليها الوضع بينهما.

تضع رسمها جانبًا، كما لو أن صورة الشجرة لم تعد قادرة على منافسة ما يحدث الآن.

- لم أرَ جينيفر منذ فترة.

يقول أندرو محاولًا ألا تظهر إجابته ساخرة جدًّا: «هذا ميعاد قيلولة ما بعد الظهر على الأرجح».

t.me/yasmeenbook

تنظر إليه إيما طويلًا. يشيع الخجل بينهما بغرابة في كل مرة يضطران إلى الحديث منفردين. حينها يعلو صوت الطنين الهادئ الناتج عن ترابطهما الخفي، صوت لا يصدر عادة عندما يكون الآخرون في الجوار. على الرغم من أن أيًّا منهما لم يقل كلمة واحدة عن عادات جينيفر في استهلاك النبيذ، فإن أندرو يشعر أنهما يفكران في الشيء نفسه؛ تشرب جينيفر لأنها غير راضية وغير سعيدة، ولكنها دائمًا غير راضية وغير سعيدة، لهذا تَخَلَّي كلاهما عن محاولات تغيير الأمر على أي حال. ذلك لأن كل محاولاتهما للتَدَخُّل فيما مضى لم تُقَابَل من طرف جينيفر إلا بالنقد والتذمُّر.

- هل لعبتما مباراة طويلة فعليًّا؟

- لا. تبادلنا المنافسة في بعض الضربات، وتدَرَّبَ جوليان قليلًا على إرساله. لديه ضربة خلفية جيدة. يمكنه تَعَقُّب الكرة ببراعة. إنها ضربته الأمامية التي استمرت في خذلانه.

- إنه لأمرٌ مُخزٍ أنه لم يأخذ التنس على محمل الجد.

تقول إيما هذا من أجله أكثر من أي شخص آخر، لأن إيما نفسها لم تكن قط مهتمة بالألعاب من أي نوع؛ ألعاب الكرة، أو ألعاب الطاولة، أو ألعاب العقل. إنها واحدة من الأشياء التي لطالما أحبها أندرو بشأنها.

- على أي حال، كنتُ ذاهبًا اتجاه المسبح، لا أريد أن أعطلك. أرى أنكِ اخترتِ شجرة صعبة لرسمها.

نَظَرَا إلى الشجرة، ثم إلى صفحة دفتر إيما، حيث تبدو محاولة إيما لتحويل الشجرة إلى صورة محكومًا عليها بالفشل؛ رؤية غير مدروسة، ومبعثرة الخطوط. مرة أخرى لا يمكن للرسم أن ينافس فكرة مقابلة جوليان في المسبح، وربما تناول مشروب بمفردها مع أندرو. إغواء إيما في العطلة أسهل كثيرًا من محاولة إغواء إيما في الوطن.

قالت وهي تضع فوطتها وأقلامها الرصاصية في حقيبة البحر: «لا بأس إذن. أعتقد أنني أحتاج إلى مشروب ما. يمكنني الاستمتاع بكوب من كوكتيل الموز اللذيذ. نحن في عطلة على أي حال».

t.me/yasmeenbook

يجدان طاولة في مكانهما المعتاد في أقصى نهاية الشرفة الأرضية، حيث تنتشر مراوح السقف المصنوعة من القصب، مما يمنح المشهد جوًّا من البذخ والرفاهية. تجلس القرود كالمعتاد على العوارض الخشبية بحثًا عن فرصة للتأرجح إلى الطاولات نصف الفارغة وسرقة الطعام عن الأطباق النحاسية في منطقة تناول الطعام المجاورة. تنتشر اليوم رائحة شيء فاسد في الهواء. في البحر، تحولت المياه إلى لون رمادي مزعج، وزَبَدٌ أبيض يرتفع عاليًا ثم يعود ليختفي تمامًا تحت الماء. المنارة هي الشيء الوحيد الذي يبدو أنه ساكن تمامًا. مُثَبَّتٌ هناك مثل قطعة الشطرنج، آخر قطعة بقيت على الرقعة. يتساءل أندرو لماذا اختارت إيما هذا الفندق بالذات. هل كان ذلك لأنها وجينيفر اعتادتا القدوم إلى هنا عندما كانتا طفلتين والجلوس مع والدهما ووالدة إيما على هذه الطاولة بالضبط؟

هذه هي الطاولة ذاتها التي وقعت عليها حادثة المحار المزعجة، عندما بصقت إحدى الأختين –لقد نسي ذلك– أول محار تذوقته على الإطلاق، ووَبَّخَها والدها لإهدارها. من هذه الزاوية، يمكنك أن ترى حمام السباحة جيدًا، وكذلك المنارة، وشاطئ البحر المضطرب. باستثناء القليل من أشجار النخيل المتشابكة، فإن كل ما تراه من هذه الزاوية هو اختلاط الألوان الأحمر والأبيض والأزرق، مما يمنح المشهد جودة مُصطَنَعة، مُعَدَّلَة عن الواقع لتبدو باهرة. ولكن ربما كان ذلك هو التأثير الدقيق الذي أملت إدارة الفندق في تحقيقه. في المناسبات التي غامر فيها أندرو بالنزول على درجات إلى الشاطئ العام بمناطق السباحة الملآنة بالمصطافين والمتشردين المخمورين وأمواجه المختنقة بالقمامة، شعر وكأنه يدخل إلى بلدة أخرى تمامًا. بمجرد أن يدخلا إلى المسبح، يمكنهما رؤية جوليان يغوص عميقًا في الماء مع الفتاة من ملعب التنس. كانت الفتاة ترتدي نظارات جوليان الجديدة، وقد بدا الاثنان معًا كما الضفدع والأميرة من الحكاية الشعبية.

تقول إيما بجفاف: «يبدو أنه وجد ابنة جون».

- تقصدين أنكِ تعرفين عائلتها؟

- بالكاد. ولكني قابلتُ الأب مرة أو مرتين. جون هاملتون براون، جراح من نوع ما، ربما جَرَّاح قلب. صديقٌ حميمي لتاجر الأعمال الفنية الذي

t.me/yasmeenbook

أتعامل معه جرانت سماتس. كاد جون أن يتمم شراء اثنتين من أكبر المنحوتات من معرضي الأخير.

- ثم تراجع عن الصفقة؟

- أرجَعَ الأمر إلى ذوق زوجته.

- كيف يمكنه التشكيك في ذوقها؟ لقد اختارته هو نفسه على أي حال. أليس كذلك؟

تضحك إيما بتهذيب. ينزعج أندرو من الطريقة التي تتحدث بها إيما عن الرجل، كما لو كانت تحاول أن تظهر أنها لا تهتم به، رغم أن أندرو يرى العكس. ربما ما أهمها حقًّا كان فرصة البيع التي لم تتم، حتى إيما لا تخلو من اهتمام شديد بالمال.

- أعتقد أنني رأيتهم أمس يسجلون وصولهم إلى الفندق. صدفة غريبة –أن تقابليهم هنا– أليس كذلك؟

- عالمٌ صغير كما أظن.

يؤكِّدُ منتهزًا الفرصة لتغيير الموضوع: «هذا صحيح. أصادف الكثير من مرضاي طوال الوقت، حتى إنني أشعر أحيانًا أنهم يتتبعونني».

- لا بد أن الأمر في غاية الإحراج. أقصد أنك تعرف كل تلك المعلومات عنهم، بينما لا يعرفون عنك سوى القليل.

- أميل إلى أن تسير الأمور على هذه الحال بالفعل.

يبدو الطفلان في المسبح تحتهما نشيطين مثل ثعالب الماء. يضحكان، ويرتفعان إلى سطح الماء، ثم يعودان إلى الأعماق غافِلَين عن أنهما مُراقَبَين. يرى أندرو أن الفتاة قد تركت النظارات على حافة البركة مُلقاةً هناك مثل سمكة زرقاء صغيرة، متلألئة وميتة.

- من الرائع أن جوليان قد وجد صديقة.

- حين التقيتُ جون بالصدفة عند مائدة الإفطار اليوم، اقترحتُ أنها ربما تكون فرصة جيدة للأطفال في اللعب معًا يومًا ما، ولكن يبدو أن الطفلين هنا قد التقيا بالفعل دون تَدَخُّل.

- أو ربما تحدث الأب إلى الفتاة.

t.me/yasmeenbook

- ربما. ولكنها تبدو لي فتاة ذات إرادة، تفعل فقط ما تريد، أليس كذلك؟

يصل الكوكتيل أخيرًا، فينظران إلى بعضهما ويقرعان الكأسين جَلبًا للحظ.

- في صحة عطلتنا.
- في صحة عطلتنا.
- أعتقد أننا جميعًا قد بدأنا عطلتنا بداية لطيفة.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل العاشر

جناح شهر العسل بنافذة على البحر

إيما - آمهالانجا روكس

اختارت إيما هذا الفندق تحديدًا لأنه كان المكان الذي قضت فيه إجازتها الأخيرة مع والدها قبل وفاته. قضت هناك أحد أسعد الأسابيع التي يمكن أن تتذكرها على طول حياتها، على الرغم من القصة التي تحكيها جينيفر عن حادثة بصق إيما المحار. مكثوا في هذا الفندق عدة مرات من قبل، واعتاد والد إيما حجز غرفة عائلية في الخلف. ولكن في تلك الإجازة الأخيرة، تمت ترقية حجزهم إلى غرفة مطلة على البحر. اعتادت إيما أن تستيقظ مع ضوء الصباح. تفتح مزاليج النافذة وتقفز إلى الشرفة، حيث يمكنها رؤية المنارة تقف هناك مثل طوطم قديم، ساحة صواعق تربط الأرض بالسماء، مكان يمكن لفتاة صغيرة أن تتواصل فيه مع الآلهة. اعتمدت إيما طقوسًا لصلاة سرية خاصة منذ كانت طفلة. استيقظت في ليلة ما في تلك العطلة لتجد ملاكًا بحجم رجل راشد يجلس على حافة منزلها. كان له كتفان ضخمتان، وأجنحة كبيرة ملآنة بالحراشيف مثل جلد السمكة. بدا أنه يفحص قدمه اليسرى المصابة. راقبته إيما فترة طويلة، في انتظار أن يلتفت وينظر إليها، أو يفعل شيئًا آخر دلالة على كونه يراها، ولكنها في النهاية أغلقت عينيها شاعرة بالنعاس. في الصباح لم يكن الملاك هناك، ولكن إيما كان يمكنها أن ترى أثر جلوسه المطبوع على لحافها. في وقت لاحق، توصلت إلى الاعتقاد بأن الملاك قد

t.me/yasmeenbook

نزل من عالم الأرواح لاستدعاء والدها إلى السماء، أو ربما كان الملاك هو روحه. ربما تغادر الروح عالمنا طائرة إلى العالم الآخر في صورة ملاك قبل أن يموت الجسد، الذي يموت بعدها لأن الروح قد هجرته بالفعل. أُجري على الفندق كثير من التحديثات منذ تلك العطلة، حتى إن إيما بالكاد تعرَّفت عليه عند وصولهم. للنسخة القديمة بوابة متواضعة وممر طويل محاط بأشجار الرودودندرون والأدغال الساحلية، أما الآن، فهناك ينبوع مُحاطٌ بمجسمات الدلافين القافزة، بينما يرتدي أفراد الأمن زيًّا ناصع البياض وخوذات مزخرفة بالألوان، ويرفعون حاجزًا من الأزهار رافعين أيديهم في تحية رسمية مع اقتراب سيارات الزائرين إلى المكان، تحية تليق بسفراء البلاد الأجنبية.

تقول جينيفر حين ينزلون عند الأبواب الزجاجية بالمدخل الرئيسي: «آملُ ألا يكونوا قد دَمَّروا المكان».

تقترح إيما: «لماذا لا تأخذين جوليان في نزهة إلى المنارة بينما نسجل وصولنا؟»

تقول جينيفر متحمسة: «فكرة جيدة. سأطلب لنا بعضًا من الجِنِّ والنبيذ». تحوي غرفة الاستقبال لوحات من الفسيفساء على طول الجدران، وتُصَوِّرُ أعشابًا بحرية متعرجة ومشرقة، وسُحُبًا مبهرجة من الأسماك، وأخطبوطًا رماديًّا يخرج بجسده من بوابات قصر متعرج من سمك السلمون المرجاني الوردي.

ذات يوم، أكَّدَت والدة إيما –التي كانت تعرف كل شيء عن كائن الأخطبوط– أن هذا المخلوق المرسوم على اللوحة لا يمت بصلة إلى الكائن الحقيقي في المحيط، ولا إلى أي كائن آخر في أي مكان. كانت إيما سعيدة للغاية لسماع هذا.

بعد لحظة تفكير، قررت إيما أن تمنح جينيفر وأندرو جناح شهر العسل المطل على البحر الذي حجزته لنفسها ولجوليان، وتأخذ هي الغرفة الأصغر في الحديقة الخلفية. تعلم أن جينيفر ستشعر بالظلم إذا أُعطِيَت هي وأندرو غرفة أرخص، خاصة لأن إيما تدفع مقابل كل شيء. الآن بعد أن تحررت إيما أخيرًا من جوناثان، فإنها تود أسبوعًا واحدًا من الصفاء، مما يعني أن عليها

t.me/yasmeenbook

أن تمنح جينيفر كل ما تريد. ومن يدري؟ ربما يأتي ملاك الروح مرة أخرى لفحص قدمه المصابة على حافة سرير إيما في الساعات الأولى من صباح ما.

لم تذكر إيما الملاك لأي شخص حينها بالطبع. كانت تعلم أن أختها ستضحك وتقول إنها اختلقته، وأن والديها المؤمنين بالعلم سيخبرانها أن الملائكة غير موجودة.

مع هذا، ترى إيما إنْ كان الأخطبوط القديم لا يزال هناك راقدًا في فُسَيفِسَائه، فربما كان الملاك ما يزال هنا أيضًا. ربما يمكنه الحفاظ عليهم محميين وآمنين، كما يُفتَرَضُ بالملائكة أن تفعل. طبقًا لتجارب إيما مع العطلات، إذا تمكنت من قضاء اليوم الأول من العطلة مع جوليان سالمين، فالاحتمالات أفضل أن تكون العطلة آمنة خالية من الحوادث. دائمًا ما يكون اليوم الأول ملآن بالمخاطر غير المألوفة: الدرج الذي لا تراه أقدام جوليان فيتعثَّر، والأبواب والنوافذ التي يمكن أن تضغط على أصابعه، والصخور السوداء الملآنة بالمحار الشائكة حوافُّ أصدافه، التي لم يتعلم بعد كيفية تَجَنُّبِها. في عطلة سابقة في قرية ساوثبروم بجنوب إفريقيا –آخر عطلاتهم مع جوناثان–، وفي غضون ساعة من وصوله إلى الشاطئ، ارتطم جوليان بجدار من الصخور بأثر من موجة عالية من المد. تأذى جسده للغاية من احتكاك الصخور به، لدرجة أنه لم يرغب في الاقتراب من الشاطئ بعدها، ناهيك بالبحر، وحتى انتهاء العطلة. أمضى بقية العطلة في الداخل مختفيًا وراء كتاب، بينما قضت إيما وجينيفر الوقت بجوار حمام السباحة، وانشغل زوجاهما في ملعب الجولف بين المباريات وبحثًا عن الكرات. بزوجين من كؤوس الشمبانيا المجانية، قاد رجلٌ يرتدي الزي الرسمي إيما وجوليان نحو غرفتهما، بينما تساءلت إيما حول كيف يمكن أن يبدو الرجل مع زوجين من الأجنحة وخوذة من اللباد. سيطغى على اللوحة حينها طابع سياسي، كأنها إشارة إلى «الاستعمار». كانت الإشارة إلى الاستعمار موضوعًا للحديث أمرًا ينشغل به الناس كثيرًا هذه الأيام. إذا قررت إيما أن تجعل منه منحوتة من البرونز، فسيتعين عليه أن يضع خوذته من اللباد جانبًا ويصبح رجلًا عاديًّا مرة أخرى.

– هل تعتقدين أن هناك بعض شباك أسماك القرش يا أمي؟

t.me/yasmeenbook

- أتخيل ذلك، نعم.

- ورجال الإنقاذ على الشاطئ؟

- نعم أنا واثقة من كونهم هناك.

- إذا كان هناك رجال إنقاذ بالفعل، حتمًا سأذهب إلى البحر للسباحة.

يسمح لهما الرجل غير المُجَنَّح بالدخول بالمفتاح البلاستيكي، ويضغط زر تشغيل مروحة السقف، التي تهتز بشكل يهدد حياة الواقفين تحتها. تحوي الغرفة سريرًا مزدوجًا كبيرًا من المفترض أن إيما وجوليان سيتشاركانه. يفوح من الغرفة عطر إكليل الجبل، ورائحة ملاءات مغسولة حديثًا، وتنتشر بتلات الورد الملونة فوق السرير وعلى الأرض؛ مشهد يليق بعروسين أكثر منه بأم مطلقة حديثًا وابنها، ولكن يبدو أن جوليان قد أُعجِبَ بالغرفة على الفور، وصار يجري نحو السرير الذي تتحرك البتلات فوقه بفعل المروحة. في ليلتهما الثانية، علمت إيما أن جون هاملتون براون قد تبعهما إلى الفندق. بعد فترة قصيرة من سقوط جوليان في نومٍ عميق أبعد ما يكون عن النوم المضطرب للأطفال في العطلات، تَلَقَّت إيما رسالة من جون تقول إنه ينتظرها في الخارج. تجده واقفا تحت شجرة اللبخ الضخمة، بينما يخون ضوء سيجارته محاولة اختفائه في الظلام.

- آسف، ولكن كان عليَّ أن أراك مرة أخرى.

- أنت تطاردني فعليًّا.

- أعرف. إنه أمر لا يُغتَفر مني.

يرتدي جون سروالًا قصيرًا رمادي اللون، وقميصًا أسود مطبوعة عليه صورة تمساح، وحذاءً أزرق داكنًا. يبدو جون وكأنه رجل يقضي عطلة هنا بالفعل منذ أسبوعين. كان هذا أحد الأشياء التي أعجبت إيما فيه؛ يبدو دائمًا مستمتعًا، كما لو كان لديه كل الوقت في العالم. وذاك بلا شك ما يجعله أكثر شعبية بين مرضاه، فبينما هو على وشك فتح قلوبهم، يجعل الأمر يبدو كأنه مسألة يومية يمارسها بلا رسمية أو اهتمام زائد. تَرَتَّب لقاء إيما الأول مع جون هاملتون براون على يد جرانت سماتس، عندما تلقى سماتي خبرًا عن طلاق إيما الوشيك. اتفاقًا مع انتفاء النية لديه في إغواء إيما بنفسه، لا

t.me/yasmeenbook

بد أنه قرر أن يترك الفرصة لصديقه. لم تكن إيما في البداية مهتمة بهذا الرجل اللامع جدًّا، شديد الرضا عن نفسه، حتى إنها سألت سماتي ما الذي قد يجعلها تفكر في استبدال جون هذا بوجود جوناثان في حياتها.

- أين عائلتك بحق الجحيم؟

- أوه، أحضرتهم معي.

- يا إلهي.

- كانوا يرغبون في عطلة، وبدا هذا الفندق جيدًا جدًّا.

تهزُّ إيما رأسها في الظلام. سبق أن رأت عائلة جون: الزوجة ذات المظهر الرياضي، وأطفالهما الثلاثة المتماثلين تمامًا. في معرضها الأخير، أشار سماتي إليهم لتعرفهم.

- ماذا كنت تنوي حين قدمت إلى هنا؟

- لم أكن أنوي سوى رؤيتك مرة أخرى.

- لأي غرض؟ لم أغب سوى أسبوع.

- عليَّ أن أفارق سينثيا، يجب أن أكون معكِ.

- هذا جنون مُطبِق.

- أعلم.

جون هاملتون براون رجل لم يعتد أن يجيبه أحد بالرفض. على الرغم من معارضة سينثيا المزعومة –أو ربما بسبب ذلك– فقد دفع بالفعل مقابل المنحوتتين من معرض إيما. تسلمهما سماتس ووضع إحداهما على السطح المجاور لغرفة النوم العائمة لمنزله الزجاجي.

- آسفة يا جون، ولكن هذا مستحيل.

- لا تقلقي، أنا لا أريد منكِ شيئًا.

- تريد كل شيء مني. تلك بالضبط هي المشكلة.

يتقدم جون ويمسك بيدها. تشعر إيما برغبة قوية تحاول قمعها.

تسأل إيما: «ماذا سنفعل؟»

t.me/yasmeenbook

- يمكننا التظاهر أننا بالكاد نعرف بعضنا بعضًا، وأننا قد صِرنا أصدقاء بدافع من وجودنا في الفندق نفسه.
- أنا هنا مع أختي وزوجها.
- كلما زاد الناس من حولنا استطعنا التظاهر بعادية الأمر.
- أنا هنا أيضًا مع ابني.
- كم عمره؟
- أحد عشر.
- سأخبر كلاريسا أن تكون لطيفة معه.
- هل هي طفلتك الوسطى؟
- الأكبر. تحاول كلاريسا دائمًا الابتعاد عن أشقائها. يمكنها أن تجد ملجأ في صداقتها وابنك. اسمه جوليان، أليس كذلك؟

تشعر إيما بالقلق لحظة. الحقيقة هي أن جون لم يكن ليأتي كل هذه المسافة لو لم تكن قد شجعته بشكل ما. كان آخر لقاء لهما في حفل استقبال خاص في معارض سماتي، حدث أُقيم خصِّيصِي لمنح جامعي التُّحَفِ من عملاء المعرض فرصة للتعرف إلى الفنانة مباشرة. كان يومًا مروِّعًا؛ هيمن الذكور الأغنياء على المكان، وبدأ كلٌّ منهم في تجاهل زوجته، وتجاهل إيما نفسها حينما صار الوضع تنافسيًّا، واهتمَّ كلٌّ منهم بالتفوق على أقرانه. عندما تمكنت إيما أخيرًا من الهروب من الغرفة والخروج إلى الحديقة، انضم إليها جون. استدارت إليه ومنحته قبلة متعجلة على فمه. لم تكن متأكدة لماذا قَبَّلَته بتلك الطريقة، ربما إعلانًا عن اهتمامها، أو ربما بدأت رغبتها فيه من تلك الليلة. منذ ذلك الحين لم يفعلا شيئًا سوى تبادل بعض الرسائل، والاتفاق على اللقاء منفردين بمجرد عودتها من العطلة، ولكن يبدو أن جون لم يطق الانتظار.

- كل ما رغبت فيه هو بعض السلام والهدوء.
- وهذا هو تمامًا ما سأمنحك إياه، آخر ما أريده هو إفساد عطلتك.
- أعتقد أنك قد أفسدتها بالفعل.

t.me/yasmeenbook

في اليوم التالي على العشاء، ترى إيما جون مجددًا، مُحاطًا بأفراد عائلته هذه المرة، بينما يرتدون جميعًا ملابس يتفق فيها اللونان الأزرق والأبيض. تُلَوِّح الابنة الكبرى –التي تعرفت عليها إيما في وقت سابق من بعد ظهر ذلك اليوم عند حمام السباحة– إلى جوليان، بينما يبذل جون قصارى جهده لئلا ينظر إليها.

- تلك الفتاة تلوح لك بلا هدف.

- اسمها كلاريسا، ولكنها تفضل أن يناديها الناس كلير.

- لطيفة جدًّا.

الآن فقط ينظر إليها جون. يبتسم كاشفًا صف أسنانه بينما يصب النبيذ لزوجته. تستدير إيما قبل أن يبدأ الوغد في الغمز بعينه تجاهها. في صباح اليوم التالي يمكن لإيما مشاهدة العائلة عبر واجهة محل حلويات فرنسي، حيث المكان مغمورٌ بضوء الفلورسنت بينما قد جلسوا يشربون أكوابًا طويلة من عصير البرتقال الطازج. يقرر النحل في المكان المشي صعودًا وهبوطًا عبر النافذة عوضًا عن مضايقتهم.

تقول إيما لجوليان: «هذا نحل فرنسي، وليس نحلًا إفريقيًّا. لا تقلق لن يهاجموك».

- هل يحملون الجراثيم؟

- النحل يختلف عن الذباب يا حبيبي؛ إنها مخلوقات نظيفة للغاية.

في الانعكاس على الزجاج، ترى إيما جون يتمتم بشيء لابنته الكبرى، التي تفلت من الحصار العائلي وتأتي للوقوف بجوار جوليان على المنضدة. تميل إليه بطريقة تذهل إيما، وعندما تستدير للنظر مباشرة إلى جون، يبادلها النظر بابتسامة مفترسة كما لو كان يخبرها: «إنني قد سَلَّمتُ ابنتي إلى ابنك، فماذا ستمنحينني في المقابل؟»

- أريد كرواسون باللوز.

- طبعًا، ولكن ألن تقدمني إلى صديقتك؟

اندمج الطفلان جدًّا في الأيام التالية، حتى إن جوليان صار يختفي تقريبًا في ظل الفتاة وفيها. يبحث كل منهما عن الآخر كل صباح على وجبة الإفطار،

t.me/yasmeenbook

فيلتقيا كما لو كان كل منهما قبل اللقاء يعيش حلمًا يستيقظ منه في حضرة الآخر، حيث لحظة الوصول، ذلك الارتباط الحتمي هو الواقع الوحيد. لم تَرَ إيما جوليان منطلقًا هكذا في صحبة أحد من قبل، كلير كانت الوحيدة التي وفَّرَت له هذا النوع من الملاذ. حتى مع جينيفر، كان هناك دائمًا فرعٌ صغير منه يرغب في التحرر منها نحو مصدر بديل للهواء أو الضوء. سرعان ما يجد الطفلان أسبابًا ممتازة للفرار من صحبة البالغين، أسبابًا لا يمكن للوالدين الاعتراض عليها. يريدان لعب التنس، وجمع المحار، أو التدرُّبَ على لغتهما الفرنسية. في البداية، كانت إيما سعيدة للغاية بابنها، يبدو منطلقًا جدًّا، حيًّا سعيدًا. أليس هذا ما طالما قالت إنها تريده له؟ أن يجد فتاة رقيقة ليخرج معها حتى لا يشعر بالحاجة إلى الالتصاق بها؟ لقد كان دائمًا أحد هؤلاء الأطفال الذين يختبئون بين البالغين، خاصةً عندما يكون هناك أطفال أكبر سنًّا في الجوار. لطالما كان الأطفال الأكبر سنًّا يخيفونه، ولم يكن قادرًا على أن يُظهِرَ نفسه في حضرتهم، ناهيك بمشاركتهم في أي نوع من الأنشطة. حتى لو كانت إيما هي التي سعت إلى بداية هذه العلاقة، فهذه هي المرة الأولى التي يولِي فيها طِفلٌ ما جوليان اهتمامًا حقيقيًّا. لا يمكن للفتاة أن تزيف الأمر لإرضاء والدها؛ إنها من النوع الذي لا يمكنه التظاهر بأي شيء غير حقيقي. ولكن بعد أيام قليلة أصبحت إيما أكثر قلقًا على جوليان. عندما لا يكون مع كلاريسا يكون غاضبًا وفتورًا، لا يسعه الصبر ليهرب من رفقتها، بينما هو حول كلاريسا أقل شبهًا بنفسه، ذو ثقة تامة في الموضوعات التي لا يعرف عنها أقل شيء، وتسمعه إيما ينتقد أشياء قد أبدى إعجابه بها فيما قبل: مدرسه الفرنسي كسول، منزلهما في جوهانسبرج قد صار قديمًا، ولا يحب يربوعه الجديد –الأميرة بيكلز– لأنها تعض دائمًا.

في لحظات غريبة، ستلتقط إيما عيني جون تراقبانها وتراقبان جينيفر وأندرو، تشعر كأنها وعائلتها حَبَّات بازلاء ريفية تحت عيني جون هاملتون براون المضيئة ككشافات. هكذا تراهم في عينيه: إيما خرقاء، وجينيفر في حالة سكر، أما أندرو، فلا يستحق حتى مجرد التفكير فيه. تعرف إيما أنه أمر مؤلم لجوليان أن ينتابه الانطباع نفسه حول عائلته، ولكن تأثير الفتاة داخله قوي للغاية. جوليان وعشيرته لا يُقارَنون بالرائع هاملتون براون. ما يجعل الأمر أسوأ هو أن عائلة هاملتون براون قدمت صورة باهرة جدًّا؛ يتصرف كل

t.me/yasmeenbook

أفرادها بشكل لا تشوبه شائبة، بينما تُسقِطُ إيما الملح، وتسكب جينيفر كأسًا أخرى من النبيذ، ويومئ أندرو لمن يحادثه دون اهتمام حقيقي بما يقول، كما لو كان الحوار مملًّا للغاية فلا يمكنه مواكبته.

تقول إيما بينما ترقد هي وجوليان على السرير ومن فوقهما المروحة تئزُّ وتهتزّ كدبُّور أسود جاهز للانقضاض في أقرب وقت: «صِرتُ لا أراكَ تقريبًا مؤخرًا».

- ها أنتِ ذي ترينني الآن.

يتمدد على السرير ويتثاءب مثل قطة صغيرة. بحلول الوقت الذي وصلت فيه إيما إلى الغرفة في الليلة السابقة كان جوليان قد غاب بالفعل في النوم. كانت تجلس في الحديقة المغلقة تحت شجرة اللبخ مع جينيفر وجون تشرب الليمون المثلج، بينما كانت أختها تغازل حبيبها المُحتَمَل. ومن المثير للاهتمام أنها لم تشعر بأي ميل إلى التدخل. في أثناء فترة إعداد إيما لزواجها، اعتادت جينيفر مغازلة جوناثان، ولم تستطع إيما أن تمنع شعورها بالأذى. ومع ذلك، لم تتخطَّ محاولات جينيفر مجرد المغازلة، وأدركت إيما أن جينيفر لا تنوي النوم مع جوناثان، وأن كل ما كانت تحاول فعله هو استفزاز إيما، وحيث إن الأمر لم ينته بإيما إلى إظهار أي قدر من الانزعاج، فقد فقدت جينيفر اهتمامها بالمسألة في النهاية. ولكن حقيقة أن إيما لم تشعر بأي انزعاج في الليلة السابقة يخبرها بشيء مهم عن مشاعرها تجاه جون. كان أمرًا فظيعًا أن تسمح لرجل متزوج وله ثلاثة أطفال صغار بمغازلتها لأن زواجها قد فشل. والأسوأ من ذلك أن زواجه نفسه كان يعاني من مشكلات بسيطة للغاية. علمت إيما أن سينثيا كانت ذات يوم راقصة باليه، وأن جون قد رآها أول مرة ترقص وجسدها يتحرك في خفة مثل زنبق الماء في حفلة تمولها الدولة في كيب تاون، أم إنها كانت بلومفونتين؟ عاد جون لمشاهدة العرض في اليوم التالي، واليوم التالي. هكذا، وفي غضون شهر، وافقت سينثيا على الزواج منه. منذ ذلك الحين –أو هكذا بدا– أدَّت سينثيا دورها بإتقان. ربما كان جون واحدًا من هؤلاء الرجال الذين يحبون عيش حياة مزدوجة. حسنًا، اليوم ستنهي إيما هذه الرقصة المزعجة إلى الأبد. على كل حال، لم يحدث أي شيء منذ تلك

t.me/yasmeenbook

القبلة الأولى، باستثناء قبلة ثانية نصف ناجحة قبل يوم، عندما فاجأها جون بمفردها على ضفة رملية في أثناء انخفاض المد في البحر.

تُكمِلُ إيما حديثها مع جوليان: «أنت تعرف ما أعنيه».

- تقصدين أنكِ لا تحبين كلير؟
- أنا لم أقل ذلك مطلقًا.
- ولكنكِ لا تحبين وجودنا معًا؟
- بلي، أنا سعيدة جدًّا لأن لديك صديقة جديدة.
- ما الأمر إذن يا أمي؟
- لا أعرف. أعني فقط أنني أفتقدك.

تشعر إيما بالسوء لأنها تقول هذا، كما لو أنها تحاول جذبه إلى الأسر مرة أخرى بعد أن حاول التحرر، بعد أن حاول كلاهما التحرر. لسبب ما، تتذكر إيما الأميرة بيكلز، هدية جين إلى جوليان في عيد ميلاده الأخير، تتذكر أن الطريقة الوحيدة لإخراج بيكلز من قفصها هي الطعام.

عليك أن تمنحها حبة فول سوداني قبل أن توافق على أن تلعب معها. وكان جوليان على حق؛ حتى الآن لم تكن بيكلز حيوانًا أليفًا لطيفًا بأي حال. وإنها تملك حق القرار في عَضِّ يديك والعودة إلى قفصها على أي حال، حتى وإنْ كُنتَ تملك حبة فول سوداني جيدة تدفعها بلطف تجاهها.

يقول جوليان بينما يحشر نفسه بين الوسائد: «ليس لي معها سوى ثلاثة أيام، بينما لدي بقية طفولتي معكِ».

منذ أن صار قادرًا على التحدث، ظَلَّا يناقشان «طفولته» كما لو كانت كيانًا منفصلًا يجب على كليهما الحفاظ عليه. زعمت جينيفر أن تمييز الطفولة لم يكن سوى تقليد فيكتوري مَجَّدَته الطبقة المتوسطة الراغبة في ملاذ من المتهربين والنشالين، أمر شائن لذكرى أوليفر تويست. رَدَّت إيما دائمًا على نظريتها بأنه لا أمر يُشينُ الطفولة، وبأنها تبالغ كعادتها في إلقاء المحاضرات.

- كما أخبرتك، أنا سعيدة لأن لديك صديقة جديدة لطيفة مثلها. إنها جميلة أيضًا، أليس كذلك؟

t.me/yasmeenbook

- هكذا تعتقدين؟

- نعم، هي تُذَكِّرُني بسندريلا.

- حياتها أجمل كثيرًا من حياة سندريلا.

- ربما يا حبيبي، ولكن كذا حياتك أيضًا.

يلتف بجسده ليناسب المساحة بين ذراعيها، ويميل بوجنته مخملية الملمس على ترقوتها، فيبدو مرة أخرى كقطة صغيرة، واثقًا ومنطلقًا، ولكنه يفتقر إلى حياة القطط المستقلة في جزئها الأكبر.

- سأخبرك سِرًّا عن الفتيات.

- حسنًا.

- سوف يَمْنِحْنَك مزيدًا من الاهتمام والاحترام إن شعرنَ أنك لا تحتاج إليهن بشدة.

يحتج جوليان: «إنها مجرد صديقة».

- لا فرق.

أخبرها أندرو بالفعل أنه رأى الطفلين يتبادلان القبلات بين الشجيرات خلف ملعب التنس، ورأتهما إيما لاحقًا يتبادلان القبلات مرة أخرى في المكتبة بعد ظهر ذلك اليوم، رغم أنها انسحبت ونادت جوليان من بعيد كأنما تمنحهما فرصة للتظاهر بأن لا شي يحدث. قبل العشاء، سخر البالغون على العشاء من تطور العلاقة بين الطفلين. وصفها جون بأنها غير ضارة، وقالت سينثيا إن كلاريسا لم تحظَ قط بصديق مناسب من قبل، وقال أندرو إن كل ما كانا يفعلانه هو التدرب على العلاقات التي ستأتي فيما بعد. وحدها جينيفر بقيت صامتة. عرفت إيما أن أختها لا تحب الفتاة. كان العضو الوحيد في عائلة هاملتون براون الذي يحظى باهتمام جينيفر هو جون نفسه.

- أفترض أنك ستتمكن من مقابلة كلير في جوهانسبرج.

- لن تكون هي نفسها.

- لما لا؟

t.me/yasmeenbook

- سيكون أصدقاؤها الآخرون حولها. سوف يضحكون عليها لكونها صديقةً لصبي أصغر منها كثيرًا.
- أنا واثقة من أنها فتاة قوية الشخصية. إذا أرادت رؤيتك، وجدت طريقة للقيام بذلك.
- لَستُ غبيًّا يا أمي. أعرف كيف تجري الدنيا من حولي.

تركت هذه الفكرة تستقر بداخله، ولم ترغب في تعطيلها. الحقيقة أنها أرادت للطفلين أن ينفصلا لأن ذلك سيجعل انفصالها عن جون أسهل. لا يمكنها تحمل فكرة أنهما كانا يتلاعبان بالطفلين بتلك الطريقة؛ لقد كانت مسألة وقت فقط قبل أن يتأذى شخص ما.

- على أي حال، أنت في عطلة. عليك أن تستمتع بها قدر ما أردت.
- شكرًا يا أمي.
- أحبك كثيرا يا بو[1] . وآمل أنك تعلم ذلك بالفعل.
- أعلم.

ينزل عن السرير ويتجه نحو الحمام. لا يخبرها أنه يحب كيف تبدو من ظهرها، لا يحتاج إلى ذلك.

في عصر ذلك اليوم، سبح جوليان أول مرة في البحر فعليًّا. تراقب إيما من الشاطئ، بينما تجري كلاريسا نحو الشاطئ وتغطس في موجة متكسرة يصل جوليان بعدها مباشرة. قبل أيام قليلة كان جسد جوليان مثل علامة استفهام زرقاء شاحبة، ولكنه الآن يبدو مثل أي طفل آخر على الشاطئ؛ ببشرة داكنة من أثر الشمس، وجلد لامع تمامًا كيوم ولادته. عندما يصلان إلى الجانب الآخر من استراحة الشاطئ، يضحك جوليان. يبدو أنه دهش عندما وجد أنه يستطيع الوقوف، وأنه لا يوجد تيار يسحبه نحو العوامات الحمراء الفسفورية التي تحدد موضع شباك القرش. شعره الكثيف مُبتَلّ، وابتسامته واسعة، يمكنك تقريبًا سماع ضحكته تطغى على صوت البحر. تُلَوِّحُ إيما تجاههما، ويظهر الطفلان. وفي تلك اللحظة، وعلى الرغم من جميع تحفظاتها السابقة، تحب إيما هذه الفتاة، التي حققت لجوليان في الأيام القليلة الماضية

---

(1) لفظ تدليل بمعنى «صغيري».

t.me/yasmeenbook

أكثر مما منحته هي طوال العطلات السابقة. يراقب أندرو المشهد بجانبها، بينما يجلس جون بعيدًا مع ابنه مزينًا قلعته الرملية ببعض الأصداف. تحفر الطفلة الوسطى –إليزابيث– خندقًا حول القلعة، وتملأ دلوًا أصفر بالرمل الزائد كما يفعل كل الأطفال على البحر. عندما يمتلئ الدلو تمامًا بالرمال، تهرول إلى الشاطئ وتقذف الرمل باتجاه البحر، ولحظةً يتدلى الرمل في الهواء مثل سحابة ذهبية صغيرة، أشبه بجسد ملاك.

تقول إيما: «آمل ألا يبتعدا كثيرًا».

صار الطفلان الآن أقرب إلى الخط الخلفي، حيث تكون زرقة البحر أعمق. هناك اثنان من راكبي الأمواج على الجانب الآخر من الأمواج متوازنان على لوحيهما، ويشاهدان ارتفاع المياه في مواجهتهما. يبدو أن هناك موسيقى غريبة تعزف في خلفية هذا اليوم، موسيقى تنتظر اللحظة المناسبة للإعلان عن نفسها. أمر ما يجعل إيما متوترة؛ صورة ملاك الرمال التي رأتها منذ قليل، هذا الحدس الذي تملكه في مواجهة الواقع.

يسأل أندرو: «هل تريدين أن أسبح إلى هناك وأبقى بجوارهما؟»

تنظر إليه وتبتسم. إنها تعلم أنه إذا كان هناك ملاك حقيقي في أي مكان على هذا الشاطئ فهو هذا الرجل الجالس بجوارها، يراقبها بهدوء ويفهم كل ما يجري حوله.

- لا أريد أن يعتقد جوليان أننا نحاول إنقاذه.

- لن يعتقد ذلك.

يقف أندرو وينزل إلى الأمواج، ويبدو كشخص يتظاهر بأنه يسعى إلى إنقاذ أحدهم. تستطيع إيما مشاهدة تحركاته بحجة مشاهدة ابنها في البحر. يملك جسدًا يشبه منحوتة الجندي البلجيكي رودن، الذي نحتته في بداية مسيرتها المهنية، والذي ادَّعى ناقدٌ صحفي أنه لا بد أنها قد اعتمدت في نحته على نموذج بشري حقيقي ليبدو حقيقيًّا وذا نسب مضبوطة للغاية كما ظهر التمثال. لا بد أن أندرو يعرف أن إيما تراقبه بينما يختفي تحت الموجة العالية، التي يسبح بعزم من تحت زبدها الأبيض. تفكر في أنها تريده بالفعل أن يعرف ذلك.

t.me/yasmeenbook

- سَبَّاح جيد زوج أختك.

مُقتَرِبًا بجوارها إلى المساحة ذاتها التي كان يشغلها أندرو منذ قليل. ينغمس طفلا جون في بناء قلعة مجاورة الآن بعد أن أكملت الفتاة الخندق المائي للقلعة، وقد انزلق والدهما بعيدًا عن أرضهما الخيالية بلا أي اهتمام.

تقول إيما: «العزيز أندرو». بينما يحاول مراقبة الأطفال من بعيد لئلا يلاحظوه.

ثم تابعت: «إنه مستعدٌّ تمامًا لأن يكون منقذًا، بل شبكة سمك القرش إن احتاج الأمر».

- هذا لأن الشاب المسكين مُغرَمٌ بكِ تمامًا.

- هل تظن ذلك حقًّا؟

- أنا أعلم ذلك، وأنتِ أيضًا تعلمين.

لا تشعر إيما بالحاجة إلى إنكار ذلك، كما تفعل عادة. تحب صدق واتساق جون؛ صفات قد تبدو مناقضة لشخصيته في الحقيقة. يعلو المد جالبًا المزيد من زبد البحر إلى قلعة الطفلين، فيعاودان بناء الخندق لحماية مخلوقاتهما من الفيضانات الوشيكة.

- هل تعتقد أن جينيفر تعرف ذلك أيضًا؟

- أن زوجها واقع في حبك؟ أنا متأكد من أنها تعرف. الجميع يعرف، حتى إن سينثيا سألتني إذا كانت هناك علاقة غرامية بينكما من نوع ما.

- هل سألتك عن ذلك فعلًا؟ (تضحك إيما) وبِمَ أجبتها؟

- قلتُ لها إن افتراضها صحيح بلا جدال.

يبتسمان، حتى تشيع في الجو كآبة من نوع ما. كانت إيما تبحث عن طريقة لإنهاء الأمور مع جون، ولكنها لم تجد الفرصة حتى الآن. ربما شعر بذلك، ولكنه لم يجد الفرصة لفتح الموضوع.

تسأل إيما: «ماذا عنا؟»

- ماذا عنا؟

- هل تعتقد أن سينثيا تشك في أي شيء بخصوصنا؟

t.me/yasmeenbook

- بالطبع لا.

ظَلَّا فترة يشاهدان أندرو بينما يسبح. رأسه مرفوع كما يجدر بسَبَّاح ماهر في البحر المفتوح، أو كأنه يبقي عينيه يقظتين بحثًا عن زعانف سمك القرش. يمكن لإيما أن تشعر من حركة جوليان في البحر أنه قد صار أكثر اطمئنانًا بوجود أندرو بجوارهما، على الرغم من أن الطفلين يتظاهران بأنهما لم يرياه.

- إيما، كل ما أطلبه هو قضاء بعد ظهر أحد الأيام معك وحدك.

تضحك إيما.

- بعد ظهر أحد الأيام؟ هل هذا هو كل ما تريده مني؟

- هذا ليس ما أعنيه. كما ترين، لدي هذه النظرية القائلة بأنه لا يمكنك معرفة الشخص إلا بعد أن تمارس الحب معه. وهذا ما أريده؛ أريدكِ أن تتعرَّفي إليَّ حقًّا.

- بالمنطق الإليزابيثي [1]؟

يظل جون صامتًا. ربما لم يكن على دراية بما تقصده بالمصطلح الذي ذكرت. ربما كان يقصد بالفعل ما أخبرها به، على قدر ابتذال نظريته.

- أعتقد أنه إذا تَعَرَّفتِ إليَّ كما أنا حقًّا، فيمكننا حينها أن ندرك ما علينا فعله بعدها.

- وما هو ذاك الذي علينا فعله؟ أن نُحَطِّمَ حياة أطفالك؟

يقول: «لن تتحطم حياة أطفالي. هم بخير تمامًا». يقولها بثقة توحي بأن تلك ميزة لا يملكها طفل إيما نفسه. يحتاج طفل إيما إلى أن ينقذه رجل، رجل يحبها سِرًّا، بينما تقف طفلة جون آمنة تمامًا في عرض البحر.

كان أندرو في البحر يتباهى بمواجهة الأمواج، أمرٌ بدا لها لطيفًا، لدرجة أنها لا يمكنها إلا أن تشعر بالامتنان والأمان تجاه الفكرة. تعلم إيما جيدًا أن بادرة مثل التي اقترحها أندرو ونفذها لن يقوم بها جون أبدًا، لن يحاول

(1) المسرح الإليزابيثي، حيث يكون المسرح مفتوحًا وعلى المسرحية أن تُعرَضَ في وضح النهار.

t.me/yasmeenbook

مواجهة موجة لإثارة إعجابها، ربما كان سيفعل ذلك فعلًا في عرض البحر، وإنما للتباهي بنفسه فقط.

تسأل إيما مهتمة بسماع خطته حول مقابلتهما: «كيف سنتهرب من الآخرين لنلتقي؟» على الرغم من أنها تعلم أنها لم تعد مهتمة بإتمامها على أية حال. ثم تواصل كلامها: «هل يقول كُلٌّ منا إنه يرغب في قضاء فترة الظهيرة بسلام بمفرده؟ ما هي المدة التي سنحتاج إليها؟ ساعة واحدة؟ اثنتان؟»

- يمكنني مثلًا إرسالهم إلى معرض الحياة البحرية.
- معرض الحياة البحرية؟
- أو ربما في نزهة طويلة.
- نزهة؟

يحدِّق إليها مأخوذًا من نبرة صوتها المنزعجة.

- نعم، هكذا يغيبون وقتًا طويلًا.
- ولكن كيف نقترح هذا ثم يتخلف كلانا فجأة عن الذهاب؟ ألا يبدو الأمر مكشوفًا بعض الشيء؟
- أعتقد أن جينيفر ستتخلف عن الذهاب هي الأخرى.
- لأن تلك فترة قيلولتها لما بعد الظهر.
- بالضبط.

هنا بالتحديد علمت إيما كيف ستتهرب من جون وتنهي العلاقة.

t.me/yasmeenbook

الفصل الحادي عشر

جينيفر

لاعبة الهوكي بشعرها الكثيف الداكن - آمهالانجا روكس

أكثر ما تحبه جينيفر في عطلتها هي غرفتها المُطِلَّة على البحر. تستيقظ قرابة الثالثة صباحًا، وتطلب طبقًا مميزًا من شطائر الخيار وفنجانًا من القهوة، الذي يأتي على صينية فضية جميلة، مع قطع من الشوكولاتة البيضاء وبسكويت التوت البري مرتبة حوله. أما السرير ففاخرٌ جدًّا، وطَرِيُّ الملمس. تشعر فوقه وكأنها ليدا [1]، مستلقية تطفو من فوق الماء، محمولة بعيدًا على صدر بجعة بيضاء ناعمة. من سريرها، يمكنها أن ترى شرفة الفندق عبر النافذة، حيث تقف المنارة على مسافة ليست بعيدة عنها، وتتوهج بألوانها الوردية. ما تحبه كثيرًا في العطلة هو وجود كل هؤلاء الناس من حولها. على وجه الخصوص، ذلك الرجل –هاملتون براون– الفظيع. واضح أن زوجته لم تقرأ يومًا كتابًا أضخم من مجلة «فوج»، بينما يظهر الأطفال الثلاثة بمظهر مثالي للغاية، حتى إن الانطباع الوحيد الذي خَلَّفوه هو الزيف الناضح على تصرفاتهم. أما الزوج، فترى جينيفر أنه يملك إمكانيات وشخصية أكثر

(1) في الأساطير اليونانية، كانت ليدا أميرة إيتولية، وأصبحت ملكة إسبرطة. أدت أسطورتها إلى ظهور الفكرة الشعبية في عصر النهضة.

t.me/yasmeenbook

نضجًا، إلا إنه يتصرف بسخافة من أجل إيما. كالعادة، كان أندرو ينظر إلى جينيفر كما لو أنها ليست أكثر من مشكلة حياته التي يُفَضِّل نسيانها. الشخص الوحيد الذي كان يحاول أن يكون لطيفًا معها هي إيما، ولكن حتى إيما لا يمكنها أن تتحملها حتى تنهي حديثها. لم يكن ليؤثر فيها كل ما سبق لو أنها أقرب إلى جوليان، ولكن جوليان لا يهتم بها على الإطلاق. في مناسبات نادرة، حينما كان الصبي ينظر إليها، كان يمكنها رؤية التعبير الساخر الذي تعلمه من الفتاة على الأغلب، كما لو أن هذا هو كل ما تستحقه؛ السخرية. لم تشعر جينيفر يومًا –وهي امرأة متزوجة مُحاطَة بأشخاص انتهت زيجاتهم أو مشغولين بأمور نفسية مزعجة– بأنها أشبه بالعانس، وهي كلمة مروعة لا تناسب إلا العناكب. غرفتها في الفندق هي المكان الوحيد الذي لا تشعر فيه بالوحدة. صُمِّمَت هذه الغرفة –بظلالها الكريمية واللون الخزامى، وضوئها بلون العسل– للأشخاص المتطلبين بدرجة أكبر من جينيفر الحقيقية، لهذا تستطيع أخيرًا تجربة بعض الاهتمام والعناية التي تَوَفَّرت للآخرين دونها طوال الوقت. ونعم، يمكنها هنا أن تخطط للانتقام. سيأتي انتقامها في شكل الرواية التي لطالما اعتقدت إيما وأندرو أنها غير قادرة على إكمالها. أحيانًا –في لحظاتها الدراماتيكية– ترى أن كتابة الرواية هي أشبه بكتابة رسالة انتحار. في حالات أخرى –خلال اللحظات الأكثر دراماتيكية– كانت تتصورها على أنها «ملاحظة للحياة»، كرسالة نهائية ستمكِّنها من تحرير نفسها من الكثير من تفاصيل الحياة المزعجة إلى الأبد. في نهاية الأسبوع، يغادر باقي أفراد الأسرة إلى متحف أسماك القرش، أم إلى معرض الحياة البحرية؟ في كلتا الحالتين، تنسحب جينيفر إلى غرفتها وروايتها عن الكراهية. لطالما كرهت كل ما يتعلق بالأسماك. عندما كانت فتاة، كان عليها أن تقتلها من أجل والدها، وكان عليها أن تمسك أجسادها الصغيرة القاسية بحجر وتضربها مرارًا وتكرارًا على الرأس، وبعد ذلك توقع الجميع منها أن تأكلها. ربما في يوم من الأيام ستخبر إيما بالحقيقة عن حادثة المحار؛ كانت جينيفر هي التي سعلت المحار في الشرفة في الطابق السفلي، وليست إيما، وجينيفر هي التي وُبِّخَت بسبب ذلك، من والدة إيما. لا تستطيع إيما أن تتذكر الحادث لأنها في الحقيقة أَحَبَّت تلك المحارات وأكلتها بسعادة الواحدة تلو الأخرى. وبالطبع

t.me/yasmeenbook

لا يمكنها أن تتذكر غضب أمها لأنه –كالعادة– كان مُوَجَّهًا إلى جينيفر، التي امتصت ذلك الغضب مثلما تمتص اللوزتان السم الآتي رغمًا عبر الحلق.

نادتها إيما: «جينيفر؟»

ربما كان متحف أسماك القرش مغلقًا اليوم، أو إن التذاكر قد حُجِزَت بالكامل. تنتظر جينيفر أن تستسلم إيما وتذهب بعيدًا.

- جين، هل أنتِ مستيقظة؟

عندما ترغب إيما في شيء ما فهي لا تيأس أبدًا، ولا تذهب بعيدًا حتى تناله.

- إنها أنا يا جين. افتحي الباب من فضلك.

- ادخلي. إنه مفتوح.

تدخل إيما كما لو كانت تتوقع نصف جازمة بأن هناك شخصًا ما في الغرفة معها.

- آسفة جدًّا لإزعاجك. هل كُنتِ نائمة؟

كان لدى جينيفر الوقت الكافي لإخفاء دفتر ملاحظاتها تحت الوسادة قبل دخول إيما. ألم يقل فيليب لاركين ذات مرة إن الشعر الإنجليزي يحقق غاية قدراته عندما يُعامَلُ كشيء مُخجِل يجب إخفاؤه تحت الوسادة كلما دخل شخص إلى الغرفة؟

تقول جينيفر: «كنت أقرأ». ثم تدرك متأخرة أن جميع الكتب الموجودة في الغرفة بعيدة عن متناولها.

تقول إيما التي لا يبدو عليها أنها اكتشفت الكذبة: «حسنًا». وتستقر بجوارها على السرير.

هذا مشهد مماثل تمامًا من طفولتهما: الشقيقة الصغرى تدخل غرفة الأخت الكبرى بجو من السرية والتآمر الذي تتبناه فقط عندما تحتاج إلى مساعدة جينيفر. خلال الأشهر الأخيرة التي تشاركت فيها الأختان العيش في المنزل ذاته، كانت مواضيعهما السرية تتعلق دائمًا بصبي ما في المدرسة. خلال كل المراحل الدراسية، كان دائمًا لدى إيما صديق أو اثنان كمشاريع عاطفية، أمر عدمته جينيفر تمامًا. على الرغم من ذلك كانت إيما تميل دائمًا

t.me/yasmeenbook

إلى الأخذ بنصيحة أختها الكبرى، مُفَضِّلَة نصيحة العمر الأكبر على الخبرة في الغالب.

- أين بقية الجَمع؟

- في متحف أسماك القرش.

- وأنتِ لم تذهبي؟

- أندرو وسينثيا فقط ذهبا.

- وحدهما؟

- لا، بصحبة الأطفال الصغار.

- والكبار؟

- يلعبان بالأسفل عند حمام السباحة.

من شرفتها، تتمتع جينيفر بإطلالة جيدة على حوض السباحة. كانت تشاهد جوليان وكلاريسا طوال الأسبوع. يعرف جوليان أن غرفتها تقع في هذا المكان. في اليوم الأول –عندما كان لا يزال يطيقها– جاء حتى غرفتها ليطمئن عليها، أما الآن، فلم يتكلف يومًا وهو بصحبة الفتاة أن يرفع نظره إلى غرفتها. تجلس هناك وتدخن وتستمع إلى ضحكاتهما، وعندما تنتهي تنسحب وتلقى ما تبقى من سيجارتها إلى الحديقة.

- وأين جون؟

تفهم جينيفر كل شيء من نظرة إيما ردًّا على سؤالها؛ تفهم سبب زيارة متحف أسماك القرش، وسبب زيارة إيما إياها في الغرفة؛ لدى الاثنين موعد غرامي، وقد أتت إيما إلى هنا لتحصل على بعض التشجيع.

تقول إيما: «على وشك مقابلتي في غرفتي».

على الرغم من أن كليهما يعرف أن جينيفر قد فهمت بالفعل كل شيء. لطالما خشيت إيما كثيرًا ذكاء جينيفر، التي تسير أمامها ككلب يتتبع الروائح ويكتشف أشياء عن إيما قبل فترة طويلة من علم إيما بها؛ مثل حمل إيما، ومؤخرًا طلاقها.

تسأل جينيفر: «إذن فماذا تفعلين هنا؟»

t.me/yasmeenbook

- أنا في حاجة إلى مساعدتك.

تُقَلِّبُ جينيفر ناظريها تعبيرًا عن القلق تجاه ما تقصد إيما.

تردُّ جينيفر بمزحة لتلطيف الأجواء: «هذا أمر يمكنك بالتأكيد فعله بنفسك؟»

- هذا هو ما أعنيه. لَستُ واثقة من أنني أريد أن أستمر في هذا الأمر.

- تقصدين أنك تشعرين بالسوء حيال إقامة علاقة مع رجل لديه زوجة وأطفال؟

- حسنًا، نعم.

- هل هذا شيء لا ترغبين في فعله حقًّا؟

- لا، مُطلَقًا.

- إذن اذهبي إلى الغرفة وأخبريه بذلك.

تجعلها نظرة إيما التي تجيب عن جملتها الأخيرة تفهم سبب زيارتها الفعلي. حتى لو لم تكن إيما تدرك ذاك السبب بعد.

تقولها جينيفر محاولة ألا تأخذ جملتها صيغة السؤال: «تريدينني أن أتخلص منه».

- لا أعرف ماذا أريد. أخشى إذا ذهبت إلى هناك أن أستسلم.

تسمح لها جينيفر بالحديث دون تعليق؛ تحب أن تستدرج أختها، إنها لعبة أخرى من ألعابهما. ليس هناك من متعة في الأمر إنْ أخبَرَتها برأيها الآن.

- أخبريني، هل أقمتما علاقة من قبل؟

تشعر إيما بالإهانة.

- بالطبع لا.

- ولكنكِ تعرفينه من قبل أن نلقاه هنا في العطلة؟

- التقينا من قبل.

يبدو الحديث بين الفتاتين كما لو أنهما قد عادتا مراهقتين؛ إيما الفتاة التي لديها كل الخيارات، وجينيفر الخالة الطيبة.

- ماذا تريدين مني أن أفعل بالضبط؟

t.me/yasmeenbook

- أريدكِ أن تساعديني في الخروج من تلك الأزمة.
- كيف تحديدًا؟
- ربما يمكنك الذهاب إلى غرفتي وانتظاره.
- وبعدها؟
- أخبريه أنكِ تعرفين كل شيء عنا، وأن ذلك الأمر لا يمكن أن يستمر. إذا انكشف لنفسه من خلال نظرتك إليه، فسوف يتركني بسلام.
- تريدينني إذن أن أقوم بمهماتك الصعبة.
- إذا كان هذا ما تُطلِقينه على الأمر، حسنًا، نعم.
- هكذا هو، بصرف النظر عَمَّا أُسَمِّيه.

بعد وفاة والدهما، وقبل أن تُنفَى جينيفر خارج منزلها وترسلها والدة إيما إلى جوهانسبرج، كان هناك صبيٌّ تحبه الفتاتان، لاعب هوكي بشعر كثيف داكن. لم يكن للوهلة الأولى فتّى وسيمًا بشكل مميز. كان جسده ضعيفًا، وساقاه نحيلتين، وأذناه كبيرتين، ولكنه كان ارتجاليًّا جدًا، وعندما يضحك يتوقف الكون عن الدوران. كانت جينيفر أول من لاحظه، ولكن عندما ذكرت أمره لإيما، أثار الفتى اهتمامها أيضًا، وفي غضون أسبوع كانت إيما والصبي لا ينفصلان. تحاول إيما التعويض عن فعل السرقة هذا منذ ذلك الحين. منحتها أندرو، ثم جوليان، وهي الآن تمنحها جون. بالطبع ربما لم تكن إيما تنوي منحها جون، ولكنها لن تتفاجأ عندما تعلم بحدوث ذلك. لم تكن جينيفر لتترك فرصة لجون أن يرفضها، هي تعرف بالفعل كل ما ينبغي معرفته عن الرجل، كان جاهزًا تمامًا للاستجابة لنظراتها.

قررت جينيفر بينما تستَقِلُّ المصعد الزجاجي إلى الطابق الأرضي –وبطاقة إيما البلاستيكية ترقد في جيبها– أن تضم جون إلى كتابها عن الكراهية إن سارت الأمور بينهما على ما يُرام. يستحق ذلك بالتأكيد؛ رجل متزوج يدخل إلى الغرفة لملاقاة امرأة ما، ولكنه يقرر أن يقيم علاقة مع أختها بدلًا عنها لمجرد وجودها هناك.

t.me/yasmeenbook

الفصل الثاني عشر

زجاجة جيدة من بينوت نوير

جينيفر - جوهانسبرج

يرقد هناك مثل دمية كبيرة من الشمع، ومع هذا يمكنها رؤية ملامح الطفل داخلها. شفتاه منتفختان كما لو كان أحدهم قد قَبَّله بشدة للتو، وجفونه زرقاء شاحبة. يبدو جسده خفيفًا جدًّا تحت الملاءة، كأنه بالكاد هناك. قدماه فقط كبيرتا الحجم، وساقه اليسرى المكسوة بالجبس معلقة بزاوية كما لو أنه قد ركل كرة ما عاليًا، وقدمه اليمنى المغطاة بالشريط اللاصق مدفونة ككومة تحت الملاءة. تفكر في الصبي اليوناني الذي يعني اسمه قدم منتفخة، وأن جوليان أصبح يشبه إحدى منحوتات أمه؛ نصفها من الجبس والنصف الآخر من الشمع، وكأنه نسخة بدائية من التمثال، قبل لحظات من قرار الفنانة بصب البرونز المصهور على جسده. الآن، بعد أن قَصَّت الممرضة شعره الأرجواني الداكن، يبدو –يا للمفارقة– أشبه بالفتيات. تستلقي يداه على جانبيه في مشهد حزين، أصابعه رفيعة جدًّا، وبقية يده منتفخة. أمسكت جينيفر بيده اليسرى واحتفظت بها بعض الوقت.

كما فعلت في حديقة المدرسة قبل أسبوعين تقريبًا، ولكن هذه المرة لا تبدو كإيماءة عاطفية أو محاولة للسيطرة، بل تجربة لاختبار نبض الحياة فيه.

– هل يمكنك أن تنتظر هنا؟

t.me/yasmeenbook

يجيب أندرو واقفًا خلفها بين كيس بول أصفر ومعلق محاليل: «بالتأكيد». على وجهه نظرة حائرة كأنه لا يعرف ماذا عليه أن يفعل. زار جوناثان الجناح هذا الصباح، وذهب الرجلان بعدها لتناول القهوة في الكافتيريا في الطابق السفلي. عندما نزلت جينيفر بحثًا عنهما، رأت جوناثان يحمل بيد واحدة فطيرة من اللحم لم تُمَسّ، وكان يبكي كما لو أن شيئًا بداخله قد تحطم ولم يعد صالحًا للعمل. كان أندرو ينظر إلى ما حوله بحذر، وعلى استعداد لمهاجمة أي شخص يأتي لمقاطعة حزن الأب. لم تصدق جينيفر قط أن جوناثان يملك مشاعر صادقة كتلك التي تراها، وانسحبت قبل أن يلاحظها أندرو، وشعرت بالخبث والقسوة، شعرت بإحساس القاتل. عندما عاد إليها أندرو في وحدة العناية المركزة بعد ساعة، كان وحده، بينما قد رحل جوناثان، ولم يعد أيٌّ منهما إلى ذكر سيرته.

يسأل أندرو: «ماذا ستخبرين إيما؟»

- الحقيقة.

أومأ أندرو برأسه، وجلس على الكرسي الذي كان جوناثان يشغله من قبل، مُتَحَفِّزًا مثل رجل في غرفة انتظار الطبيب، متوقعًا في أي لحظة أن يتم استدعاؤه. لو كانت هناك مجلة ما حوله، ربما كان سيحاول تجاهل الأمر بها، ولكن ليس هناك ما يفعله سوى البقاء هناك حتى يرفع عنه أحد حِملَ المهمة.

بينما تشعل جينيفر سيجارة وتتجه نحو السيارة، تشعر بأنها غير مرئية في هذه الليلة المرهقة. ومع ذلك، فإن مشاعرها ليست ذات أهمية، فعندما ينطفئ ضوء جوليان الصغير أخيرًا، فهي تعلم جيدًا أن حزنها سيمر دون أن يلاحظه أحد. البشرية جمعاء ليست سوى بضع رقائق من الذهب، إذا فُرِزَت وجُمِعَت فلن تُكَوِّنَ أكثر من كتلة صلبة صغيرة الحجم، حبة بازلاء ذهبية لا تُشَكِّلُ فرقًا حقيقيًّا في العالم الواسع. تبدو الطرق إلى منزل إيما –المصطفة فيها الأشجار– مهجورة وحزينة أكثر من المعتاد، لأنها تعلم أن جوليان لن يمر منها مرة أخرى. كان لجينيفر خطط لممارسة الحياة عندما وُلِدَ جوليان، خطط للصبي، ولنفسها، وللعائلة، ولحياتهما الطويلة معًا، ولكنها قد دَمَّرَت كل شيء، لأن هذا هو دائمًا ما تفعله. لا تزال تفكر في قطرة الدم التي سقطت من أنف جوليان خلف حديقة الورد. كانت تلك اللحظة التي بدأ فيها نهر

t.me/yasmeenbook

الدماء، كانت تلك اللحظة التي بدأ فيها هذا الكابوس بأكمله. أم إن الأمر قد بدأ قبل ذلك؟ هل كانت البداية في اللحظة التي قررت فيها إغواء جون هاملتون براون؟ لأنها إن أرادت مواجهة الحقيقة، فستعلم أن هناك لحظة قد مرت على جون تردد فيها قبل بداية العلاقة بينهما. نظر جون إلى ما حوله كما لو كان يتوقع أن وجودها في الغرفة مزحة ثقيلة، مُتَخَيِّلًا أن أسرته ستظهر من وراء الستارة صارخة: «مفاجأة!» ولكن اتضح بعد ذلك أنه لم يكن هناك سواه وجينيفر في الغرفة، وأن جينيفر كانت تعرض نفسها بطريقة لم تتمكن أختها من فعلها. حتى دخول ابنته إلى الغرفة بعدها بقليل كان من ترتيب جينيفر. لم تكن قد أغلقت الباب من الداخل كما قالت. كان أندرو سيحلل الموقف نفسيًّا ليخبرها أنها لم تغلق الباب لأنها بشكل ما، وحتى عندما أرادت أن تخدع الجميع، أرادت أن يُقبَضَ عليها. ولكن هل كانت جينيفر مسؤولة أيضًا عن الحادث في اليوم التالي؟ هل طلب جون من ابنته الجلوس بجانبه في المقدمة لأنه كان يحاول تعويضها؟ وأن يظهر لها أنها –على الرغم مما شهدته– لا تزال غالية عنده؟ هل كان جون عازمًا على إصلاح الأمور مع عائلته لدرجة أنه لم يكن ينتبه جيدًا إلى الطريق؟ ربما لم ينم طوال الليلة السابقة، أو ربما كان يتجادل مع زوجته، ولهذا السبب كان مُشَتَّتًا للغاية لدرجة أنه لم يلاحظ اقتراب الشاحنة في مواجهته؟ كل هذا الكم من الموت والدمار كان بسبب جينيفر؟ ما مقدار اللوم الذي يمكن لشخص واحد أن يتحمله؟ تقف سيارة إيما بزاوية غير عادية أمام البيت الأبيض. لا يزال الضوء الداخلي لسيارتها مُضَاءً لأن إيما لم تغلق الباب بشكل صحيح. هذه هي إيما. في يوم عادي، وفي واحدة من أكثر المُدُنِ عُنفًا في العالم، ستنسى إيما بالطبع قفل واحد على الأقل، حتى الباب الأحمر، الذي لا يصمد أحيانًا أمام دفعة بسيطة من قدم جينيفر. جميع نوافذ المنزل مظلمة. عند وصول إيما إلى المنزل، تذهب مباشرة إلى الاستوديو في الخلف؛ الغرفة التي كانت تعيش فيها خلال الأيام العديدة الماضية، وتعيش على تناول الشاي والوجبات الخفيفة بين رحلات حَجِّها إلى المستشفى.

إذا لم تكن جينيفر تمدها بالبسكويت وشرائح الجبن الرقيقة، ما كانت إيما لتأكل على الإطلاق. تجلس إيما بثبات على أحد الكراسي القديمة في غرفة الجلوس في منزل جراهامستاون. على الكرسي ترقد ملاءة ملطخة

t.me/yasmeenbook

بكميات من الطين والطلاء الزيتي تَكَوَّنت عبر سنوات ماضية. ترتدي إيما الفستان القطني نفسه منذ الأمس، وذراعاها مُلَقَاتان بلا فائدة على جانبيها. ربما جلست هنا قبل لحظة، وربما جلست هنا ساعات. هناك صوت مرتفع في الغرفة، ويستغرق الأمر من جينيفر ثواني لتحديد السبب؛ إنه ذلك اليربوع الصغير الذي يتَخَبَّط في وعاء ملآن بالبذور والمكسرات ونشارة الخشب في قفصه. تنتشر في جميع أنحاء الغرفة مجسمات ملفوفة بملاءات مبللة وشرائح من الشريط اللاصق، مما يعطي الغرفة رائحة قاع خانق. لطالما أحاطت إيما نفسها بجيوش مماثلة؛ مجموعة كاملة من الملائكة الخيالية، كما لو أن وجودها في العالم لا يكفي، حتى عندما وُلِدَت جوليان، لم يكن ذلك كافيًا، وأصبح مجرد جزء آخر من حاشيتها. والآن، ما الذي تبقى لها؟ غرفة ملآنة بالمخلوقات المشوهة، الوحشية، عمياء تتحسس من حولها بصمت. تدخل جينيفر إلى الغرفة الباردة، التي تُرِكَ بابها الزجاجي مفتوحًا. في جوهانسبرج، حتى الهواء يمكن أن يشعرك بخطر عظيم.

- إيما، حبيبتي.

تنتفض إيما كأن أحدهم قد فاجأها بينما تفعل أمرًا شائنًا يدينها، ولكنها مع هذا لا تلتفت إلى ناحية جينيفر. تبدو أنحف مما كانت عليه أيام دراستها في لندن، كما لو أن طفلًا لم يمر قط في رحمها.

قالت جينيفر بصوت قوي: «قالوا إنكِ عُدتِ إلى المنزل». تتقدم بعدها وتعانق أختها، في محاولة للحصول على نوع من الاستجابة منها، ولكن إيما تقف هناك مثل غريبة في منزلها، يحتضنها شخص لا تعرفه. تضيف جينيفر: «طلبت من أندرو البقاء في المستشفى. في حالة حدثت أي تطورات».

لا تعرف جينيفر كيف تخبر أختها بما قالته الممرضة: إن لم تتحسَّن الحالة حتى الصباح فسيقترح الأطباء على الأسرة وقف أجهزة دعم الحياة. على مدار الأيام الماضية، صَرَّف الأطباء السوائل الزائدة من دماغ جوليان، وانتظروا زوال التورم. كانوا يأملون في أن يحدث هذا أي تغيير في حالته، ولكن خاب أملهم. لا تزال الآلات تقوم بمعظم عملية التنفس بدلًا عنه، كما إن ردود أفعاله الحركية –مثل التقيؤ وحركة حدقة العين– إما متأخرة وإما غير موجودة. تتحرك جينيفر نحو الخزانة حيث تخزن إيما زجاجات النبيذ.

t.me/yasmeenbook

عندما تأتي جينيفر إلى المنزل للحصول على كأس أو اثنتين من النبيذ فإنها ستحضر معها زجاجة جيدة من بينوت نوير. لم يكن لدى إيما أي فكرة عن النبيذ مطلقًا.

- كان الممرض نفسه مناوبًا في المستشفى هذه الليلة.

- فعلًا؟

- كان هو الذي سمع الأطباء يتحدثون عن إيقاف الآلات. بدا مُهتَمًّا جدًّا ولطيفًا جدًّا. قال إن علينا أن نصلي معًا. هل تعرفين ماذا قال أيضًا؟ قال إنه حتى الآلات تأتمر بأمر الله.

أحبت جينيفر هذه الفكرة «حتى الآلات تأتمر بأمر الله». ولكن إذا كان هذا صحيحًا، فإن كل شيء آخر يأتي أيضًا من الله: برج الكنيسة الذي سقط جوليان منه، والدَرَج الذي كسر رأسه مثل الجوزة، والخالة الغادرة المبتسمة التي أرسلته إلى هناك في المقام الأول.

- وهل صليتما معا؟

- نعم، فعلنا.

كانت جينيفر تكذب. جلست هناك ورأسُها مُنحَنٍ مثل عم هاملت، تتخبط بين مشاعرها، وكلماتها تتطاير كالحمام الزاجل، وإنما دون رسائل على أرجله الصغيرة المصنوعة من الجلد.

- ولكنكِ لا تؤمنين بأثر الصلاة.

- على الأقل آمن بها المُمَرِّض. (ابتسمت جينيفر) بدا ذلك حينها كافيًا لإتمام الصلاة.

ليس لدى جينيفر أي فكرة عَمَّن تكون الآن، أو عن الطريقة التي تظهر بها أمام الجميع الآن، أو كيف يمكن أن تظهر. من حسن الحظ أن إيما شاردة برعبها، حتى إنها عَميَت عن رؤية الشرير الجالس بصحبتها، الذي يتجَلَّى الشعور بالذنب في كل كلمة وإيماءة تصدر منه. تخرج جينيفر زجاجة من بينوت نوير، وتنفض الغبار عن الأكواب وتسكب كوبًا لكل منهما. تمنح نفسها قدرًا أكثر قليلًا لأنها تعرف أن إيما بالكاد ستتذوق المشروب.

- هل أكلتِ؟

t.me/yasmeenbook

- تناولتُ فطيرة لحم.

تعتقد جينيفر أن عليهما تناول الخبز مع النبيذ، الطقوس الأخيرة، عليهما أن تأكلا جسد جوليان وتشربا دمه المسفوك في سبيل أن تُغفَرَ ذنوبهما، عليهما أن تفعلا هذا لتتذكراه.

- آمل أنكِ سترتاحين قليلًا عندما أرحل.

- سأنام قليلًا.

تتجرع جينيفر المزيد من النبيذ. ربما لا ينبغي لها أن تخبر إيما بما سمعه الممرض. ماذا لو أخطأ الممرض بشأن ما سمعه؟ ماذا لو كان الأطباء حينها يناقشون بالفعل مريضًا آخر؟

لو كانت جينيفر شخصًا لطيفًا، ربما كانت ستترك إيما تنعم ببعض السلام. ولكنها كانت تفكر طوال الطريق في هذا النبيذ بالذات، وتريد أن تشرب كأسها بالكامل قبل ذهابها.

- صار يبدو كطفل صغير مرة أخرى بعد أن قصوا شعره كله. هل تتذكرين تلك النظارات التي أعطيته إياها حين ذهبنا إلى تلك العطلة في آمهالانجا روكس؟ لم يكن يريد أن يخلعها قط.

يدخل شبح جون هاملتون براون إلى الغرفة الآن. تقف بجواره طفلة ميتة، طفلة أخرى راحت مُخَلِّفَةً حياة طويلة كانت تنتظرها. قريبًا سينضم إليهما جوليان. سيشكلون ثُلاثيًّا مرعبًا، يرافق جينيفر أينما ذهبت. كان شكسبير على حق؛ ذنوبنا تسافر معنا في صورة أشباح. إنهم تجسيد لشعورنا بالذنب، يحدقون إلينا بأعين لؤلؤية.

تقول إيما: «لم تعجبني الزاوية التي ترقد بها قدمه. الطريقة التي تلتوي بها تحته، مثل أولئك المتسولين عند إشارات المرور متظاهرين بالتشنج».

هناك بعض القسوة تقطر من حديث أختها، تدرك جينيفر أن ذلك تأثيرها هي. هل من الممكن أن يكون حادث جوليان قد غير أدوارهما أخيرًا؟ ستصبح جينيفر أكثر سلامًا، وسترث إيما عنف أختها. ليس لدى جينيفر فكرة عن الوضع الآخر، حين تكون هي الطرف الآخر متلقي العنف. بينما تعرف إيما هذا الوضع جيدًا، وأندرو، وكذلك جوليان.

t.me/yasmeenbook

«ضع ضمادة على السكين وليس الجرح». تتذكر أنها قرأت تلك العبارة على بوابة معرض للفنون منذ أيام.

تسأل إيما: «هل تعتقدين أن جزءًا منه يعرف أنه يحتضر؟»

تستدير جينيفر بعيدًا حتى لا ترى إيما الإجابة تحترق بداخلها. ربما كانت هذه فرصتها للاعتراف بالذنب وإخبار أختها بكل ما هي عليه، وكل ما فعلته. طعم النبيذ مثل الاعتراف، قد يخفف لسانها. دم جوليان يملأ فمها، إلا إنه حلو بلا ملح. إذا فتحت فمها للتحدث، فسيحتار لسانها الملطخ بطعم الدم إلى أين يذهب. لطالما تحدثت إلى نفسها بهذا الصوت المزدوج. لا تعرف متى بدأ فيها ولا لماذا. ربما هذا أمر نما فيها مع حمضها النووي، هذا الاقتران الشرير، حيث كل إيماءة اتجاه الحياة يشع الموت منها، وخلف كل نذر تقبع خيانة. تتذكر أيام دراستها، عندما أخبرهما أندرو عن ثاناتوس، إله الموت، الذي يمر عبر حياتنا جنبًا إلى جنب مع إيروس، إله الحياة. لطالما أرادت جينيفر إعادة المادة العضوية إلى حالتها الأصلية غير العضوية. بدت الحياة على الأرض أسهل كثيرًا بهذه الطريقة.

تقول إيما متفاعلة فيما يبدو مع طاقة الندم التي تنتشر في الغرفة بسبب جينيفر: «لطالما عامَلتِني بلُطفٍ يا جينيفر، كان عليَّ أن أشكركِ منذ وقت بعيد».

على المرآة المُعَلَّقة على الحائط، ربما رأت إيما انعكاس حزن جينيفر وأساءت فهمه. ولكن جينيفر تعرف أن المرأة الحزينة المترنحة هي محتالة تختفي ثم تعاود الظهور مُتَلَبِّسَةً الوجه الذي كان يومًا صادقًا. تبتلع المزيد من الخمر في محاولة لتخدير لسان الحية.

الاعتراف أمرٌ في غاية الأنانية، أن تلقي عبء الذنب على عاتق شخص آخر. وحده الله –القادر على كل شيء– يمكنه أن يقبل منها الاعتراف.

- لم يكن لجوليان أن يتمنى خالة تُحِبُّه أكثر مما فَعَلتِ.

- أنتِ تعرفين كم أحببته.

هناك شيء ما يتعلق بمذاق النبيذ على لسانها، والشعور بنهاية وشيكة، يُحَفِّزُ فيها مجددًا الرغبة في الاعتراف. إذا كانت الليلة هي الليلة التي سيتوقف

t.me/yasmeenbook

فيها كل شيء، فربما كان من الأفضل القيام بذلك بشكل صحيح لقتل كل شيء الآن، بعد أن قرر الأطباء أن جوليان قد مات.

- لقد خَذلتُه.

- لقد بَذَلتِ قصارى جهدك.

سكبت جينيفر المزيد من النبيذ وازدردته على الفور.

- ولكنه لم يكن كافيًا قط، أليس كذلك؟

سيكون من السهل ترك إيما تلوم نفسها، سيكون الأمر سهلًا للغاية، ولكن جينيفر لم تعد تستحق حياة سهلة. إذا أرادت أن تعيش بعد كل هذا، فعليها أن تُكَفِّرَ كل يوم تعيشه عن ذنوبها. حتى إنْ كان هذا يعني أنها ستضطر أيضًا إلى خسارة أختها، فهذا هو الثمن الذي يتعين عليها دفعه. ألم تفقد أختها منذ سنوات عديدة على أي حال؟ لم تستطع أن تحب أحدًا طوال تلك السنوات إلا بقلبها المنقسم إلى نصفين، تمامًا كما لسانها الحائر، مُخَلِّفَةً انقسامات وفراقًا وراءها دائمًا.

- تعرفين أن كل هذا بسببي. أنا من تسبب في ذلك. قبل أن يسقط من ذلك البرج، تشاجرنا. لقد وصفني بالعاهرة الكاذبة.

- أنا آسفة.

- ألقى باللوم عليَّ لوفاة كلاريسا. كان يعتقد أنني كنت أنام مع والد الفتاة. كان يعتقد أنه رآني، معه في السرير.

- وبماذا أخبَرتِه؟

- أخبرته أنه أنتِ من كنتِ في الغرفة مع جون.

في الماضي، ربما كانت جينيفر ستغضب من تصريح إيما بالأمر، ولكنها الآن تشعر ببعض الارتياح بكون بعض اللوم يقع عليها، بطريقة تهوِّنُ على إيما شعورها بالذنب. ربما كان هذا وقتًا مناسبًا لجوليان ليتعرَّف إلى شخصيتها الحقيقية مثل عنكبوتٍ سام.

تواصل إيما: «ولكنني أشكُّ في أنه صدقني. ربما اعتقد أنها مجرد كذبة أخرى. وكان هذا آخر ما قاله لي قبل أن يتسلق ذلك البرج ويقرر القفز».

- أنا آسفة جدًّا يا إيما.

t.me/yasmeenbook

- أعرف.

- ولكن ليس لدينا أي فكرة عما حدث، أو ما كان يفكر فيه جوليان. ليس لدينا أي فكرة عما إذا كان قد سقط أو قرر القفز. الفتاة التي رأت الحادثة قالت إن الجميع قد فَسَّر الأمر على نحو خاطئ، بينما تقولين أنتِ إنه كان مقصودًا. ولكن الحقيقة هي أنه من المستحيل معرفة ذلك. ألم يُقَل لنا نقلًا عن أرسطو إنه ينبغي الحكم علينا من أفعالنا؟ إنه من خلال أفعالنا في العالم نحدد من نحن؟ ولكن كيف لنا أن نعرف ما هو الفعل أو من هو الشخص إذا لم يكن لدينا طريق لاكتشاف نياته؟ إذا قام شخص بعمل صالح، فكيف نعرف أن نياته كانت حسنة؟ ماذا لو كان يفعل هذا الشيء فقط رغبة في إخفاء نياته الشريرة؟

تنظر إليها إيما بصبرٍ نافد، ولا شك أنها ليست في حالة مزاجية لإحدى محاضراتها.

- ليست لدي فكرة.

لقد تمَكَّن النبيذ من جينيفر بالفعل، ولكنها على كل حال سكبت لنفسها كأسًا أخرى.

- كل ما أقوله هو من يدري ما الذي حدث بالفعل مع جوليان؟ من قال إنه كان ينوي السقوط على الإطلاق؟ ناهيك بالانتحار؟

- أتمنى ألا تسوء الأمور عن هذا الحد.

- آسفة يا حبيبتي، ولكن يجب أن تعرفي.

- ماذا تعنين؟

- سيقترح الأطباء عليكِ في الصباح إيقاف أجهزة دعم الحياة.

- سيمكنه إذن التنفس بنفسه؟ مقاتلًا حتى يعود إلينا؟

- لا يا إيما، أعتقد أن الوقت قد حان لنقبل الحقيقة، لن يعود جوليان.

- ماذا تقولين؟

- أقول إننا في حاجة إلى أن نترك جوليان يرحل بسلام.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل الثالث عشر

الضوء المتقطع

إيما - جوهانسبرج

تخرج إيما مندفعة عبر الباب الأحمر إلى الشارع، حيث لا يوجد شيء سوى صف من المصابيح الميتة والأشجار المحتضرة، وضوء وامض على قمة التل، كما لو أن نجمًا فضيًّا قد سقط هناك مُجتَرًّا نوره من منزل قريب. ركضت إيما نحو الضوء المتقطع، بعيدًا عن المنزل المظلم، حيث تقف أختها هناك تنادي اسمها.

- إيما! إيما! إيما!

إيما التي تقف ساكنة كحجر أُسقِطَ في نهر أسود، ينشَقُّ أمامها ويسحبها إلى الأعماق. تعبر بجوار النجم الساقط وتنزل من التل نحو المدينة. على البعد يقف برج كالصاروخ الفضائي يستعد للإقلاع، ينبض على واجهته وميض أحمر بطيء. تركض إيما نحوه، على أمل أن يمنحها فرصة للهروب خارج المجرة.

- إيما!

ضاع صوت أختها خلف التل حيث تركتها. يأخذها النهر عبر المنازل، والشوارع التي لم تلاحظها قبلها قط، عبر الأشجار التي تتوالى كجسد ثعبان على طول الشاطئ. يندفع صوت الماء في أذنيها، داخل رأسها، كما لو كان

t.me/yasmeenbook

تيارًا أسود يرغب في سحبها حتى جذور الأرض تحته. ينبض قلبها مثل طبلة كبيرة داخل صدرها، وفي كل مكان تذهب إليه تترك وراءها عويلًا، نوعًا من العواء يأتي من مكان آخر تبذل قصارى جهدها لتتركه وراءها.

- إيما!

يأخذها طريق النهر مارة من تحت الجسور، مرورًا بنوافذ المتاجر حيث تنتظر الفساتين وصول الأجساد إليها، وتنتظر الأحذية حتى تتسلل إليها الأقدام، وتنتظر الكاميرات عينًا لتعيدها إلى الحياة، ولكن كل ما تبقى من المدينة حقًّا أمامها هو هذا النهر الذي يجري خلالها، هذه المدينة الجافة المهجورة التي لم تشهد نهرًا فعليًّا من قبل.

- إي ما!

تصل إلى الكنيسة التي تعرضت نوافذها للتخريب. أعلاها ينبض البرج في المكان الذي كان الجرس يوجد فيه. هنا أصبحت المباني عمياء وخطيرة، وخَفَّ توالي الأشجار المحتضرة، وتحولت إلى مصابيح الشوارع التي تخلى كل منها عن ضوئه. كانت ساقاها تسيران في عالم يقف أمامها صامتًا فارغًا وتائهًا.

- أمّ ماه!

تتوقف. فقط لأن النهر يتوقف، ولم يعد نهرًا. ليس أمامها سوى سياج من الأسلاك الشائكة وحقل ضخم يرتفع خلفه، وهي معلقة على السياج مثل قطعة من الغسيل ترفرف لاهثة في حاجة إلى هواء. تثني فتحة في السياج لتمرَّ عبرها، وقدماها بلا حذاء، ويبدو أنها تنزف، ولكنها لم تعد تشعر بأي شيء.

- ما ما.

يتزايد الضوء مع صعودها، وتخوض في القمامة، وقطع من الخرسانة، وإطار جرار كبير تتسلقه حتى تصل إلى القمة. وعندما تصل إلى قمة كومة الأنقاض، لا تجد النجم الساقط، ولكن لهبًا صغيرًا يلمع عبر علبة من القصدير، وبعض الرجال متحلقين حوله طلبًا للدفء.

- أمّ ماه. أمّ اه.

t.me/yasmeenbook

فوق الكومة، يقف البرج مثل ذلك الصاروخ من تان تان، وتتذكر الصبي الذي أخبر أمه قبل وفاته أنه ينوي قراءة جميع كتب تان تان بالفرنسية.

- أما.

لا يلتفت الرجال إليها، فهي ليست أكثر من شائعة عن امرأة، أمّ شبحية على تلة قبرها. لذا تتسلق عبر شجيرات مزهرة، ومرورًا بحافلة محترقة نمت حشائش متسلقة داخل غطاء مُحَرِّكها واستوطنت، ودارت حول مرحاض قديم من العصر الفيكتوري مغطى بملاءات بلاستيكية، بالقرب من نافذة مُضَاءة بشكل خافت.

من داخل الغرفة تسمع صوت طفل، ولكنها لا تتوقف للتفكير في ذلك. تصل إلى حقلٍ صغير من الأكياس المتكدسة، وأكياس القمامة المستديرة. تقف متسائلة كيف تجد طريقها فوقها أو حولها. فقط عندما يتحرك أحدهم ويمد يدًا تلامس كاحلها تدرك حينها أن هذا ليس مكبًّا للقمامة، بل تَجَمُّعَ أجساد بشرية تتشابك طلبًا للدفء، أو للأمان بين الجماعة. تُفَكِّرُ أنهم جميعًا بلا مأوى في العالم: رجال فقدوا زوجاتهم، وأمهات فقدن أطفالهن، وأطفال فقدوا كل طريق إلى المنزل.

- أمي؟

تستدير لتجد شبحًا يرتدي معطفًا طويلًا ممزقًا، تلمع لحيته الثلجية في ضوء النار، وتعاني عيناه من الروماتيزم في أثر تقدم العمر، أو ربما من أثر الشراب.

- موري كويتي بانو؟ [1]

تضع إصبعها على شفتيها غير راغبة في أن تنتبه إليها الأجساد النائمة، فربما إذا استيقظوا واكتشفوها تسلقوا فوق بعضهم بعضًا للوصول إليها، لتُدفَنَ بعدها تحت ثقل أجسادهم داخل قعر مظلم من المستحيل العودة منه إلى الأرض.

- موري باني نجودي! [2]

---

(1) «ماذا تفعلين هنا؟» باللغة السواحلية.

(2) «وجودك هنا خطر» باللغة السواحلية.

t.me/yasmeenbook

في كل مكان من حولهم تتزلزل الأرض. تنظر إيما إلى أعلى لترى الجسر الخرساني، حيث الحركة المرورية تنفكُّ وتضطرب. وجدت نفسها على حافة حفرة، مكان ربما مرت به في سيارتها مئات المرات من قبل بينما تستمع إلى الراديو مُحَفِّزًا ذكرياتها. لم تشكّ قط وقتها في وجود حفرة أسفلها، تحت لوحة الإعلانات التي تعلن عن مسحوق للغسيل، بحر من الجثث المتراكمة، جثث تتحرك.

- بان تشيتيكا كواموري؟ [1]

تهز إيما رأسها في حالة من عدم الفهم، وتبتعد عن الرجل والحفرة التي فاضت بأجساد البشر.

- مونوجارا كوبي؟ [2]

الآن فقط بدأت تشعر بالخوف. تعاود الجري مجددًا، نحو ظلام أعمق، حيث قعقعة الزجاجات تحت الأقدام، والأرض مخدوشة كجسد مريض جلدي، برائحة منتنة. ترى جثة كلب تعبر الطريق، أو ربما شيئًا أكثر رعبًا من كلب، جسد طفل مهجور يذوب في الأرض مثل بركة سوداء لزجة لأنه لا يوجد من يدفنها.

- أماه؟

تنتهي حدود الحقل فجأة عندما تصل إيما إلى ممر خرساني خافت الإضاءة، حيث يمكنها من خلاله سماع ثقل شاحنة عابرة. وتستمر في السير على طول سياج من الأسلاك الشائكة كأنه قد وُجِدَ هناك فقط ليحميها. يلتقطها السلك الشائك كما لو كان يحاول تنبيهها إلى أنها جسد من دم وأعصاب. كانت قد بدأت للتو الشعور بالراحة من ضربات الألم الصغيرة الحادة داخل قلبها عندما أفسح السياج الطريق لجسر معدني رفيع يوفر أملًا ضئيلًا في الهروب.

- أماه!

---

(1) «هل حدث لكِ شيء؟» باللغة السواحلية.

(2) «أين تعيشين؟» باللغة السواحلية.

t.me/yasmeenbook

ولكن الحقيقة لا تزال هناك، تُلَوِّح بذراعيها مثل فرع مكسور، ويبدو أنها تكتسب الطاقة للظهور إذ تشعر إيما أن الحياة تتسرب منها. عندما تعبر الجسر، تكشف عن نفسها لأول مرة فريسة. يتكاثف نوع من الرعب الحيواني داخل دمها. لقد سمعت كيف أن الحيوانات التي يتم اصطيادها في كالاهار تنتهي بها الحال مانحة الصياد نفسها أخيرًا، لأن كليهما –الصياد والطريدة– قد صارا جُزأين من الشيء ذاته، حيث يرغبان في الاتحاد معًا في النهاية، حيث لم يعد ممكنًا التمييز بين خَطَّي الحياة والموت.

- موسيندي إيكوكو! [1]

تتسلق الضفة حتى الجانب الآخر من الجسر، وتصل إلى طريق جديد يغوص في متاهة من المباني المكتبية الشاغرة. أصبح البرج الذي تقصده أقرب، ولكنها لا تزال لا تراه من حيث تقف. لمع في عينيها ضوء أزرق ووميض أحمر، هكذا تعلم أنها وصلت.

- أوناتاكا كويندا وابي؟ [2]

تعبر إلى زقاق حيث تنطلق الموسيقى من قبوٍ خفي. تُحَوِّلُ طريقها إلى شارع جانبي لتتفاداه، وتعرج في مشيتها تحت أنظار الصياد الإفريقي الذي يحادثها بلغته، وقدماها متورمتان وثقيلتان تنزفان، ولكن الألم يتدفق داخلها وكأنه أغنية، أغنية ناعمة قد ترسلها إلى النوم. وميضٌ من ضوء آخر. تستخدم ما تبقى من إرادتها للوصول إلى وجهتها. أخيرًا هي في ساحة المدينة المألوفة، حيث يوجد مبنى جميل يعود إلى جوهانسبرج القديمة. تحته ترى حصانًا وعربة تنتظرها تحت ضوء المصباح. ربما كان هذا كله مجرد حلم. تسير نحو العربة وهي ترجح النظرية الأخيرة، الوهم، إذا استطاعت الوصول إلى العربة، استجمعت شتات أمرها وقادتها بعيدًا عن هنا. حيث تصل، سيكون هناك زوجٌ طيِّب في انتظارها يفتح لها باب العربة، وستكون هناك بأمان، ولن يكون ابنها مستلقيًا على سرير بعد الآن مع الأنابيب التي تمتص الحياة منه وتقوم بعملية التنفس بدلًا عنه.

---

(1) «أين يقع منزلك؟» باللغة السواحلية.

(2) «إلى أين تريدين الذهاب؟» باللغة السواحلية.

t.me/yasmeenbook

- ماما!

تستدير وترى أن هناك رجلًا آخر يقترب منها. ربما خرج سائق العربة بحثًا عنها. أين كانت كل هذا الوقت؟ تتساءل. في المنزل القديم الكبير الذي ستقود العربة إليه، لا بد أن زوجها يجلس قلقًا عليها، من حوله أطفالهما حول نيران المدفأة في انتظار عودة أمهم إلى المنزل.

- هل أنت سائقي؟

تقف مبتسمة للرجل أمامها، سعيدة بالفرار من الرجل خلفها بثرثرته التي تعلم أنها لا تفهمها، ولكنها تشعر بأنه لا بد أن أحكامًا ظالمة قد أطلقها عليها.

- أماه؟

ولكن مع اقتراب الشاب، رأت أنه يرتدي ما هو أكثر بقليل من خِرَق مُرَقَّعة. وعندما عادت إلى الوراء لتنظر إلى المبنى القديم الكبير والعربة في ضوء المصباح، رأت أن المبنى نصف منهار، وأن العربة مجرد كومة من الصناديق المهجورة، مع بعض الأشخاص اليائسين يفرزونها، ويتشكلون في مجموعة بدت من بعيد كهيئة حصان.

- أين أنا؟

- أونافانيا نيني هابا؟ [1]

- لا أفهم شيئًا.

- وابي واتو واكو؟ [2]

- ألا يمكنك التحدث بالإنجليزية فَضلًا؟

- أوناتاكا كويندا وابي؟ [3]

تهزُّ رأسها في يأس، وترى صيادها الملتحي يقترب.

- أماه؟

---

(1) «ما الذي تفعلينه هنا؟» باللغة السواحلية.

(2) «أين أهلك؟» باللغة السواحلية.

(3) «إلى أين تريدين الذهاب؟» باللغة السواحلية.

t.me/yasmeenbook

- هل هذه هي النهاية؟

- ماما!

- أين ملاكها الآن؟

- آماااااا!

من مسافة بعيدة، تسمع صفارة إنذار الشرطة تتجول في المدينة، مسرعة لتحتوي أزمة أخرى بعيدة. ولكنها عندما تقترب من الرصيف تدرك أن صوت الصافرة يأتي من داخل عقلها الذي انهار أخيرًا.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل الرابع عشر

طيور الدودو زرقاء اللون

أندرو - موريشيوس

مَرَّت بالجزيرة عاصفة استمرت الليل بطوله. وتمايلت أشجار النخيل حتى الشرفة، واقترب البحر حتى حدود غرفتهما، ولمع البرق على جسديهما وقد أكسبهما هيئة جديدة لحظة. أمضى أندرو الساعات الأولى في الاستماع إلى أنفاس زوجته الثملة. يتفاجأ دائمًا بمرونة جسم الإنسان. وطريقته في استهلاك الطعام والشراب، ومنحنا الهواء والدماء الجارية في عروقنا، وإخراج السموم، والحفاظ على حياتنا على الرغم من كل جهد نبذله لإفنائه. ركلت جينيفر الفراش بعيدًا بينما هي مستلقية على ظهرها. تشخر قليلًا. ما تبقى من شعرها منتشر عبر الوسادة كما لو أن شخصًا ما قد رتب حالها لتنال إعجاب الجميع في جنازتها راقدة في التابوت. ترتدي جينيفر قميص نوم قطنيًّا فضفاضًا مُطَرَّزًا قد اشتراه لها أندرو من متجر القرية في صباح يومهما الأول على الجزيرة. على الرغم من أن تكييف الغرفة كان يعمل، ظَلَّت تتعرق طوال الليل. وتخيل أندرو أن الحمى قد حضرت بحثًا عنهما خلال العاصفة، في صحبة بعض من الكارما التي أرسلها أحد الآلهة الهندوسية في الجزيرة. ما أيقظه كان حلمًا، رأى فيه جينيفر حاملًا. لم يعرف لمن كان الطفل في بطنها داخل الحلم. لا يمكن أن يكون طفله، ولم يكن ليتجاهل احتمال أن تكون جينيفر قد حصلت على بذور الطفل من مصدر آخر. بفضل

t.me/yasmeenbook

إيما، يعلم بالفعل بشأن تلك الحادثة المُخزية بين جينيفر وجون هاملتون براون، ولكنه يتخيل أنها قد مارست الأمر ذاته من قبل بالطبع، ولكنها كما هي دائمًا، استطاعت أن تحتفظ بأمورها وأسرارها لنفسها. غالبًا ما تمنى أن تقابل رجلًا آخر، ربما يمنح ذاك كليهما فرصة أخرى في الحياة. بمرور الوقت أصبحت علاقتهما أشبه بعلاقته بمرضاه، يعيش بشكلٍ مستقلٍّ عنها، ويحافظ على وجودها في حياته بنفس درجة الصبر والرعاية. حتى إنه يمنحها السرية نفسها التي يمنحها مرضاه الآخرين. ما زال لم يفقد الأمل بعد في تحقيق أمنيته السابقة. يعلم أنه إذا ظل حاضرًا معها وأعطاها مساحة لحل الأمور في حياتها بنفسها فسوف تتركه يومًا ما عندما تجد في نفسها القوة الكافية. من حيث يرقد، يمكنه أن يرى البحر الفيروزي يتلألأ عبر أشجار النخيل. لا يفصله عنه سوى جزء من العشب المطاطي المسنن، ونافورة مهجورة بين غرفتهما والشاطئ. في الليلة السابقة، عندما غابت جينيفر بالفعل في النوم، انزلق بعيدًا عن سريرهما وذهب يستعين بدفء البحر. حدق إلى الطرف الجنوبي من البحر وتساءل عما إذا كان سيرى إيما مرة أخرى.

يسألها محاولًا إيقاظها: «هل أنتِ صاحية؟»

- هممممم.

تنزلق أصابعه تتلمس جسدها، لا تزال تمتلك جسدها الرشيق من أثر مداومتها على السباحة عندما كانت فتاة صغيرة. ما زالت نصف نائمة. ترفع وركها قليلًا، في إشارة إليه ليستمر. لم يكن قادرًا على فهم ما يحدث مؤخرًا، ولكن على مدار الأشهر القليلة الماضية، كان هو وجينيفر يمارسان الحب كل يوم تقريبًا، الروتين الذي فشلا في تحقيقه منذ بداية زواجهما. ومع ذلك، هو يعرف أنهما لا يمارسان الحب بالفعل، وإنما يستخدم كل منهما جسد الآخر لممارسة الحب. ربما كانت تلك طريقتهما في الانفصال. عبر تلاقي جسديهما، يمكن لكل منهما أن يصل إلى أعمق ما في ذاته، عمق أكبر من أن تستطيعه اللغة، هوية أفضل من شخصياتهما المخيبة للآمال.

- لا أريد أن أوذي الطفل.

- أي طفل؟

- حلمت أنك حامل.

t.me/yasmeenbook

- صبي أم بنت؟

- بنت. كانت بالتأكيد بنتًا.

كان الفندق فيما مضى ضخمًا جدًّا وفاخرًا، أما الآن، فقد يفيده بعض الترميم والدهانات. أما النُّدُل، فمن الهندوس، إلى جانب بعض الفرنسيين الذين ارتدوا وزرة بيضاء وشارات حمراء وطرابيش. تنفتح الأبواب المنزلقة المؤدية إلى الشرفة الخارجية لتكشف عن الشاطئ المُزَيَّن بالشعاب المرجانية البيضاء وصفاء البحر خلفه. كل صباح يتناول أندرو وجينيفر الإفطار على شرفة أسمنتية في ظل بعض أشجار النخيل الفخمة. البحر مزدحم اليوم: زوجان يغوصان على طول الحواف البعيدة للشعاب المرجانية، وزورق مطاطي يسحب رجلًا على الزلاجات المائية في أعقابه، وامرأة اضطرت إلى التَّمَسُّك بقبعتها جيدًا خوفًا من الرياح العالية، بينما تقترب من الماء مُلَوِّحَةً للزورق وكأنها ترغب أن يلتقطها عن الشاطئ وينقذها. يُحَضِّرُ أندرو بعض البيض المقلي والفطائر واللحم المقدد المقرمش وشراب الكراميل. توقف مؤخرًا عن القلق بشأن وزنه. فَكَّرَ أنه وإنْ تغيَّرَ محيط خصره قليلًا، فمن سيكون هناك لملاحظة ذلك؟

قال لجينيفر بينما يعود للجلوس في مقعده: «أعتقد أنني سأذهب للغطس».

- اعتقدتُ أننا نملك رأيًا معارضًا لفكرة الغطس.

- فَكَّرتُ أنه بما أنني هنا بالفعل فربما أُجَرِّب. هناك قارب ذو قاع زجاجي يتحرك من عند الرصيف في التاسعة.

- قاربٌ ذو قاع زجاجي؟ يبدو خطيرًا.

يعلم أن جينيفر ستُفَضِّلُ البقاء على الشاطئ مع كتابها وسجائرها. في الآونة الأخيرة لاحظ اهتمامها بالكتابة بشَغَفٍ شديد في أحد دفاترها السرية، التي تعتقد أنه لا يعرف عنها شيئًا. فتح هو أحدها بينما لم تكن في الجوار فاحصًا محتواه. وجد على إحدى الصفحات وصفًا لمشهد رجل وامرأة يمارسان الجنس تحت مروحة سقف في غرفة فندق ما. أغلق الكتاب حينها بقلق؛ لطالما كانت نسخ جينيفر المكتوبة عن الجنس تمنحه إحساسًا كابوسيًّا.

t.me/yasmeenbook

- أتعلم؟ أعتقد أنني سوف أنضم إليك. لطالما تساءلت عن تجربة الغطس وكيف ستكون.

يقول بحماس مُحَاوَلَةً لإخفاء خيبة أمله: «عظيم».

اتضح فيما بعد أن البحر هائج للغاية، بحيث سيصعب على القارب الزجاجي الإبحار فيه هذا اليوم؛ لذلك يقترح عليهما المرشد اصطحابهما إلى خليجٍ قريب حيث يمكنهما ممارسة الغطس من الشاطئ. تشكره جينيفر بلغتها الفرنسية البدائية –على الرغم من أن المرشد يتحدث الإنجليزية بشكل جيد– وتوافق على الرحلة فورًا نيابة عنهما. انطلقا مع المرشد بصحبة سائح ألماني حزين إلى شاطئ فندق لاند روفر، مَارِّين عبر حقل قصب السكر الذي يحيط بالفندق. رأى أندرو السائح الألماني من قبل. وصل الرجل في الليلة السابقة إلى الشاطئ مع ابنه، الذي كان في الثالثة من عمره وفاقدًا البصر. قاد الألماني الصبي إلى الماء بينما كان الطفل يتذمر، وأخبره أنه لا يريد السباحة. ظل الألماني يقول لابنه إنه سيحب الماء بمجرد أن يدخل إلى البحر، وظَلَّا فترة كل منهما يسحب الآخر في الاتجاه المضاد، حتى حمل الأب الطفل المنتحب وخاض معه في الماء. بمجرد أن أحاطت بهما تيارات البحر اللطيفة، أصدر الصبي أصوات هديلٍ طويلة، وبدا كل شيء على ما يُرام مرة أخرى. لم يذكر أندرو المشهد قط لجينيفر، إذ بدا مألوفًا بشدة. ذَكَّرَ الصبي أندرو كثيرًا بجوليان، الذي كان يشعر برعب من البحر منذ بكارة عهده. على أنهم لم يسبق أن حملوه وأجبروه على الدخول إلى الماء كما فعل الألماني. كان سيبدو أمرًا قاسيًا جدًّا في حينه. ومع ذلك، يظن أندرو أنه ربما كان عليهم أن يحتملوا صعوبة الأمر ليتغلبوا على رعب جوليان وتخليصه منه. لم يرمِ الرجل الألماني ابنه الأعمى في الماء، بل دخل إليه معه، وتمسك به حتى شعر الصبي بالجرأة الكافية للسباحة بحرية. يستقر المرشد في ظل شجرة التنوب، بينما يحاول ثلاثتهم ارتداء الأقنعة والزعانف الصفراء ويقفون مثل رواد الفضاء على الشاطئ. أصبحت المياه أكثر دفئًا مما كانت عليه في الليلة السابقة. وبمجرد أن تعلمت جينيفر كيفية التنفس وكيفية طرد المياه غير المرغوب فيها، بدأت تتبع الألماني في عمق البحر، مرورًا بالعوامات، غاطسة تحت الماء والشعاب المرجانية الميتة على سطحه نحو الشعاب المرجانية الحية

t.me/yasmeenbook

في الأعماق. أعطى المرشد أندرو عوامة برتقالية زاهية لتنبيه أي قوارب عابرة بوجودهما في الماء، ولَفَّ أندرو حبل النايلون حول معصمه. سبحت جينيفر أمام العوامة، وكان جسدها يرتجف كدجاجة مترددة. يتذكرها كما كانت في حلمه، ويفكر كيف كان الحمل يناسب جسدها. ربما كان الحمل سيساعدها في ترقيق روحها، أو في أن تصير المرأة التي ربما رغبت أن تكونها. تظهر الأسماك تدريجيًّا، وبعد ذلك بوقت قصير، يمكنهم رؤية المرجان الحي يزدهر من تحتهم. أخرج الألماني زجاجة بلاستيكية ملآنة بفتات الخبز وأفرغها في اتجاه التيار، وسرعان ما أصبح مُحَاطًا بسحابة متلألئة من الأسماك، مخططة بالأبيض والأسود، أو زرقاء ملكية ذات ذيول صفراء زاهية، أو فضية وبنفسجية بَرَّاقة. سبح أندرو وجينيفر معًا كما لو كانا في حلم. صارا فجأة في أرض بلا جاذبية، وفي غضون لحظات صارا يتحركان معًا كشيء واحد، ويتوازنان بمساعدة بعضهما بعضًا بينما يدوران حول أكوام المرجان. في مرحلة ما، تأخذ جينيفر العوامة بعيدًا عنه وتلفها حول معصمها بحيث لا تفصل بينهما. يواجهان سمكتين بلون الزبد، فيقرران ترك الألماني وراءهما، متتبعين السمكة في عمق الشعاب المرجانية.

يشعر أندرو بالفراغ المظلم الطويل للمساحة المائية الممتدة وراءه. يشعر أنه ممر متصل بالحياة بأكملها؛ الماضي والحاضر والمستقبل، يطوف هو وجينيفر معًا بداخله. يتعرف على عقدة صغيرة من الشفقة على حاله، إحساس صغير احتفظ به بداخله بهدوء طوال فترة زواجه، وتساءل عن إمكانية أن تذوب العقدة في هذا الماء، أم ستبقى هناك مثل الورم في انتظار أن تنفجر. عندما تنجرف الأسماك نحو ما يشبه صرحًا كبيرًا من الشعاب المرجانية تتشابك حوله الأعشاب، ينتهز أندرو وجينيفر الفرصة للصعود إلى السطح، لخلع الأقنعة والنظر إلى ما حولهما مستدركين موقعهما الحالي. يبعد الألماني مسافة عشرين ياردة فقط، يبدون كعشرين ميلًا. تضحك جينيفر باستمتاع منتشية بالحالة.

- الأمر أشبه بالطفو داخل نغمات أغنية.

يقول أندرو مُدرِكًا أنهما ربما وصلا إلى حالة تشبه السعادة: «يُسعِدُني أنكِ أحببتِ المكان هنا».

t.me/yasmeenbook

- تمنيتُ منذ سنوات زيارة المكان، بصحبة جوليان.

يوافقها: «نعم، لطالما تحدثتِ عن ذلك».

حتى ذكر اسم جوليان لم يكن ليفسد عليهما ما يشعران به الآن. تبدو ذِكراه بعيدة جدًّا، وقد صارا هنا الآن مُحاطَين بكل هذا الرخاء.

- أفكر أن كل هذا ظلَّ هنا في انتظار مجيئنا.

تضع ذراعيها حول رقبته وتُقَبِّله.

- أوه يا أندرو، شكرًا لك.

كان ملمس فمها لطيفًا ومالحًا كما المحار.

تقول جينيفر: «ربما علينا أن نغادر جوهانسبرج ونأتي لنعيش هنا».

- هل تعتقدين أنني سأجدُ أناسًا تُعَساء هنا بما يكفي لافتتاح عيادة؟

تقول: «على الأرجح لا». وتضحك.

قبل أن تفوتهما اللحظة، تضيف جينيفر: «تعال، لنستمر في طريقنا».

لاحظا عندها أن العوامة انفصلت عن معصمها وانجرفت بعيدًا. مسافة قصيرة قد سبحاها، بعيدًا عن الشاطئ. ينظر أندرو إلى الشاطئ ويرى أن الدليل لا يزال نائمًا تحت بستان التنوب. أما الألماني، فما زال راقدًا بجسده الطافي، بينما رأسه تحت المياه يراقب المكان من تحته بلا حركة كحيوان ميت.

- لا تتحركي من هنا.

- لن أفعل.

بحساب الرياح والتيار، يدرك أندرو أن العوامة تتحرك بعيدًا عنه بالسرعة نفسها التي يسبح بها نحوها؛ في كل مرة ينظر فيها إليها تظل العوامة في المكان الذي رآها فيه آخر مرة، كما لو أنه لا يتحرك إلى الأمام في الماء على الإطلاق. بعد عدة محاولات أخرى للسباحة بالوسيلة ذاتها، أدرك أنه عالق. لا يزال المد منخفضًا للغاية، وقد سبح حتى أعماق متاهة من المرجان. في كل مرة يعيد فيها رأسه إلى الماء بحثًا عن ممر ليخرج، يجد أن كل احتمال يقوده فقط إلى عمق المتاهة. وسرعان ما أصبحت العوامة أكبر بقليل من نقطة

t.me/yasmeenbook

برتقالية تطفو بين الأمواج. تقرر جينيفر إكمال خطتها في السباحة، على افتراضٍ ربما من حركاته المتعرجة أنه قد عاود الغطس. عندما ينادي اسمها على أمل أن يشرح لها ما يحدث، وربما ليطلب المساعدة، لا يبدو أنها تسمعه. انغمست جينيفر عميقًا داخل حلمها، نشيدها البحري الشعري، غافلة عنه وعن مأزقه. يعود إلى المتاهة محاولًا الخروج مُتَّبِعًا مسارًا آخر. يتجمع سربٌ من الأسماك السوداء حول رأسه. كان عليه أن يضع كفيه فوق حيوان إسفنجي نابض منفوش ليتحرك إلى الأمام، وسرعان ما خدشت أبراج المرجان يديه، وذراعيه، وركبتيه، وبطنه. يشعر باليأس، فيجلس، بينما تندفع الشعاب المرجانية تحته وتمزق سروال السباحة. ينزف في عدة أماكن الآن. أمرٌ مثيرٌ للسخرية؛ يقع الشاطئ على بعد مئة ياردة فقط. ليست المياه عميقة هنا، وإذا وقف بقدميه لامسًا عمق المحيط، ظلت رأسه فوق الماء. ومع ذلك، فهو عالق، مُحاطًا ببحر من المسامير. السبيل الوحيد للخروج هو انتظار ارتفاع المد، أما الحل البديل، فيكمن في محاولته تحرير نفسه عن طريق كسر المرجان، وبالتالي جرح نفسه أكثر. بدأت فكرة تلطيخ الماء بدمه تُقلِقُه. ألا تستطيع أسماك القرش أن تشم رائحة الدم على بعد ثلاثة أميال؟ لقد سمع إحصاءات حول هذا الأمر عدة مرات من قبل، ولم يفكر قط أنها ستنطبق عليه يومًا ما. إذا ارتفع منسوب المياه، أتت بالتأكيد أسماك القرش من أجله؟ تتآمر عزلة هذا المكان ضده، تلك التي كانت قبل لحظات فقط مصدر إعجاب شديد له. أي نوع من المرشدين ينام في مثل هذا الوقت؟ كان لا بد يعلم أن مستوى الماء منخفضٌ جدًّا؟ لماذا لم يحذرهما من السباحة مسافات طويلة مستخدمًا لغته الإنجليزية الممتازة؟ أما بالنسبة إلى الألماني، فهو لا يزال غافلًا، ولا شك أنه يركز على إيجاد طريقه للخروج من بؤسه. ولكن جينيفر هي أكثر من يُغضِبُه. لقد كان خطأها أنه تَعَرَّض لهذا الموقف في المقام الأول. كان الأمر مشابهًا تمامًا لطباعها؛ أن تخلق هذا السيناريو بأكمله ثم تتركه يتعامل مع العواقب. يستغرق الأمر عشر دقائق ليخرج من هناك. يعلم أن تكسير المرجان ممنوعٌ قانونًا، ولكن ماذا كان يُفتَرَضُ به أن يفعل؟ عليه أن يلجأ إلى ركل الأشياء أمامه ليتمكن من العبور. يشعر باشمئزاز. يعلم أنه داخل تلك الأغصان المتكلسة –التي قد تبدو جميلة عند النظر إليها عبر قارب ذي قاعٍ زجاجي– تعيش كائنات حية حقيقية تبرز أطرافها الريشية الطويلة في الليل

t.me/yasmeenbook

للبحث داخل التيار عن الطعام. ليست جميلة، في الواقع هي أشبه بالحشرة مئوية القوائم.

كل ما تقوله جينيفر عندما يصل إلى المياه الضحلة تاركًا غابة الشعاب المرجانية خلفه هو: «أهلًا!» كانت تتجول في البحر مع تعبير مرتاح على وجهها، مثل قديس مُرسَلٍ من السماء.

ولكنه حزينٌ وغاضب لدرجة أنه لا يستطيع الكلام.

تسأل عندما يصلان إلى الشاطئ: «ماذا حدث؟»

يقول بينما يسحب قدميه من الزعانف الصفراء: «عَلِقتُ». لاحَظَتْ حينها فقط الخدوش التي تحيط به، واختلاط الدم بالماء عليها.

- آسفة.

- حقًّا؟

- ماذا؟ هل هذا خطئي الآن؟

- بالطبع ليس خطأكِ. لا يكون الأمر خطأك أبدًا.

يمر بجوار دليلهما –الذي يبدو أنه راضٍ تمامًا عن قيلولته– ويذهب إلى السيارة.

يسأل عندما يعودان إلى الفندق: «لماذا جئنا بالضبط إلى هنا؟»

هما الآن راقدان بجانب المسبح تحت مظلة من القش، وقد طلب للتو كوكتيلًا ثانيًا لكل منهما. طلبت جينيفر أيضًا زجاجة أخرى من المياه المعدنية، التي لا يزيد سعرها على مئتي روبية.

تقول بينما تشعل سيجارة: «لأننا نستحق استراحة».

بينما كان لا يزال عالقًا في بحر المسامير، مُحاطًا بكل تلك الشعاب المرجانية، تذكر ذلك الحلم الذي حلم به جوليان؛ أغصان الشجيرات الملطخة بالدم، أشجارًا لا تختلف أبدًا عن المرجان الحي.

- فعلًا؟ هل نستحق فعلًا استراحة؟

في اليوم التالي يغمر الضباب الجزيرة بأكملها؛ لذلك يستقلّان سيارة أجرة إلى بورت لويس لاستكشاف السوق المحلية. عثرت جينيفر على طاولة شاغرة

t.me/yasmeenbook

على الجسر، وطلبت لنفسها زجاجة كاملة من chenin blanc. بينما كانت تدخن وتحدق إلى قوارب الصيد التي تأتي إلى الجزيرة على طول الطريق من الصين، يعبر أندرو طريقًا مزدحمًا ويتجه نحو مباني المدينة القديمة التي تضم السوق القديمة. يمر عبر مستودعات الجَزَّارين، حيث يُعَلِّق الباعة أجزاء من الماعز والأبقار والأغنام والخنازير على ألواح خرسانية. يلتصق الذباب الكبير بوجهه ولا يتزحزح، حتى عندما يُلَوِّح بيده محاولًا إبعاده، وعليه أن يغطي فمه لمنع نفسه من التقيؤ. بعدها يجد نفسه في مجموعة من المتاجر الملآنة بالملابس المزيفة، والمنسوجات المعقدة، والمجوهرات الرخيصة المصنوعة من المرجان والأصداف واللآلئ غير الأصلية. تبتسم النساء له، ويدفعن بضاعتهن اتجاهه، وبينما يحاول الابتسام مرة أخرى، تنطلق عقدة الشعور بالشفقة الذاتية التي لا تزال بداخله، ذلك الورم الصغير الذي قد نما الآن على اقتناع منه بأحقيته في الشفقة.

يعلم أن جينيفر لن تمر أبدًا بمحل الهدايا؛ لذا اشترى لها بعض المناديل، وقطعة قماش للمائدة المستديرة، والمزينة بنمط منسوج من طيور الدودو بدرجات مختلفة من اللون الأزرق متصاعدة نحو السماء. في طريق عودتهما إلى الفندق، توقف سائقهما عند معبد هندوسي مُحاط بمزرعة موز أخرى. في الواقع يميلان إلى استلطاف السائق؛ مُتَحَفِّظٌ هو مثلهما، ويبدو مسرورًا عندما يطلبان زيارة المعبد. على لوحة القيادة لديه أيقونات بلاستيكية لغانيشا [1] برأس فيل، وكذلك بارفاتي [2]، الأم الإلهية. يتدلى شريط أحمر طويل من الأجراس المصغرة ذات الألسنة المصنوعة من الرصاص من مرآة الرؤية الخلفية، ولكنها تظل صامتة طوال الرحلة. لا يوجد أشخاص آخرون في الجوار، ولكنهم يخلعون أحذيتهم على أي حال ويعبرون الممر الأسمنتي لفحص الآلهة والإلهات المُتقَنَة، بينما لم يجرؤوا تمامًا على الدخول إلى المعبد المظلم. إذا كانوا في كنيسة مسيحية، فربما تواتر إلى أذهانهم فرضية الدخول وإشعال شمعة من أجل الراحلين، ولكنهم ليسوا على دراية بهذا الدين لمعرفة كيفية الاقتراب منه. بدلًا عن ذلك، يقفون في الشمس مُرَبِّتين على ظهر كلبٍ

(1) أشهر الآلهة الهندوسية.

(2) بارفاتي هي زوجة الإله الهندوسي شيفا.

t.me/yasmeenbook

أصفر ضال، ويعودان بعدها إلى الفندق وهما يشعران بمزيد من الهدوء. في محاولة لإنهاء النزهة بلفتة سعيدة، يمنح أندرو السائق مبلغًا باهظًا إكرامية. باقتراب نهاية الأسبوع يزيد استرخاؤهما، ويستمتع كل منهما أكثر بصحبة نفسه. بعد الإفطار تجلس جينيفر في المسبح ومعها دفتر ملاحظاتها، بينما يذهب أندرو في نزهة يومية. يزور منارة شهيرة، وعقارًا أرستقراطيًّا مصنوعًا من الخشب، ويُجَرِّبُ التزلج الهوائي، والتجديف بالكاياك. وفي صباح أحد الأيام، يخوض تجربة سحبه بواسطة زورق سريع، حتى تتخدَّر مؤخرته تمامًا من شديد ارتطامها بالماء. يستغرق الأمر بعض الوقت حتى يفهم ما يحدث له؛ إنه يشعر وكأنه رجل مرة أخرى، ليس دخيلًا، وليس محللًا. ما يزال يمارس الغطس، النشاط الذي مارسه مرةً وحيدة مُشارِكًا جينيفر. هذه المرة يأخذ كل منهما زجاجة مياه معدنية مملوءة بالخبز، وينجرفان في اتجاهين متعاكسين مُحاطَين بمياه ضحلة تعجُّ بالأسماك. بعد الغداء بعد ظهر أحد الأيام، بينما كانت جينيفر تجلس مستلقية على ذراعه مُلَطَّخَةً بالرمال، أخبرته أن لديها اعترافًا. منذ أن راوده ذلك الحلم البعيد لم يتمكن من إخراج الفكرة من رأسه بأنها حامل، وقد توقع في أي لحظة أن تخبره بذلك فعلًا؛ أنها سوف تنجب طفلًا من رجل آخر. أو ربما تَدَّعي أن الطفل قد جاءها عبر الحلم، كأنه ملاك، مثل ذلك الذي ادَّعَت إيما رؤيته بينما هي صغيرة عند طرف سريرها. كان الملاك هو الذي قضى على حياة والدها.

- أكتُبُ روايتي الأولى.
- لا يُعَدُّ هذا اعترافًا.
- يتعلق الأمر بك وبي، وإيما وجوليان.
- فهمت.

يترك الفكرة غير السارة تنتشر داخل عقله أشبه بفضيحة، أو وصمة عار.

- ماذا تنوين تسميته؟
- هناك فكرة أخبرتنا عنها ذات مرة عندما كُنَّا طُلَّابًا. التبادل غير المقدس: التخلي عن أمر ما غير مُحَرَّم من أجل الحصول على شيء آخر غالبًا ما يكون مُحَرَّمًا. التبادل غير المقدس هو العنوان المبدئي.

t.me/yasmeenbook

- أشك في أن أي شخص سيرغب في قراءة كتاب بعنوان مثل هذا.

- ربما لا، ولكننا سنكتشف ذلك قريبًا.

- تقصدين أن لديكِ ناشرًا بالفعل؟

- نعم، أعتقدُ هذا.

يتركها تستلقي تحت ذراعه. يود أن يبتعد عنها، ولكنه يشعر باشمئزاز شديد يمنعه حتى من التَّحرُّك.

- لماذا تفعلين هذا بنا؟

- ماذا أفعل؟

- هذا الكتاب الذي تكتبينه عَنَّا.

- لأنني أعتقدُ أن الحكاية ستكون مُشَوِّقة.

- مُشَوِّقة؟ بعد كل ما مررنا به جميعًا؟

- لا تقلق. لقد قررتُ أن أنشر الكتاب باسمٍ مُستَعار. ربما اسم والدي. لن يذكر أحد اسمك في أي مكان.

يوضح لهما النادل أن هناك تخفيضًا خاصًّا للسكان المحليين على وجبة الإفطار، لذا كان عليهما هذا الصباح لأول مَرَّة الوقوف في طابور عند بوفيه الإفطار. لم يتحدثا عن كتاب جينيفر مرة أخرى، ولكن عطلتهما انتهت فعليًّا بعد مناقشة أمره. لم يمارسا الحب مرة واحدة منذ ذلك الحين، وأدرك أندرو أن زوجته وجدت الحبيب الذي كانت تبحث عنه دائمًا. ليس رَجُلًا، ولكنه كتاب، كتاب يقوم مقام كاهن الاعتراف. في اليوم الأخير من العطلة، صادف أندرو أحد معارفه القدامى من المدرسة. كانا يقفان في طابور انتظار طهو أطباق البيض. كان من الواضح أن الرجل الآخر لا يتعرف عليه، ولكن أندرو تَمَسَّك به مثل قارب نجاة في البحار المظلمة.

- ستيفن، أليس كذلك؟ ستيفن هوثورن؟

يسأل الرجل بينما ينظر إلى ما حوله بلطف كأنه يتوقع أن يتم القبض عليه: «من يسأل؟»

- أندرو فليتشر، من المدرسة!

t.me/yasmeenbook

- آه، نعم.

يحافظ الرجل على وجهه بلا تعبير قدر الإمكان بينما يحاول تذكر أندرو أو اسمه.

يقول أندرو بلا فائدة تُذكر: «كنت تسبقني بعام أو اثنين».

يقول بنبرة مختلفة هذه المرة كأنما يحاول أن يشير إلى أنه بالطبع لا يتوقع منه سوى تذكر الأولاد في مثل سنه أو أكبر: «آه، نعم».

ولكن بعدها –ولعظيم دهشتهما– يضيء وجه الرجل بالذكرى.

- أندرو فليتشر، الفتى القصير، الممتاز في السباحة. أعتقد أننا كنا في المنزل نفسه!

- نعم، هذا صحيح. كُنتَ أشبه بسمكة، فُزتَ بكل المسابقات.

يعاود ستيفن هوثورن النظر إليه مجددًا مبهورًا، ويشعر أندرو بعظيم فخر يتنامى بداخله تدريجيًّا.

لحظةً، شعر وكأن حقيقة بطولته مُهَدَّدة بواقعه الحالي.

يسأل هوثورن: «ما الذي تفعله هنا؟»

يقول أندرو بخيبة أمل غير مقصودة: «عطلة».

يتابع الرجل الآخر نظرة أندرو إلى المكان الذي تُجرِي فيه جينيفر عملية قلب مفتوح على حبة جريب فروت على مائدتهما.

من حيث يقفان، تبدو طويلة الأطراف وأنيقة، وتكاد تكون جميلة، ولكن لا يبدو أنها لاحظت نظرتهما إليها.

يقول هوثورن محاولًا أن يبدو مهمًّا: «أنا هنا في مهمة عمل. أحاول التأقلم مع طبيعة المكان. سنلعب الكرة الطائرة لاحقًا. لماذا لا تنضم إلى فريقنا؟ يمكننا أن نستعين بخبرات شابٍّ رياضيٍّ مثلك».

تشهد جينيفر لعبتهم من كرسيها الآمن. منذ حديثهما الأخير عن روايتها يبدو أنها توقفت عن كتابتها، كما إنها بدأت روتين احتساء الشراب في وقت أبكر من المعتاد. ليس الكتاب على الأرجح إلا أحد تهديداتها الفارغة، تمامًا كوعود أندرو. تبين أن صديق أندرو الجديد هو قلب وروح الفريق،

t.me/yasmeenbook

الجوكر الذي يرفعهم في كل مرة يسقطون فيها. دونه لن يتمكن الفريقان من الاستمرار في تحريك أجسادهم من الأصل. يبدون أشبه بأطفال يرتدون بدلات سمينة، ويلعبون لعبة جماعية لا يمكنهم التنصل منها. يقضي ستيفن معظم الوقت في متابعة الكرة ومجاهدة تنفسه المتسارع. في بعض الأحيان تبدو الكرة وكأنها جزء منهم، وترتدُّ ذهابًا وإيابًا مثل قمر أصفر لامع في مواجهة البحر المظلم. أصبح أندرو بعد فترة قصيرة بطل اللعبة. إنه اللاعب الوحيد هناك الذي لا يمكنه فقط استعادة الكرة، بل إرسالها بالضبط إلى حيث يريدها. يعرف كيف يوَظِّفُ جسده الأشبه بجسد راقص، بسهولة حركته ولياقته. كان على كل حال الصبي الذي لم يخسر أي سباق. ومع ذلك، ظل طوال اللعبة يحاول إخراج ذاك الصبي من جسده، كما لو كان –على عكس الآخرين– شابًّا يختفي داخل جسد رَجُلٍ حزين أكبر منه سنًّا. يتخيل أنه لا يزال هناك على الشعاب المرجانية، حيث تتجمع الأسماك السوداء حوله بينما تصطَكُّ شِفاهُها في انتظار أن يصبح طعامًا لها.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل الخامس عشر

محارة واحدة على طبقها

جينيفر - آمهالانجا روكس

كانت تبلغ من العمر اثني عشر عامًا عندما تذوقت أولى محاراتها. لطالما ربطت جينيفر هذه الحيوانات دائمًا بزوجة أبيها، التي اعتادت فحص أجزاء الكائنات البحرية الخاصة بدقَّة، وخاصة الأخطبوط. الأخطبوط، أو أوستراكود، أو المحار، تلك الكلمات التي تعاود زوجة أبيها استخدامها، والتي تبدأ بفتحة بين شفتيها، ثم فم مفتوح، وفراغ يهدد بابتلاعك بالكامل. كان الضيوف قد توافدوا لتَوِّهم لتناول عشاء مبكر، كان هذا عندما وقعت حادثة المحار سيئة السمعة. يأتي الليل في ديربان سريعًا. لاحظت جينيفر أيضًا أن طعم البحر أكثر ملوحة، وأن الرمال أكثر خشونة، وأن هناك عددًا أقل من الأصداف، وشموعًا تتدلى على كل طاولة، والنُّدُل يتحركون كأشباح في الظلال. على طول الأفق، يلمع ضوء سُفُنِ الشحن مثل أشجار عيد الميلاد، وعلى حافة الشرفة الأرضية تتحرك الخفافيش ذهابًا وإيابًا كما لو كانت تحاول استدعاء المزيد من النجوم. من داخل الفندق، يتسرَّبُ إلى مسامعها عزف بيانو أغنيةً عن قمرٍ فرنسي، تربطها جينيفر على الفور بأمها، التي هي أبعد ما تكون عن هذا المكان الآن. تحب أمها أن تصف نفسها بأنها عازفة بيانو مختصة، ولكن جينيفر نفسها لم تتعلم يومًا العزف على أي آلة.

t.me/yasmeenbook

تقول والدة إيما: «لن تأكله أبدًا». اسمها الحقيقي هو ماريا، الذي تقول والدة جينيفر إنه مجرد طريقة طنانة لاسم ماري.

يردُّ والد جينيفر: «على الأقل دعيها تحاول ذلك. لا يمكنها الجزم بأنها لا تحب المحار إذا لم تجربه».

وراء حوض السباحة، تتجول عين المنارة عبر بحر ضبابي ذهابًا وإيابًا، كما لو كانت تبحث عن شيء ثمين وضعه شخص ما في غير محله. هَبَّت الرياح، وبدأت المظلات حول المسبح في الاهتزاز والتأرجح. يرسل النادل الرئيسي –وهو رجل هندي بأسنان ذهبية– شخصًا ليقيدها إلى الطاولات.

تسأل جينيفر وهي تحدق إلى طبقها: «هل حَقًّا ما تزال حية؟»

تقول ماريا بينما تقطر عصير الليمون فوق طبقها الممتلئ بالمحار: «إذا مات، فلن تستطيعي أكله نيئًا. سوف تمرضين حتمًا».

كل من يجلس على الطاولة لديه طبق مملوء بالمحار، حتى إيما. بينما جينيفر لديها محارة واحدة فقط على طبقها.

- هل عصير الليمون يؤذيها؟

يضحك والدها على هذا.

- أنا واثق من أن تناولها بينما هي على قيد الحياة سيؤلمها أكثر من الليمون.

تقول والدة إيما: «شعورها بالألم أمر غير محتمل». ماريا من هؤلاء الذين يعرفون الإجابة عن كل شيء. تضيف: «ليس لديها جهاز عصبي مركزي مثلنا. بدلًا عن الدماغ، لديهم كتلتان عصبيتان تُسَمَّيان العقد».

كلمة معقدة أخرى. عصابة من الأعضاء التناسلية المتدلية. يرقد المحار فوق عُصارَته، مُنكَمِشًا كطبقات فوق بعضها، ممتلئ الجسم ودسمًا. لا يبدو على قيد الحياة، بل أشبه بالعضو الداخلي لكائن فضائي، ينبض مثل قلب فضيٍّ صغير. عاجزًا تمامًا، ينتظر داخل محارته بلا عيون ليرى، ولا فم للاحتجاج، ولا أطراف ليهرب.

تسأل جينيفر: «ماذا يشبه طعمه؟»

تردُّ إيما: «كالمخاط».

t.me/yasmeenbook

يقول والد إيما: «أعتقد أن طعمه مثل البحر». مبتسمًا تجاه إيما كما لو كانت أكثر ذكاءً مما هي حقًّا عليه.

يواصل والدها الشرح: «هل تعلمين أنه تم قد تم اصطياده من بين الصخور منذ ساعة أو ساعتين فقط؟ لن تتذوقي محارًا طازجًا كهذا في أي مكانٍ آخر في العالم».

كانت تلك أيضًا المرة الأولى التي تتذوق فيها إيما المحار، ولكنها أصبحت خبيرة بالفعل. تُخرِجُه من الصدفة بالشوكة الصغيرة وتسكبه في فمها، وتمسح فمها بذراعها بعد ذلك، بينما تترك الرخويات أثرها اللزج أسفل حلقها. ولكن لا يبدو أن إيما تمانع في كونه على قيد الحياة. تأكله ببساطة مثل طبق من رقائق البطاطس.

يشجعها والدها: «هيا، جَرِّبي، تناولي تلك المحارة فقط على الأقل».

تأخذ جينيفر شوكتها وتدفعها تحت المخلوق حتى تجد الجذر. تقطعه عن صدفته، ثم تمسكه أمام فمها. يقولون إن المحار يجعلك ترغب في ممارسة الحب، ولكنها لا تريد ممارسة الحب أبدًا.

بينما تحاول أكل المحار، كان الجميع يراقبونها، حتى إيما، التي لم يتبقَّ في طبقها سوى محار واحد غير مأكول. قالت إيما إنها كانت تأمل في العثور على لؤلؤة بين محاراتها، على الرغم من أن والدها قال إن ذلك مستحيل. وأضافت أمها بأن اللؤلؤة كانت أكثر بقليل من بصاق محار متجمد.

تقول إيما بفارغ صبر: «ابتلعيها».

تضع جينيفر المخلوق على لسانها، فيطفو في كهف فمها مثل قنديل البحر حتى تبتلعه بقوة، ولكنها تبصقه على الفور هابطًا مرة أخرى على طبقها، متلألئًا مثل اللوزتين الكبيرتين المتعفنتين.

- أوه يا إلهي!

لم يكن والدها هو من صرخ بهذا، إنها ماريا.

تنظر إيما إلى أمها بريبة، وبخوف مألوف.

- جينيفر، ما خطبك بحق الجحيم؟

- ماريا، من فضلك، لا يهم. إنه مجرد محار.

t.me/yasmeenbook

- إنها خسارة فادحة للمحار!

- جينيفر!

ولكن جينيفر تهرب بالفعل منهم. تدور حول البركة وتتجه نحو الدرجات الحجرية التي تؤدي إلى البحر، ولا تزال ذكرى المحار المُقَرفِص داخل فمها حية. عندما تصل إلى حيث الرمال الباردة، يمتلئ فمها باللعاب والبصق، وكثيرٍ من البصق، والمزيد من البصق.

وصل والدها بعد عدة دقائق. كانت قد وجدت صخرة على حافة البحر. الرمل مبلل بين أصابع قدميها، يأتي زبد البحر تحتها منبثقًا حول أصابعها. قررت ألا تترك صخرتها طوال الليل، حتى لو كان ذلك يعني أن يحيط بها المد ويأخذها في طريقه نحو أعماق البحر. سيأسف والدها عندما تذهب بعيدًا، وستتحمل ماريا كل اللوم على ذلك.

يقول والدها: «ها أنتِ ذي هنا. هل أنتِ بخير؟»

- أنا بخير، شكرًا.

- أنا آسف على ما حدث.

- لا يهم. إنها أشياء مثيرة للاشمئزاز إذا نَظَرتَ إليها من قرب.

- هي كذلك بالفعل. تشعر ماريا بالأسف حيال ما حدث أيضًا.

دائمًا ما تصل إليها اعتذارات ماريا عبر والدها، مما يجعل جينيفر تعتقد أن تلك الاعتذارات غير حقيقية على الإطلاق، فهي تعلم أن غضبها يتحول إلى نوبة صرع عنيفة وغير متوقعة، ولا يحق لأي أحد بعد ذلك أن يعود إلى الحديث عن تلك النوبات. ولا حتى إيما نفسها تُستَثنى من هذه الهجمات، والتي تبدأ في الانكماش على نفسها، والاحتفاظ بنظرة شاردة على وجهها عندما توجه أمها نحوها بعض نفحات غضبها. ولكن والدهما عادة ما يكون هناك لمحاربتها دفاعًا عنها. تعرف جينيفر أن هذا هو سبب تفضيل ماريا لتوجيه غضبها نحوها؛ فهي تعلم بأن جينيفر لا تجيد الدفاع عن نفسها. جلس والدها بجانبها ورفع يدها. يده دائمًا خشنة وتحمل رائحة الليمون. بدا البحر أبطأ بعد أن صار والدها إلى جوارها، وفقدت أعماقه المظلمة نصف خطورتها على الأقل. ولكنها لاحظت أيضًا أن والدها لا يزال يتنفس بصعوبة،

t.me/yasmeenbook

وكأنه ركض إلى هنا بدلًا من المشي. على الرغم من أنه أقلع عن التدخين منذ ستة أشهر، فإنه يقول إنه لم يشعر بأي تحسن من حينها.

- تبدو مُتعَبًا.

- أعتقد أنني أكَلتُ شيئًا سيئًا قد أثَّرَ عليَّ.

لدى ماريا نظرية مفادها أن لديه حساسية من القمح. تحب أن تتصرف كطبيبة حقيقية، رغم أنها لا تعرف أي معلومات أبعد من طقوس تزاوج الأخطبوط. تَدَّعي ماريا أن الأخطبوط كان أول مخلوق ذكي يملأ الكوكب منذ ملايين السنين. إنها مهتمة فقط بالأشياء القَيِّمَة ذات العلامات الواضحة في سياق التاريخ.

- ما زِلتَ تُجهِدُ نفسك في العمل.

غالبًا ما تكون تلك طريقتها في توبيخه. إنها أكثر الطرق المتاحة لديها للتعبير عن حبها له.

- ربما كانت المعكرونة التي أكلتها على الغداء.

تحافظ جينيفر على الصمت المدروس. تفعل هذا كلما ظهرت ماريا، أو أحد آرائها في الصورة، حتى لو ظهرت آراؤها تلك متخفية. ليست أبدًا غبية لتتحدث ضد ماريا؛ لأنها تعلم أنها يمكنها بسهولة إعادتها إلى أمها في جوهانسبرج. لديها هذا النوع من السيطرة على والدها.

- ربما يجب أن تتقاعد.

يضحك والدها.

- أنا أصغر من أن أفعل ذلك. وعلى أي حال، من سيدفع مصاريف تعليمك؟

تقول هي بينما لا تزال تشعر بالأسف على نفسها بسبب حادثة المحار: «ربما لا أحتاج إلى تعليم».

- إذن ماهي خطتك؟ الزواج من شخص غني؟

- سأكون مشهورة.

- فعلًا؟

t.me/yasmeenbook

- سأصبح روائية. سأكتب أدبًا حقيقيًّا.

مباشرة وراء السحاب، يخرج القمر. يبدو أكبر بقليل من قطعة المحار على الأفق، ولكن هناك ما يكفي من الضوء القادم منه لإنشاء مسارٍ فضي يصل إلى صخرتهما.

دون أن يحاول هدم أحلامها، يردُّ والدها: «حتى لو أصبحتِ روائيةً مشهورة، فستظلين في حاجة إلى الزواج من شخص ثري. حتى الكُتَّاب الأكثر شهرة عادة لا يربحون الكثير. في كثير من الأحيان ينتهي بهم الأمر إلى التدريس».

- حسنًا، لن أفعل ذلك أبدًا.

تبصق جينيفر، حيث طعم المحار لا يزال داخل فمها. كانت تلك طريقتها ليس فقط في إهانة ماريا، ولكن أمها أيضًا - المرأة التي لم يظن والدها أنها امرأة تستحق أن يبقى معها.

- ما هو الخطأ في التدريس؟ إنها واحدة من أكثر المهن شرفًا التي يمكن لأي شخص أن يختارها.

- لا أحب الأطفال.

يمكنها أن تشعر بابتسامة والدها ردًّا على تصريحها، رغم أنها لا تلتفت لتنظر إلى وجهه.

- هذا لأنكِ أنتِ نفسك مجرد طفلة، قد تتغير مشاعرك حيال الأمر فيما بعد، ستشعرين حينها حتى بالرغبة في إنجاب الأطفال.

- مطلقًا.

- ولِمَ لا؟

- لأنني دنيئة جدًّا.

تُوفي والدها بعد ستة أسابيع في أثر نوبة قلبية.

كانت تلك آخر محادثة بينهما تتذكرها قبل وفاته. بدا أيضًا وكأنه آخر حدث متماسك وقع في حياة جينيفر عدة سنوات بعد ذلك. تبع وفاة والدها مشهد غير واقعي لجنازته، حيث وقفت جينيفر بمفردها، بينما كانت إيما تبكي بين ذراعي أمها. لم تحضر والدة جينيفر الجنازة؛ قالت إنها لا تريد

t.me/yasmeenbook

أن تعترض دائرة حزن ماريا. يبدو أن حزن جينيفر لم يدخل في حساباتها. استغرق الأمر من ماريا تسعة أشهر حتى تنفي جينيفر بشكل دائم إلى جوهانسبرج. مع خروج والدها من المنزل، لم يبدُ لوجود جينيفر فائدة تُذكَر في العيش هناك. لم يُسمَح لها بالبقاء إلا لأن إيما طلبت ذلك صراحةً. قالت إنها فقدت والدها للتو، هل يجب أن تفقد أختها الآن أيضًا؟ ولكن كان ذلك قبل أن تسرق إيما من أختها لاعب الهوكي ذا الشعر الكثيف الداكن. بعدها، لم تتحدث جينيفر مع إيما أسابيع، وكان هذا كل ما تحتاج إليه ماريا من ذخيرة. جاءت إلى غرفة نوم جينيفر ذات يوم لإبلاغها الأخبار. كانت غرفة صغيرة بها نافذة ضيقة وإطلالة على الشارع المُحاط بأشجار البلوط، والضوء المنعكس على البلدة من التل المقابل.

أعلنت ماريا: «لقد كنتُ للتو على الهاتف مع والدتك. اتفقنا على أنكِ ستكونين أكثر سعادة إذا أقَمتِ معها في جوهانسبرج».

- وماذا عن إيما؟

- ستبقى معي هنا بالطبع.

- هل سأراها مرة أخرى؟

- يمكنكِ القدوم لزيارتها كما تشائين. سيكون هذا كبيتكِ الثاني تمامًا.

كانت ماريا تقول هذا فقط لتشعر بتحسن بشأن ما كانت تفعله. ولكن كل ما أرادته جينيفر في تلك اللحظة هو الابتعاد عن ماريا وإيما، التي كانت حينها في موعد مع ذلك الفتى الذي أحبته جينيفر، لاعب الهوكي الذي لم يكن حتى جذابًا للدرجة التي ظَنَّها هو بنفسه. كلما طالت مدة بقاء جينيفر في هذا المنزل كلما استنزفتها إيما أكثر فأكثر. استهلكت إيما كل الأكسجين في المنزل. حين تصل إلى الغرفة لا يتبقى ما يكفي من الهواء لأي شخص آخر بجوارها. لذلك انتقلت جينيفر إلى المنزل الأصفر الصغير المسطح في جوهانسبرج، ذلك المُحاط بشريطٍ من العشب الرفيع، وسياج متضخم حيث تعيش قطة ضالة تُدعَى سبير. على الرغم من ذلك، ازدهرت جينيفر سريعًا في هذه البيئة الجديدة. كانت وفاة والدها حدثًا صادمًا، تسبب في أحداث تالية لم تفكر في أنها ستتعرض لها يومًا. كما اتضح أن والدة جينيفر كانت على كل حال أقل حدة من ماريا، وقد منحها خروج إيما –الفتاة النموذجية

t.me/yasmeenbook

المشرقة– من حياتها إلى الأبد نوعًا من الراحة. ذهبت إلى المدرسة الخاصة حيث كانت أمها تُدَرِّس؛ مما يعني أن أمها لم تكن مُضطَرَّة إلى دفع الجزء الأكبر من الرسوم، وكانت علاماتها مُرضيةً دائمًا. تعلمت الفتيات الأخريات أن يحببنها لأنها كانت ذكية وساخرة، والأولاد لأنها كانت تحب الرقص والشراب. في الواقع، منذ أن تقيأت المحار لم تعاودها أي حوادث تقيؤ قط. طوال تلك السنوات لم تكن تملك صورة واحدة لوالدها في المنزل، ولا حتى لإيما أو ماريا. ولكن في حقيبة كرتون قديمة أعلى خزانة غرفة نوم أمها، اكتشفت جينيفر ذات يوم بعض الصور من زمن وقوع والديها في الحب. بالكاد تعرفت على أيٍّ منهما. بدا والدها نحيلًا للغاية بأسنان بارزة، بينما كانت أمها رشيقة جدًّا ومثيرة، وكانت تشبه إلى حد كبير الصورة التي أرادت جينيفر أن تصبح عليها. التقطت جينيفر من الحقيبة صورة واحدة لوالدها كانت مختلفة تمامًا عن الصور الأخرى. كان في الصورة جالسًا على متن يختٍ صغير للسباق، وظهره مفرود في مواجهة شراع منتفخ، وفوق كتفيه تلمع النجوم. كان يشبه الملاك؛ نصف جسده مُضيء ونصفه مظلم. اشترت إطارًا للصورة، واحتفظت بالصورة مُخَبَّأة بصحبة سجائرها في درجها المخصص للجوارب. أكثر ما أحبته في الصور الموجودة في الحقيبة هو أنها تعود إلى فترة ما قبل وجود ماريا وإيما. كانت جينيفر بالكاد قد رأت أختها منذ انتقالها إلى جوهانسبرج. على الرغم من أنها زارتها عدة مرات خلال العام الأول الذي رحلت فيه عن المنزل، فإن المنزل وكل شيء فيه قد تغير عليها تمامًا. تحولت غرفة نومها إلى غرفة ضيوف. لم تشعر بالأثر المُرِّ لرحيل والدها من قبل. في العام الثاني لرحيلها، رفضت جميع دعوات زيارة منزل إيما، وبحلول العام الثالث، توقفت الدعوات. في منتصف عامها الأخير في المدرسة، ومع ذلك، وفي ذروة شعبيتها، قررت جينيفر الكتابة إلى أختها التي فقدتها منذ فترة طويلة. سَرَّها رَدُّ إيما الفوري على خطاباتها، يبدو أن الرابط الذي اعتقدت جينيفر أنه قد انقطع للأبد لا يزال حيًّا وبخير. في تلك الفترة، كانت جينيفر قد ألزمت نفسها بفكرة كونها كاتبة، وقد شجعها أكثر أن تسمع أن أختها صارت تمارس الفن بالفعل. اكتشفت الأختان كيف صار بإمكانهما التحدث حول كل شيء، كل شيء حرفيًّا ما عدا الماضي. تحدثتا وكأنهما منحا المستقبل وَحدَه الفرصة، وسرعان ما وافقت جينيفر على قضاء

t.me/yasmeenbook

عامٍ فاصل حتى تتمكن من الالتحاق بالجامعة في العام التالي مع إيما في جوهانسبرج. قررتا بدء علاقتهما كأن فترة ابتعادهما لم تحدث حقًا. كانت إيما تفكر بالفعل في التقدم إلى مدارس الفنون في إنجلترا، ولم تفكر قط في ذكر ذلك لجينيفر. كما اتضح، لم يكن لديها سوى تسعة أشهر لتقضيها مع جينيفر قبل أن تنتقل إيما إلى سانت مارتن. بحلول ذلك الوقت كانت جينيفر قد صادقت أندرو فليتشر –مدرس علم النفس– وأمَّنَته لنفسها. مرة واحدة فقط خلال مراسلاتهما المدرسية تحدثت جينيفر مطولًا عن والدهما. في ذلك الخطاب، خُلِقَت كذبة، كذبة ستُعرَفُ مستقبلًا باسم حادثة المحار. عندما حكت جينيفر الأمر كتابة، بَدَّلت الأدوار؛ تحولت جينيفر إلى إيما وتحولت ماريا إلى والدهما. أصبحت إيما هي التي قام والدها بتوبيخها لتقيؤها المحار على طبقها، وأصبح والدهما هو المُوَبِّخ ذو المزاج السيئ بدلًا عن ماريا، وأصبحت جينيفر هي الفتاة الطيبة الجالسة هناك تحاول الدفاع عن أختها الصغيرة. لم تكن جينيفر متأكدة من سبب كذبها، ولكن عندما كتبت تلك الرسالة، ملأ طعم المحار فمها مرة أخرى، وعرفت أنها المسؤولة عن وفاة والدها. كانت هي التي تسببت في نوبة قلبية. لو بقيت على شرفة الفندق مع بقية أفراد العائلة وابتلعت ذلك المحار لتغيَّرَ كل شيء. كانت جريمتها هي أنها لم تندمج جيدًا مع العائلة، وطريقتها الوحيدة للعودة إلى أختها هي أن تكذب حتى تجد طريقها إليها. لقد جعلت إيما داخل الكذبة هي من بصقت المحار، إيما هي التي أثارت غضب والدهما، إيما كانت هي الفتاة غير الملائمة نمط العائلة، الكاذبة المزعجة الحقيرة، إيما، وليست هي.

t.me/yasmeenbook

t.me/yasmeenbook

الفصل السادس عشر

الفتاة وساعة الإيقاف - جوهانسبرج

- ولكن هذا لم يكن أنا، كانت خالتك جينيفر!

- أنتِ كاذبة وعاهرة!

يغلق باب السيارة في وجهها ويجري. كانت المدرسة شبه مهجورة في هذه الساعة، ولم يكن هناك من يشاهدهما. بينما يحاول الهرب منها إلى الأبد، يُفَكِّر في أنه يعرف بالضبط إلى أين يتجه. ستغلق المكتبة والفصول الدراسية عما قريب، وسيبدأ المسرح في العمل على البروفات، ولكن كنيسة المدرسة –تلك القائمة على صخرة عالية فوق أرض المدرسة– مفتوحة دائمًا ومُرَحِّبَة بالزوار. اكتشف جوليان الكنيسة خلال أسبوعه الأول في المدرسة، عندما لم يكن يعرف أحدًا هناك بعد ولم يعرف أين يمكنه أن ينفرد بنفسه المنغلقة على ذاته. ظل يزورها منذ ذلك الحين عدة مرات بهدف الاختباء. يحب التحديق إلى القديسين المنقوشين على الزجاج الملون في خلفيتها حيث تجلس الجوقة. مَوَّلَت النوافذ الفاخرة من قبل عائلات الطلبة القدامى الذين ماتوا في الحرب العالمية الأولى. يشعر بالاطمئنان بين الوجوه البيزنطية الطويلة، التي تساعده أعينها الكبيرة والمُحَدِّقة على تجاوز أي حزن. يحملون بين أيديهم أغصان الزيتون وقرابين من الخبز والنبيذ، مُحَاطين بتلال خضراء ناعمة لم تخشَ الملائكة أن تطأها قط. ولكن القديس الذي يحبه أكثر هو القديس فرانسيس نفسه، شفيع المدرسة، والذي يحتل موقعًا متميزًا فوق المذبح تحيط به الحيوانات والطيور التي تعود أصولها جميعها إلى

t.me/yasmeenbook

جنوب إفريقيا. في يديه يحمل حمامة السلام، حمامة بيضاء وحمامة سوداء. تم تأطير القديس الوسيم على كلا الجانبين بواسطة ديكٍ أزرق ونمر، يقفان معًا في بلد خلا من الضحايا، والجناة، ومآسي المفترسين والفرائس.

- منطقيٌّ تمامًا أن تكون خالتي جين هي من كانت في الغرفة.

يتذكر الطريقة التي أتت بها إليه في مسبح الفندق في اليوم التالي، بينما كانت عائلة هاملتون براون يغادرون بالسيارة نحو حتفهم المؤكد. يتذكر كيف بدت مترددة وتفيض بالحنان وهما يسيران معًا على طول الشاطئ عبر المطر الناعم غير المرئي تقريبًا. استطاعت أن تدرك كم هو مستاء، ولكنها علمت كيف تستجوبه دون أن يشك في الأمر. كيف يمكنها أن تعرف كل شيء بالفعل لو لم تكن الشخص الآخر في ذلك السرير؟ وكيف يمكن أن تكون أمه في ذلك السرير بينما كانت تتصرف في وقت لاحق بشكل طبيعي من حوله؟ في ذلك الوقت، ظن أن ما تفعله أمه هو نوع من التظاهر يخفي مستوى آخر من الغدر. كان يظن فيها السوء كونها تعلم أنه وكلاريسا قد فاجآها وهاملتون في الغرفة دون أن تشعر بأي ندم ناحيته أو تعود حتى لذكر الأمر أمامه أو مناقشته. ترك ظنونه تخلص إلى أنها قد قررت أخيرًا الكذب عليه، وقد تركته خالته جين يظن ذلك. وقفت من بعيد تراقب بينما كان جوليان يحاول استيعاب هذه النسخة الجديدة من أمه، بل إنها شجعته على ظَنِّه أكثر. من فمها سال السُّمُّ مصطحبًا كل كلمة طيبة، ومن يديها مع كل هدية قدمتها إليه، تمامًا مثل الساحرة ذات التفاحة المسمومة. عندما وصل إلى صحن الكنيسة وأخذ مكانه بين القديسين، وقف يتذكر شيئًا قالته كلير ذات مرة. ربما كان هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يمكنه نسيانه على الإطلاق: «إذا نظرتَ إلى ساحرة لا تريد أن تصير مرئية لمن حولها، فلن تتمكن من رؤية وجهها». يشعر بالسوء حيال التحدث إلى أمه بهذه الطريقة. يربت على جيوب السترة بحثًا عن هاتفه الجديد، في اللحظة نفسها التي أدرك فيها أنه تركه في السيارة. يتساءل إلى أين ستذهب أمه عندما تعود إلى المدينة يحيطها المتسولون في كل زاوية، ولا يزال غضبه يدق في داخله مثل جرس إنذار الحريق. لا يعرف من أين تأتي كل هذه المشاعر. في بعض الأحيان يبدو كما لو أنه سوف يلتهمه تمامًا، ويتغذى عليه مثل الشمعة السوداء. ما زال

t.me/yasmeenbook

حتى الآن يلهث من الغضب الذي يحترق بداخل ضلوعه، والرعب الناشئ من المشهد المحترق الذي تركه في أعقابه، حيث ترقد أمه وهي تدخن. لو كان بإمكانه الاتصال بها والاعتذار والشرح، ولكن فات الأوان لذلك. طارت كلماته مثل ذلك الطائر الشمسي فوق كتف القديس. طوال الوقت كانت أمه بريئة. طوال الوقت، كانت خالته جين. ليس في الأمر مفاجأة في الواقع. ألم تحتوِ كل كلمة قالتها له من قبل على معنًى ضمنيٍّ مُختَفٍ؟ ومع ذلك لا يمكنه أن يلوم خالته جين وحدها، جوليان نفسه مخطئ أيضًا. وفوقه يضيء صدر القديس فرانسيس بزجاج ملون. كانت أمه أشبه بحمائم الموت التي يحملها بين يديه، ولم تكن جين وحدها هي التي استدرجتها إلى هناك. كان جوليان يطعمها ويشجعها أيضًا. يفكر: ألم يشعر بأي إثارة في النهاية من كونه كان بهذا السوء؟ يمكنه أن يشعر بالإثارة المنصهرة من هذا الإحساس؛ التحدث إلى أمه على هذا النحو تحديدًا، لأنه كان يعلم أنها لا تملك ما يؤهلها للدفاع عن نفسها، عالمًا بأنه يمتلك كل القوة. حب الوالدين لأطفالهما يجعلهم عُزَّلًا. على الأقل هذا ما فعله حُبُّ أمه فيها. حتى القديس فرانسيس كان يعلم ما فعله. الطريقة التي يقبض بها على هاتين الحمامتين في يديه؛ يحاصرهما بينما كان ينوي حمايتهما، متسائلًا عما إذا كان من الأسهل على الجميع إذا قام بسحق قفصي عظامهما الصغيرة حول قلبيهما.

يتلألأ ضوء فترة ما بعد الظهيرة في المدخل في الطرف الآخر من الكنيسة، مُذَهِّبًا أحجار البلاط وحواف المقاعد. من هنا يمكنه سماع صوت طقطقة النافورة في الخارج، وإذا رَكَّز نَظَرَه بدقَّة أمكنه أن يرى تمثال الصبي الحجري الذي يقف في عمقها بين الزنابق مُمسِكًا بقربان ما، سمكة ضخمة لزجة. يعرف جوليان مع هذا أنه لا يوجد أحد في السماء لتلقي هذا القربان، وأن أعين القديسين لا تنظر إلا إلى الفراغ. مجرد صور لرجال غابرين، رجال ذوي أعين واسعة أمضوا حياتهم الطويلة وهم يبحثون دون جدوى عن الإله. في العام الماضي، حاول جوليان أيضًا البحث عن الإله. كان يعتقد أنها ستكون فكرة جيدة أن يؤكد فكرة صديقه روبرت. كان جوليان ببساطة فضوليًّا لمعرفة ما إذا كان الإله موجودًا على الإطلاق. كان يجلس كل صباح في الكنيسة، يجثو على ركبتيه ويرسل صلاته إلى السماء.

t.me/yasmeenbook

حاول أن يعيش كقديس ويتوقف عن أكل اللحوم، وصار لطيفًا مع الحيوانات وكبار السن، والأولاد الجدد في المدرسة، حتى إنه تمكن بضعة أشهر من عدم التفكير في الفتيات، وماذا يود أن يفعل بهن. ولكن في كل مكان كان يبحث فيه عن الإله لم يجد سوى الغياب. وعندما وقف قسيس المدرسة وتلا خُطبَه، كان كل ما يسمعه هو تباهي القديس بعلمه. حين طلب، سُمِحَ له بتلقي رقاقة الخبز على لسانه، وشعر بها تذوب بسبب النبيذ الحلو المرير. سُمِحَ له بالركوع على المذبح كواحد من المختارين. ولكن بعدها، حين انفرد بنفسه في غرفته، كان ينظر إلى نفسه في المرآة عالمًا في أعماقه أنه لا يوجد إله يراقبه. بينما يجلس في الضوء الوردي المنعكس بفعل الزجاج المُلَوَّن، يبدأ الشعور بالخوف في التسلل إليه. دون حب أمه هو غير مرئي في أي مكان. يجلس ها هنا منتظرًا أن يشعر بأي أهمية. يتمنى مرة أخرى أن يتمكن من الاتصال بها. يريد أن يخبرها أنه قضى سنوات في إلقاء اللوم عليها لأفعال كان عليه أن يلوم فيها خالته جين. حين تأتي إلى اصطحابه اليوم، وفي الطريق إلى المنزل، سيخبرها أنه لم يَرَ قط أي رجل يقترب من طريق الحديقة لرؤيتها، ناهيك بالرقود معها بجوار البركة. جاءت تلك القصة من خالته جين. سيخبرها أنها أم جيدة جدًّا، وأنه لن يستخدم مثل هذه الكلمات ضدها مرة أخرى. لو كان بإمكانه التحدث معها الآن. ألم يكن هذا هو الهدف من منحه الهاتف في عيد ميلاده؟ أليست تلك حالة طوارئ؟ هذه العزلة المشوهة، هذا المكان المدمر الذي تحيط به دائرة من القديسين الأموات المحدقين إليه. يتذكر الصلاة التي يتعلم كل صبي في المدرسة قراءتها، صلاة القديس فرانسيس. ولكن الآن كل ما يراه في ظلها هو نقيضها القاسي.

«حيث يوجد العفو، دعني أنشر العذاب

حيث يوجد الإيمان، دعني أنشر الشك

حيث يوجد أمل، دعني أنشر اليأس

إلى حيث يوجد نور، دعني أجلب الظلام».

كانت تلك هي الصلاة التي لَقَّنَته إياها خالته جين، وما زالت تعيش بداخله. تلك الصلاة التي ستجعل كل الكائنات البسيطة في العالم تتجنبه، كالطيور الهاربة من الفزاعة، تضرب قصديره الصدئ بحثًا عن قلب.

t.me/yasmeenbook

- جوليان؟

يستدير ليرى شخصًا يقف في ضوء المدخل على شكل قوس، ملاكًا صغيرًا أجنحته ملتصقة بظهره بلا إحكام.

- جوليان، هل هذا أنت؟

يقترب الشخص بهدوء، بلا أي صوت حتى لحركة قدميه، ولكن عندما يقترب تتحلل الأجنحة مُتَحَوِّلَةً إلى معطفٍ شتوي، ويصير الملاك فتاة. إنها إليزابيث، شقيقة كلير الصغيرة.

- مرحبًا يا ليزي.

- ماذا تفعل هنا؟

- أجلس فقط.

- هل كل شيء بخير؟

- نعم، شكرًا.

- وصلتَ مبكرًا مثلي.

كذب على أمه بشأن موعد بدء البروفة. بعد محادثته مع عمه أندرو، كان يعلم أنه سيحتاج إلى بعض الوقت بمفرده، وقت لاختبار كل الأفكار داخل رأسه، التي شعر بها ثقيلة وحادة مثل الأثاث القديم في منزل أمه. لم يقصد قط التحدث إلى أمه عن أيٍّ من هذا. ألم يعد خالته جين ألا يحكي؟ ولكن تلك الأيام انتهت الآن، تلك الأيام التي سكت فيها. وصلت إليزابيث الآن لتؤنسه بابتسامتها.

يسألها: «هل تعلمين أننا نعرف بعضنا بعضًا بالفعل من قبل؟»

- عفوًا؟

- نحن نعرف بعضنا بعضًا من قبل. تلك العطلة في آمهالانجا روكس.

تطلق ضحكة تبدو وكأنها تنهيدة ارتياح.

تسأل: «تتذكرني؟»

- طبعًا أفعل.

- اعتقدتُ أنك نسيتني.

t.me/yasmeenbook

- اعتقدتُ أنكِ نَسيتِني أيضًا.

تبتسم مرة أخرى، ابتسامة تأتي من مكان أعمق هذه المرة.

- كُنتِ الفتاة ذات ساعة التوقيت.

- هل تتذكر ذلك أيضًا؟

كان الأمر مثل الصعود إلى الهواء من أعماق البحر. يضحكان مرة أخرى، ولكن هذه المرة بمستوى جديد من المعرفة. تنعكس ذكرى حذرة ذهابًا وإيابًا بينهما. يبدو الأمر كما لو أن الأخت الكبرى قد تَسَرَّبت إلى داخل الفتاة، وقد وصلت إليه وتقف أمامه.

- اكتَشَفتُ الأمر لتوِّي.

- ماذا تعني؟

- الحادثة.

تمسك جسدها داخل معطفها. صارت أشبه بخفاش صغير الآن، مهزومة وحزينة.

- أنا آسفٌ حقًّا.

- شكرًا.

يطقطق السقف الخشبي المقبب فوقهما كما لو كان هناك من يستمع. عدا ذلك، ينتشر الصمت في المكان؛ لا صرير أبواب، ولا رفرفة حمام، لا يوجد سوى لحظة الانتظار هذه، هذا الفراغ، هذا الإدراك لبعض الاحتمالات الجديدة من حولهما. هل استحوذ جوليان على انتباه الله أخيرًا؟

- أنت تعلم أنها كانت أكبر منك في السن، ولكنها كانت تتصرف بخفة لا توحي بذلك.

- عفوًا؟

- كانت تقترب من الثالثة عشرة حينها.

- أعلم.

- ولكنك لم تلاحظ وجودي حتى حينها.

- أنتِ؟

t.me/yasmeenbook

- كنتُ أصغر منك سنة واحدة فقط. كان يمكننا أن نكون أصدقاء.

- في الواقع كلير هي التي اختارتني. لم أفهم لماذا. ولكنني وافقتها لأنني لم أجد ما أفعله سوى ذلك.

- تقول إنك لم تحبها فعلًا؟

- فعلت. في الواقع لم أكن حتى أصدق أن ذاك يحدث لي.

صارت ضحكة إليزابيث أكثر تَسامُحًا الآن.

- هكذا كانت كلير، كانت دائمًا تحصل على ما تريد. حتى واجهت قدرها الذي لم تستطع تغييره. حتى ساعة التوقيت، كان ذلك تصرفًا أشبه بطبيعتها، أن تحسب كم سيستغرق الأمر.

- أي أمر؟

- لا أعرف، القبلة المثالية؟

تبادل جوليان وإليزابيث قبلة بالفعل في بروفات المسرحية، بعيدًا عن أنهما كانا مُحاطَين بأنظار معلميهما وأصدقائهما، وظلا منعزلين تمامًا بعضهما عن بعض. تبادَلا القبلة فقط لأن هكذا تجري أحداث المسرحية. كل ما فعلاه كان الإيحاء بوجود قبلة. ولكن الآن، يمكن لجوليان أن يتخيل بالضبط كيف سيكون شعوره إن قَبَّلَ إليزابيث كما يجب للقبلة أن تكون، كما لو كانا قد قاما بالفعل ذاته عشرات المرات من قبل.

سأل: «هل أنتِ متحمسة للمسرحية؟»

- لا، أنا قلقة.

- لا تقلقي، ستكونين رائعة؛ صوتكِ مذهل.

- شكرًا، وأنت كذلك.

كلاهما يعرف أن هذا ليس صحيحًا، لكن جوليان يقدر هذه البادرة.

قالت فجأة: «ربما علينا أن نتدرب».

- ماذا؟

- أن نتدرب على المشهد.

- تقصدين... أن نتمرن على إلقاء الجمل الحوارية؟

t.me/yasmeenbook

تنظر إليه كما لو كانت قد قرأت بالفعل كل أفكاره منذ لحظة.

- أعني أن نتدرب على قُبلَتِنا.

يضحك.

- هل أنتِ جادة؟

- جدًّا.

ينظران إلى غرفة الانتظار. إنهما في الكنيسة، حيث الإله الذي لم يشعرا به قبلًا. يبدو الأمر كما لو أن المبنى بأكمله وجميع قديسيه قد اجتمعوا الآن من أجلهما فقط.

تقول: «ولكن ليس هنا».

- تقصدين لأننا في الكنيسة؟

تضحك.

- لا، أعني لأن شخصًا ما قد يأتي ويرانا.

- حسنًا.

ينتظرها أن تتكلم، ولكن يبدو أنها تستمتع بتعذيبه.

يتمكَّنَ أخيرًا من نطق السؤال: «أين إذن؟»

- برج الكنيسة.

- تقصدين... الآن؟

t.me/yasmeenbook

الفصل السابع عشر

معجزة صغيرة

إيما

يقع استوديو نابليون –الفنان من جنوب إفريقيا– في الطابق العلوي من مبنى أقيم على طراز الآرت ديكو. يصل الزائرون إلى هناك عبر مصعد قديم مرتجف تفوح منه رائحة الشحوم ودخان السجائر. ينظر نابليون إلى فستانها الممزق وشعرها المبعثر وأقدامها المخدوشة ويسأل عما إذا كانت قد تعرضت للسرقة.

- هربت.
- من أين؟
- أفترض أنني هربت من المنزل.

يومئ برأسه كما لو كان هذا متوقعًا؛ مرة واحدة على الأقل في حياة أي شخص.

- لقد استطعتُ التعرف عليكِ عن بعد، بين هؤلاء الناس هناك. كانوا يحاولون مساعدتكِ.
- حقًّا؟
- نعم، بالتأكيد.
- لا أعلم.

t.me/yasmeenbook

- أفترضُ أنكِ تريدين مني الاتصال بالسيد سماتس.

- من فضلك.

ليس الاستوديو أكثر من غرفة كبيرة وشاغرة تقريبًا. لوحات ضخمة ورسومات مثبتة على الجدران، وفي وسط الفراغ توجد طاولة طويلة مع ركائز عالية تحوي بعض الأعمال الفنية. يوجد في الزاوية البعيدة سرير مزدوج مجعد حيث تنام امرأة وطفلها في صمت. ومع ذلك، فإن جميع مصابيح الفلورسنت مُضاءة أي وقت من النهار أو الليل. يقف أمامها نابليون، الفتى الرهيب الجنوب إفريقي. شابٌّ نظيف ذو شعر مُضَفَّر وحذاء رياضي أحمر وبدلة رياضية من «أديداس» باللون الأزرق السماوي.

- يبدو أنكِ في حاجة إلى بعض القهوة.

- شكرًا.

بينما كان نابليون يشغِّل الغلاية وينظر إلى ما حوله بحثًا عن هاتفه، تفحص إيما الصور الموجودة على طول الجدران، التي تضم أشكالًا ملتوية ومقيدة بالسلاسل ذات جذوع مقطوعة ونازفة. يبدو أن اللوحات كلها تدور حول الاستعمار والعبودية. وعلى الرغم من رأي إيما في رمزية اللوحات أنها صريحة جدًّا ومباشرة، فإنها لا تستطيع إنكار أن الشاب لديه مهارة تصوير واضحة. إنها تعلم أن هذه الصور تُباعُ بمئات الآلاف من الراند [1]، وتتساءل لماذا لا يزال يختار العيش هنا. بصرف النظر عن أي شيء آخر، ليس هذا مكانًا مناسبًا أبدًا لتربية الطفل. ولكن ماذا تعرف هي عن تربية الأبناء؟

- جرانت في الطريق.

- من؟

- السيد سماتس.

- أوه، سماتي. شكرًا.

أعطاها كوبًا من القهوة مُحَلًّى بالحليب المكثف، وقد ابتلعت الكوب عن آخره دون أن تأخذ فرصة لتتنفَّس. كم مضى منذ أن أكلت أي شيء؟ في العالم الآخر من حيث أتت، تناوَلَت فطيرة لحم على الغداء.

---

(1) عملة جنوب إفريقيا.

t.me/yasmeenbook

- سَمِعتُ عَمَّا حدث لابنك.

- عفوًا؟

- هل تعلمين أنني كنتُ معه في المدرسة؟

- مع جوليان؟

يضحك نابليون.

- لا تتفاجئي. ذَهَبتُ إلى سانت فرانسيس أيضًا. سَبَقتُه بسنواتٍ قليلة.

- هذا مستحيلٌ تقريبًا.

تعرف إيما عن نابليون أنه قد عاش طِفلَ شوارع منذ سن العاشرة قبل أن يُقبَضَ عليه في جناية سرقة سيارات. أم إنه كان بسبب الاغتصاب؟ أمضى بقية شبابه في السجن، حيث بدأ في رسم لوحاته.

- ولكنني اعتقدتُ أنكَ...

- أوه! هذه مجرد قصة أخبرت بها السيد سماتس لجذب انتباهه. أنتِ تعرفين كيف يُحِبُّ تُجَّارُ الفن أن تكون لديهم قصة جيدة يروونها عن فنانيهم، وخاصة السود منهم. لن تلفت انتباههم إلا إذا كُنتَ مُجرِمًا في يوم من الأيام.

تضحك إيما.

- تقصد... لم يكن أيٌّ من هذا صحيحًا؟

- ولا كلمة واحدة منه.

- هل يعرف سماتي؟

- عرف الحقيقة بعدها بفترة قصيرة.

- ولكن القصة المُشَاعة عنك...

- رأينا أنها قد انتشرت بالفعل، فتركنا الأمر يسري كما أُريدَ له.

تنظر إلى المرأة والطفل على السرير.

- هل هذه زوجتك وطفلك؟

- إنها صديقة، تشاركني المبيت في الاستوديو أحيانًا، وتنام هنا إن تأخر الوقت ولم تستطع الحصول على سيارة أجرة لتُقِلَّها إلى منزلها.

t.me/yasmeenbook

- فهمت.

- ليست الأمور أبدًا كما تبدو عليه.

يضحك نابليون.

- أبدًا.

تصبح إيما أحسن حالًا بعد أن يوصلها سماتي إلى المستشفى. قررت أنها ستجلس مع جوليان حتى الصباح، وحينها تستطيع التحدث إلى الأطباء. تعلم أنها مدينة لابنها في اتخاذ أي قرارات يوصي بها الأطباء، ثم البقاء معه حتى النهاية المريرة. يتركها سماتي عند مدخل الطوارئ. وبينما كان يقود سيارته بحثًا عن موقف سيارات، تأخذ المصعد حتى وحدة العناية المركزة. تصل إلى غرفة الانتظار الصغيرة المقبضة، حيث تجد فردين من عائلة يونانية ظَلَّا يتوقعان طوال عام كامل خبر موت الجَدَّة. كان زوجها رجلًا أصم بلا أسنان، يجلس بصحبة ابنته التي تكبره في الحجم أضعاف المرات. ينظرون إلى إيما نظرة من يتشاركون القدر ذاته، كما لو كانوا هم أيضًا قد تنَصَّتوا على حديث الممرضات، عالمين بالفعل سبب وجود إيما في المكان.

يقع سرير جوليان في أقصى الغرفة بجوار النافذة. أندرو هنا أيضًا. وجهه أصفر، وقد لاح عمره على وجهه مُضاعَفًا، والممرض جالسٌ بجانبه وكف أندرو بين يديه. إنهما غير متكافئين، ولكن الليلة –كما قال نابليون– ليست الأمور أبدًا كما تبدو عليه.

- أندرو؟

- إيما.

رأت أن أندرو كان يبكي.

تقول إيما بينما تهرع إليه: «ماذا حدث؟ هل وصلت متأخرة؟»

تحول نظر كلا الرجلين إلى جوليان، الذي فتح عينيه ونظر إليها مباشرة.

- أمي؟

كان هذا هو كل ما استطاع قوله.

ولكنه كان يكفي ويفيض.

t.me/yasmeenbook

خرج جوليان من المستشفى بعد بضعة أيام. على الرغم من أن قدميه كانتا لا تزالان في الجبس، فإنه كان قادرًا على المشي باستخدام عكازين. الشيء الوحيد الذي يبدو أنه قد تأثر بشكل دائم هو بصره. صارت إحدى عينيه عمياء تمامًا، العين اليسرى، العين التي لم تستجب في أثناء الاختبارات الحركية. كلما تحدث إليه الآن تبدو تلك العين وكأنها تنسى وجودها في وجهه، أو تنسى أنها مرتبطة به، وتنجرف إلى التفكير في شيءٍ آخر، المكان الذي أُفلت منه مؤخرًا، العالم السفلي، الهاوية. في الواقع، لم يكن الأطباء على وشك نصح إيما بإيقاف تشغيل الآلات، على العكس مما قالت جينيفر إنها سمعته، الأمر فقط أن تشخيص حالة جوليان في تلك المرحلة لم يكن جيدًا بحال؛ كان تنفسه قد انخفض خلال ذلك المساء الأخير، وفي وقت من الأوقات كانت الآلات تتنفس عنه بنسبة سبعة من بين كل عشرة أنفاس، ولكن بحلول الساعة التي ركضت فيها إيما نحو المدينة ليلًا، كانت طاقة ما تنتعش داخله فجأة. عادت قدرته على التنفس، وعاد جوليان بعدها فورًا إلى الحياة. بدا أن ما أعاده هو اسمها الذي نطقه أندرو حين وصلت إلى غرفة الانتظار، على الرغم من أن الممرض قد نسب الهدية إلى الله القدير. يدخلان إلى المنزل مثل شخصين جديدين تمامًا على المكان. تفتح إيما جميع النوافذ والأبواب لضوء الشتاء الضعيف، ويصعد جوليان على الفور إلى السرير وينام. تجلس إيما بجواره ما تبقى من اليوم، مستمعة فقط لصوت أنفاسه المنتظمة. في صباح أحد الأيام بينما يتناولان الإفطار، اقترحت إيما بيع المنزل والانتقال إلى بيت بجوار البحر.

- لطالما أردت أن أعيش بجانب البحر. كما فعلت عندما كنت فتاة.

- ولكني أحب المكان هنا.

تعرف أنه يتحدث في الحقيقة عن إليزابيث.

كانت الفتاة المسكينة تزوره بعد ظهر كل يوم في المستشفى. كانت إيما قد علمت بعد دخول جوليان المستشفى أن إليزابيث شهدت حادثة «السقوط» –هكذا عُرِّفَت الحادثة منذ ذلك الحين– وكانت أول من وصل إليه بعد ذلك. صرخاتها هي التي دفعت الناس إلى المكان، بينما الحدث نفسه كان صامتًا تقريبًا. أصَرَّت إليزابيث أيضًا خلال الأيام التي تلت ذلك على أنه لم يقفز عن

t.me/yasmeenbook

قصد، وأن الأمر كان بالتأكيد حادثًا عرضيًا. وأضافت أن جوليان في رأيها بدا سعيدًا، ولم يكن لديه سبب يدفعه إلى إيذاء نفسه. ولكن إيما كانت تعرف ما هو أبعد من تلك النظرية. الشخص الآخر الذي عاد إلى حياتهم –وإن كان على الهامش– هو والدة إليزابيث، سينثيا. في المستشفى، كانت دائمًا ما تنتظر ابنتها في مطعم المستشفى بالطابق الأرضي. بدت أكبر سنًّا هذه الأيام، وكانت شقراء فقط لأنها صبغت شعرها. لم تتحدث إيما معها إلا في صباح اليوم الذي خرج فيه جوليان من المستشفى، حيث وصل إلى الطابق السفلي بقدميه المتضخمتين وكرسيه المتحرك تدفعه إليزابيث. وجدتها إيما امرأة محترمة ومهذبة بنظرة أكثر ثباتًا مما كانت عليه قبل وفاة زوجها.

على الرغم من أن سينثيا قد تزوجت مرة أخرى، علمت إيما أنها لم تنجب طفلًا آخر. إليزابيث أقل حماسًا وألطف من أختها الكبرى، الفتاة التي أحبت أن يدعوها الناس كلير. الآن وقد عاد جوليان إلى المنزل، صارت إليزابيث تأتي لزيارته، وتجلس في صحبته في غرفة نومه بعد الظهر وتقرأ له. حتى إنها أجْرَت يومًا محادثة مع إيما في المطبخ بينما تصنع كوبًا من الشاي لجوليان، وبالأمس قامت بتنظيف قفص الأميرة بيكلز. على ما يبدو، سارت أمور مسرحية «الملك وآنا» على ما يُرام. على الرغم من أن الطالب الذي استبدلوه بجوليان كان جيدًا، فإنه لم يكن لديه أيٌّ من قوة حضور جوليان على المسرح. حكت إليزابيث عن صعوبة الأمر حين اضطرت إلى الوقوف أمام ذلك الصبي الآخر أمام جمهورٍ كامل بينما كان جوليان في غيبوبة. وأضافت أن جوًّا من الحزن قد خيَّم على كامل العرض. حتى اللحظات الأكثر سعادة في الحبكة أثارت دموع الجميع. عندما ماتت الشخصية التي افتُرِضَ بجوليان القيام بها، كان احتمال موت جوليان هو ما كان يفكر فيه الجميع.

- أفترض أنه يمكننا البقاء في جوهانسبرج. ولكن ربما يمكننا الانتقال إلى منزل أصغر؟
- ماذا عن الاستوديو الذي تملكين؟
- يمكنني استئجار مكان في منطقة أخرى.
- ولكني أحب هذا المنزل.
- حقًّا؟

t.me/yasmeenbook

- إنه المكان الذي عِشنا فيه دائمًا.

- ولكن ألا ترغب في بداية جديدة؟

- كل ما علينا فعله هو إيجاد لونٍ آخر لطلاء باب الحديقة.

عندما وصل أندرو إلى باب الحديقة بعد إجازته كان وجهه قد تغيَّر مرة أخرى، وقد وجدت إيما صعوبة في التعرُّف عليه. تجنبته إيما منذ الخريف، ولم يعرب جوليان نفسه عن أي رغبة في رؤية خالته أو زوجها. ونظرًا إلى أن عطلة منتصف العام قد حَلَّت، لم يتسنَّ لجوليان رؤية جينيفر في المدرسة أيضًا. كلما طرحت إيما فكرة زيارة جين كان دائمًا ما يجد عذرًا يمنعهما من الزيارة. ربما لم يغفر لها علاقتها مع والد كلير، وتركه يلقي اللوم على إيما. ربما توصل جوليان ببساطة إلى ربط جينيفر بحياته السابقة، تلك الحياة التي كان يجلس فيها على مقعد المُتَفَرِّج ولا يفهم حقًّا ما يجري حوله. الحقيقة هي أن إيما لم يكن لديها رغبة في العودة إلى أيٍّ من مآسي الماضي؛ كان ابنها في مرحلة دقيقة، ويحتاج إلى التعامل مع مشاعره بهدوء. آخر ما سمعته إيما عن جينيفر هو خططها وأندرو لقضاء عطلة خارج البلاد، كان ذلك قبل أسبوع أو أسبوعين. افترضت إيما أنهما غادرا دون أن تتكلَّف جينيفر عناء وداعها.

- ما الذي تفعله هنا؟

- لم تَرُدِّي على أيٍّ من رسائلي. ماذا كان يفترض بي أن أفعل؟

- أنْ تفهم الرسالة.

فشل في أن يبتسم. من الواضح أنه قد عاد لتوِّه من بلادٍ ذات شمس حارقة؛ تبدو بشرته داكنة أكثر من المعتاد.

- أرى أنك قد لَوَّنتِ بابكِ باللون الوردي الفاتح.

- سَمَحتُ لجوليان باختيار اللون هذا العام.

- أين هو الآن؟

- مع طبيبه النفسي. لدي ساعة قبل أن أذهب لاصطحابه.

- يسعدني سماع ذلك.

- أفترض أنه من الأفضل أن تدخل.

t.me/yasmeenbook

يتبعها أندرو في الطريق المؤدي إلى الاستوديو. فَكَّرَت أنها لا تريده داخل المنزل. تنظر إلى الأعلى لترى ما إذا كان وجه جوليان يطلُّ من نافذة الحمام يراقبهما مذعورًا. هكذا فعلت حتى وهي تعلم أن الصبي بعيدٌ في أمان. دخلا حتى وقفا بين المنحوتات التي لم تنظر إليها إيما ولا مرة واحدة منذ الخريف. شعرت بأنها لا تميل إلى سحب الأغطية البلاستيكية وشرائط الشاش لفحص ما تحتها. عَلِمَت أن الطين لا بد قد صار مُشَقَّقًا وجافًّا للغاية الآن، بحيث لا يمكن استخدامه على أي حال. ربما في يوم من الأيام ستعرضها كما هي، عالقة في الزمن كما تلك الأشكال المدفونة في الرماد البركاني عندما انفجر الجبل فوق مدينة بومباي الهندية.

- هل ذهبتما في عطلة؟

- نعم، فعلنا.

- جزر المالديف، أليس كذلك؟

- استقررنا في النهاية على زيارة موريشيوس. ألم تستمعي إلى أيٍّ من رسائلي؟

الحقيقة أنها حذفت كل رسالة قد وصلت إليها منه.

- وماذا عن جينيفر؟ هل استمتعت بالعطلة؟

- نعم، أعتقد ذلك.

- مما يعني أنك لم تخبرها قط؟ أعني... عنا؟

- لم أكن أعرف ماذا عليَّ أن أخبرها.

- أفترض أنه من المستحيل قول الحقيقة. من أين ستبدأ الحكي على كل حال؟

لم يجلس أندرو حتى اللحظة، ولم تطلب منه ذلك. فَضَّلَت أن يقف هناك، مُحرَجًا بوجود مؤقَّت.

يقول بلا حماس: «أعلم ماذا تقصدين».

- على الرغم من أنني أفترض أن هذا ليس ما تفعله مع مرضاك. عليك أن تمنحهم بعض الأمل، أليس كذلك؟

t.me/yasmeenbook

- في الواقع لقد توقفتُ عن العمل. كانت لدي مريضة تُدعى ماريان. كنت أحاول أن أجعلها تؤمن بأنها تستحق أن يحبها الناس.

- ثم؟

- في أثناء وجودنا في موريشيوس شنقت نفسها، كما قالت دائما إنها ستفعل.

- ولكنك لم تصدقها قط؟

- اعتقدتُ أنها تقول ذلك فقط رغبة في جذب انتباهي.

- وهل جَذَبَت انتباهك إليها الآن؟

- فَعَلَت.

تبتعد إيما عنه. يبدو فعلًا مثاليًّا تمامًا من أندرو أن يحوِّلَ موت المرأة وتقصيره إلى فرصة ليشعر بالأسف على حاله.

- ماذا ستفعل الآن؟

- أعتقد أنني سأتجه إلى التدريس. لا يختلف الأمر كثيرًا عن مهنتي محللًا نفسيًّا؛ أن أحاول تعليم الآخرين، أن أصحبهم في رحلةٍ تتعلق باحتياجاتهم أكثر من احتياجاتي.

- هل ذهبتَ للغطس؟

- عفوًا؟

- أليس هذا ما يُفتَرَضُ أن يفعله الناس في موريشيوس؟

- نعم، ذهبنا مرة أو مرتين.

- هل كانت تجربة لطيفة؟

- نعم. على الرغم من أنني عَلِقتُ في الشعاب المرجانية وجرحت نفسي، حتى إنني خشيتُ أن يجذب دمي أسماك القرش.

أراها ذراعيه ويديه حيث بعض الخدوش والجروح الطفيفة. بالكاد ندبات، لا شيء خطر لدرجة الحديث عنه بهذه الجدية. ولكنه في النهاية رجل يُقَدِّرُ الجروح وتُحَفِّزُ حزنه.

- وهل جذبت الدماء إليك أسماك القرش؟

t.me/yasmeenbook

- لا أعتقد أنني وصلت إلى ذلك العمق.

تبتسم بالكاد.

- حسنًا، لا يبدو أن العطلة قد حققت المرجو منها.

بينما تسأل، كان أندرو قد قرر بالفعل –وبلا دعوة– الجلوس على كرسي والدها القديم، الكرسي نفسه الذي تستخدمه جينيفر عندما تأتي إلى هنا. يقبع الكرسي في زاوية جيدة بالغرفة، حيث يطلُّ الجالس على تلال الضواحي الباهتة خلف المنزل.

- لم أبدأ في الإحساس بالراحة سوى في اليوم الأخير، حتى إنني قد لَعِبتُ الكرة الطائرة على الشاطئ.

- وجينيفر؟ هل أحست بالراحة؟

- كانت تجلس يوميًّا تحت إحدى المظلات المصنوعة من القش فاحصة قائمة الكوكتيل، مرتين في اليوم على الأقل.

- أفهم.

- هل تتذكرين تلك الرواية التي كانت تهدد بكتابتها دائمًا؟

- ماذا عنها؟

- كتبتها بالفعل. حتى إنها وجدت ناشرًا.

- كامل التوفيق لها.

- ستصدر العام المقبل على ما يبدو، في الربيع. «نعمة البصر»، هكذا أسمتها.

- عَمَّ تتحدث؟

- عَنَّا. يتعلق الأمر بنا جميعًا.

- لا أصدق!

فشلت إيما في إخفاء نبرة الغضب من صوتها. هذا أمر متوقع تمامًا من جينيفر، كما لو أن اقتراب جوليان من الموت لم يكن كافيًا.

- هل قرأتها؟

- لا.

t.me/yasmeenbook

- لماذا؟

- نحن لا نعيش معًا الآن؛ طَلَبَت الطلاق.

- آسفة لسماع ذلك.

- حقًّا؟

- فعليًّا، لا.

تجلس في مواجهته. خَفَّت شحنة الغضب حولهما فجأة.

- لماذا أتيتَ إلى هنا يا أندرو؟ ما الذي تريده؟

- جِئتُ لأعتذر.

- لماذا؟

- أعتذر عما حدث مع جوليان. أريدكِ أن تعلمي أنني لن أسامح نفسي أبدًا.

- لقد سامحتَ نفسك بالفعل بينما كُنتَ تلعب الكرة الطائرة على الشاطئ.

يقبل اتهامها. لا يحاول الدفاع عن نفسه.

تُكمِلُ إيما: «ولكن لا تقلق، لا ألومك أنت تحديدًا. هذا ما نفعله في العادة؛ نسامح أنفسنا».

يبدو الآن أضعف بعد أن تركته زوجته حاملةً كتاب الانتقام تحت إبطها. استعادت روحه بعضًا من اللطف الساري حوله.

- على الأقل نعلم أن ما حدث مع جوليان كان حادثًا.

- هل تظنُّ ذلك حقًّا؟ اعتقدتُ أنه في عالمك ليس هناك ما يُسَمَّى بالحادث. ربما أراد جوليان السقوط بشكل ما. وإلا لماذا ذهب إلى هناك؟ لماذا وقف على هذا الحاجز وقد أغراه المصير؟ ربما كان ما حدث له أكثر من زلة فرويدية.

لم يبتسم أيٌّ منهما للمفارقة.

تتابع إيما: «يمكنك على الأقل إخباري بما تحدثتما عنه في ذلك اليوم».

t.me/yasmeenbook

يمكنها أن ترى أنه يُفَضِّلُ التظاهر بأنه لا يستطيع التذكر، ولكنهما تجاوزا ذلك الآن. يستقر بشكل أعمق في الكرسي، كما لو كان يحاول أن يجعل نفسه أصغر.

- كان لديه قصة. قال إنه رآنا معًا في الحديقة.

- ذكر لي شيئًا مُشابِهًا.

- هل فعل؟

- لم يحكِ بتفصيل، ولكن القصة كانت واضحة.

- هل تعتقد أنه اختلقها؟

- ليست لدي أي فكرة.

- حسنًا، لقد وصف لي المشهد قبل فترة وجيزة من أن ينعتني بالعاهرة الكاذبة.

- آسف.

- هل أنكرتَ حدوث ذلك؟

- بالطبع.

- ولكن هل صدقك؟

- كان عليه أن يصدقني، كانت تلك الحقيقة بحذافيرها.

- ماذا قال أيضًا؟

- أراد أن يعرف ما إذا كنتُ والِدَه.

- يا إلهي!

ينظر إليها أندرو بعينين مفتوحتين، ويكرر: «آسف يا إيما».

- هل أخبرته على الأقل أنك لَستَ أباه؟

- قلت إنني أحببتك، ولكن كأخت.

- كأخت؟ تقصد كما تحبني جينيفر؟

- ليس بالضبط.

تفرك عينيها وتنظر إلى صورته الباهتة في عينيها.

t.me/yasmeenbook

- كان يجب أن تُكَذِّب، كان يجب أن تقول إنه لا يوجد حب بيننا.

- ما كان يجب أن أتحدث معه في المقام الأول.

- كل ما أردته هو أن تقضي بعض الوقت معه يا أندرو. أن تستمع إليه كأحد أفراد الأسرة، كعم، وليس كمحللٍ نفسيٍّ لعين. هل كان الأمر بتلك الصعوبة؟

وجهه جامد كما لو كان يحاول استيعاب ما قالته لتَوِّها.

- سأتخلى عن المهنة، كمدمن الشراب الذي يقرر في كل مرة الإقلاع عنه إلى الأبد.

- لن تستطيع التخلي عن مهنتك. لديك مُطَلَّقة لتعولها، ستحتاج إلى منزل مثلًا كبداية.

- سأترك لها المنزل.

- أين ستعيش؟

- وجدتُ شقة تطلُّ على حديقة. لا يمانع مالكها استضافتي وكلبي اللابرادور.

تسير إيما نحو أقرب منحوتة وتسحب غطاءها بعيدًا عنها، حيث رقد تحته تمثال غير مكتمل لملاك، ثقيل الأطراف للغاية بحيث لا يمكنه الطيران، بينما أجنحته ليست أكثر من جذوع غير مكتملة النمو. ثم تنتقل إلى التمثال التالي والتالي، في كل مرة تكشف عن الأشكال التي كانت ذات يوم تحفظها عن ظهر قلب كتفاصيل جسدها. أما الآن، فلا علاقة تربطها بها، وكأن صانعها شخصٌ آخر.

قالت إيما بينما تلقي الغطاء من يدها فوق كومة: «تغيَّرَ كل شيء».

- نعم، ولكن هذه هي الحال.

ينظر أندرو إلى الحيوانات الغريبة من حولها. يبدو كما لو أن نظرته لا تستطيع التفريق بينها وبين المنحوتات.

تشعر هي لحظةً بقوَّتِهم، تشكل مجموعة منهم قطيعًا من الذئاب.

t.me/yasmeenbook

- كنت أبحث عنك في كل مكان زرته في أثناء عطلتنا. حتى إنني بحثتُ عنكِ في القرية هناك، ظللتُ أفكر في أنني لا بد وأن رأيتك، وكأن كل فتاة في القرية صارت تشبهك وتملك شعرك.

- ماذا تريد أن تقول؟

- أرَدتُ فقط أن أراكِ مرة أخرى.

- حسنًا، أنا هنا.

- أراكِ.

ظلا ينظران بعضهما إلى بعض كما اعتادا في أيام تعارفهما الأولى، نظرة كانا كليهما قد نسيا أثرها، نظرة تحمل ما هو أكثر من الصداقة، وأعظم من الحنان، نظرة قبول أن كليهما حاضرٌ الآن من أجل الآخر.

- ربما ليس عليك أن ترحل.

- حقًّا؟

- أعني أن تبقى للعشاء.

- وماذا عن جوليان؟

- ماذا عنه؟

- أنا متأكدٌ من أنه ما زال يحتقرني.

- لم يحتقرك يومًا يا أندرو. أشك حتى إنه يفكر فيك هذه الأيام. لديه اهتماماته الخاصة، ولا علاقة لها بك أو بي.

- يسعدني سماع ذلك. يبدو أننا بدأنا أخيرًا في فعل شيء صحيح. معجزة صغيرة.

يضحك أندرو.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

الفصل الثامن عشر

القبلة المثالية

جوليان - جوهانسبرج.

متشابكة أطراف أصابعهما كما لو كانا على وشك أداء رقصة، يمُرَّان عبر الباب الخشبي الذي يؤدي إلى الدرج المتعرج لبرج الكنيسة. يصعد جوليان أولًا تاركًا خلفه غرفة قارع الأجراس، صاعدًا السلم المعدني الرفيع الذي يوصل إلى الغرفة حيث تتدلى الأجراس مثل الفاكهة الحجرية المتربة. يتسلق السلم المعدني الأخير ويدفع الباب المسحور الثقيل ليفتحه، ثم يغلقه خلفه بحذر حتى لا يصدر صوتًا. يتدلى علم المدرسة في الهواء الهادئ بلا رياح، والسماء من حولهما بلون اللؤلؤ. يأخذ بيدها لمساعدتها على صعود الدرجات المتبقية وهي تضحك بلهفة تحسُّها نحو الوصول إلى غرفة البرج، وإلى احتمال القُبلَة غير المؤكد.

- هل تخافين المرتفعات؟

- لا، على الإطلاق.

تضحك، كما لو كانت تحاول طمأنة نفسها.

من حيث يقفان يمكنهما رؤية جانبي المدينة: وسط المدينة القديمة تندمج بينها بعض المباني السكنية المتحللة وبرج أسمنتي –يبدو كنسخة من تلك المنارة في آمهالانجا روكس–، ثم في الاتجاه المعاكس، حيث الغابة

t.me/yasmeenbook

في الضواحي الشمالية لجوهانسبرج، حيث المراكز المالية في روزبانك وساندتون، والمباني الزجاجية نصف المشيدة، والمحاصيل فوق الأشجار المحتضرة. قال أحد معلمي جوليان إن مدرستهم تقف حدًّا بين عالمين مختلفين: العالم الناشئ والعالم المتحلل. كَلَّف المُعَلِّم الأولاد في الصف بكتابة مقال مقارن عن العالمين.

- ها نحن أولاء أخيرًا.

يقفان متواجهين تمامًا كما المشهد في المسرحية. يضحك جوليان ويلقي اقتباسًا من أغنية.

- يفرض المشهد أن نتبادل القبلة في الظل لا في ضوء النهار.

- ليس لدينا ما نختبئ منه.

يتلمَّس وجهها بعناية كأنما يخشى أن يفَوِّتَ لمس فمها. يقبلها في اللحظة ذاتها التي تقترب فيها منه لتقبيله.

يخلع سترته بعد أن ترحل. يقف عبر الحاجز، يشعر وكأنه آخر شخص بقي على الأرض في هذا البرج المضيء، بينما تقبع المدينة تحته تائهة. ظهرت من فوقه نجوم، وتراكمت السيارات في زحام المكان أسفل البرج وقد أنارت مصابيحها الأمامية المكان.

لم يشعر قط بتلك الثقة من قبل بينما يتسلق الحاجز. يتوازن على حافة البرج مثل طائر يستعد للطيران. سار جوليان على طول هذا الجدار مرة واحدة فقط من قبل، كان حينها بصحبة روبرت في أثناء الاستراحة، في ضوء النهار، حيث كان يمكنهما رؤية موضع أقدامهما. هذه المرة، كان كل ما يشعر به جوليان هو تعرجات الحجر تحت قدميه.

- جوليان!

ظهرت إليزابيث خلفه مرتدية معطفها. ترفع ذراعيها بلهفة أمامه.

- ماذا تفعل؟

- كلنا ملائكة، وهذا العالم الذي نعرفه ليس أكثر من أغنية رحيمة.

«هنا تبدأ الحياة». هكذا يفكر بينما يخطو خطوة أخيرة نحو الظلام.

t.me/yasmeenbook